الإعلامية السورية

علا عبّاس

ثورة امرأة

مدونة ابو عبدو

الكاتبة: كانت عُلا عبّاس من نجوم التلفزيون والإذاعة السوريتين. هجرت وطنها في تموز 2012 إلى فرنسا حيث تتابع تطور الثورة. متمنيةً نهاية القتال وعودة الحرية والأمن والاستقرار والعدالة من خلال حكم ديمقراطي يمثل اراء وطموحات كل الشعب السوري.



جروس برس ناشرون
Jarrous Press Publishers

ثورة امرأة

عــلا عباس

ثورة امـرأة

2014

©جرّوس برّس ناشرون

Jarrous Press Publishers

شارع جميل عدرة ، باسل سنتر

ص.ب.: **189** ، طرابلس، لبنان

تلفاكس: **9616208205 +**

jarrous.press@gmail.com
info@jarrouspress.com
www.jarrouspress.com

ISBN 978-9953-587-03-5

© الطبعة الأولى **2014**

2455.3297.23.9.13

اعتذار واهداء وشكر

«إنني أقدم اعتذاري لاستخدامي مفردات طائفية»

وأهدي هذا الكتاب إلى شهداء الثورة السورية

وأشكر الأصدقاء السوريين الذين وقفوا إلـــى جـــانبي معنوياً.

تحياتي

تترنَّح ذاكرتي المجنونة كلياً، بعد عام ونصف من الشيزوفرينيا الإنسانية والوطنية التي عشتها، هاربة من أي تسلسل زمني ومنطقي ومتوهّمة أنها كانت أحداثاً واقعية. كل الحكايات والنتائج تحولت إلى وهمٍ هشّ مغلف بقشرة بيضاء.

كنت منهمكة جدّاً في إصلاح علاقتي مع الكون عندما فاجأتني الحكاية بأقسى ما يمكن للكائن البشري توقعه: فتح العينين على الحقيقة.

*****

آذار 2011

دخلت بشكل اعتيادي إلى مكان عملي في الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون في ساحة الأمويين حيث يصمد السيف الشهير درج السماء الدمشقية. بدت الوجوه التي لمحتها في ممرات التلفزيون – حيث تعمدت أن أعبر – واقفة على ساق واحدة، وشعّت العيون الزجاجية بتيار ارتباكٍ غض.

وبنظرة خاطفة إلى اصفرار سحنة مدير التلفزيون الذي كان خارجاً للتو من مكتب المدير العام، أدركت أن أشباح الموت بدأت تهيم في المكان. في الطابق الثاني وتحت مكتب المدير العام تماماً يقع مكتب وزير الإعلام، وفي الفسحة المقابلة للدرج الواصل بين الاثنين، وأمام مكتب الوزير، سمعتُ كلمات احترام وانحناء، تستخدم لمخاطبة الشخصيات المخابراتية أو العسكرية المهمة، وأشار صوت الجلبة الرصينة للمرافقة إلى أنّ الوزير يستقبل أحدهم. كنت قد دلفت من الباب الخلفي قادمة من مرآب السيارات، وصعدت الدرج المؤدي إلى الطابق الثالث من المبنى الخلفي المخصَّص لدائرة الدراما وقناة الدراما. ومكاتب الفضائية السورية، وبعض رؤساء الأقسام، وعبرت الممر الواصل بينه وبين القسم الأمامي حيث تتوزع غرفتا الماكياج وتصفيف الشعر واستوديوهات المونتاج، ومنظومة التحرير سابقاً. ومكاتب مدير القناة الأرضية، ومدير التلفزيون، والمدير العام، وغرف أخرى.

اعتدت اختيار هذا الطريق فقط في حال وجود عمل لديّ في التلفزيون أو في حال زيارتي لأحد المديرين، بسبب وجود طريق آخر مختصر ومباشر يضعني في الإذاعة، دون أن أعبر كل هذه الممرات. يومها، كنت أريد الرؤية فقط. صعدت الدرجات المؤدية إلى الطابق الرابع، ورأيت باب مكتب مدير الإذاعة مفتوحاً، دخلت إلى غرفة الحمامات لأتأكد من مظهري قبل أن أدخل لرؤية مدير الإذاعة.

وجهه كان كالحاً بالفطرة، وسمرته تميل إلى الزرقة، وهو انزياح لوني، كنت أراه في معظم وجوه أبناء منطقة الغاب العاملين في الزراعة أثناء شبابهم، وهي السمرة ذاتها التي كنت ألمحها في وجوه بعض العراقيين. جلست بعد إيماءة من يده، وتابع هو حديثه المبهم عبر الهاتف بعد أن عدّل جلسته المائلة كلياً، ثمّ استعادها مباشرة بحركة لاإرادية. وبصوت خفيض يشبه الهمهمة – التي اعتدنا نحن السوريين على استخدامها عند تداول الجنس أو السياسة – أنهى الحوار الغامض، ثم استدار نحوي وقال:

- آسف، الأمر ضروري.
- ولا يهمك، كيفك؟
- لا بأس..
- شو الأخبار؟
- انتِ شو سمعتِ؟؟؟

أتغابى وأقول: انت احكيلي!!

يجيب: شوية زعران بدرعا.

ثم يضيف بلهجة مدّعية الطمأنينة والحسم:

- محلولة، السيد الرئيس أرسل وفوداً لحل المشكلة مع أهالي الأطفال في درعا.

هذا لا يكفي. أجبته، عليه أن يعاقب عاطف نجيب.

تظاهر أنه لا يستمع إلى ما أقول، رغم أنه كان يسمعني واستلّ سماعة الهاتف من جديد.

كان مدير الإذاعة شاعراً وزميلاً لوالدتي، وجمعته بها علاقة شعرية توطدت عبر لقاءاتهما في الاجتماعات الشهرية لاتحاد الكتاب العرب في سوريا، وكان ذلك

قبل أن يصبح هو مديراً للتلفزيون ثم الإذاعة، وقبل أن تُنتخب هي نائبة لرئيسة الاتحاد. ولطالما اعتقدته وسيماً قبل أن يهجر حلمه الريفي بالكتابة، ويدخل في صداقات عميقة مع بعض ضباط المخابرات و"التقّال" – كما اعتدنا أن نقول – صنعت منه مديراً لسنوات، وقبل أن يتغير شكل وجهه ويخبو بريق عينيه، وتصبح ملامحه أقرب إلى كتبة التقارير الأمنية، وهم موظفون متنكِّرون يتجسسون على جميع المواطنين، الأغنياء والفقراء، الأميين والمتعلمين، البسطاء والمثقفين، العمال والمدراء، وعلى النساء والرجال والمخنثين، ويعيشون معنا في العمل والحي، والمقاهي والمطاعم، والأمسيات الشعرية، والمعارض الفنية، والندوات الثقافية، والمصانع، والمطابع، والمطارات، والحدائق، والملاهي الليلية، والأعراس، وجلسات العزاء، ودور العبادة.

دخل أحد رؤساء الأقسام المنافقين، وانضم إلى جلستنا، بعد أن حيّا مدير الإذاعة، مشيحاً برأسه وبصره نحو الأرض بحركةٍ احترام مشوب بكيمياء الذل، وبدأ بالتملق المنتشر بوفرة في حياتنا العامة. شربنا القهوة بلا حديث مهم يذكر، وغادرتهم لألتحق بعملي في الإستديو، وكنا لم نبدأ مسلسل التلفيق بعد.

*****

وُلدت لأبٍ متعلّم وماركسي ووحيد لأمه، من قرية "مشرفة المشايخ"، التابعة لريف مصياف. وقد غادرها أبي، واستقرّ في مصياف البلد، بناءً على طلب جدتي الأرملة، ورغبتها في منحه التعليم اللائق. وهذا كان حال معظم أبناء الريف الراغبين في العلم حينها والمضطرين إلى قطع مسافات بعيدة للنزول من قراهم الباردة وارتياد المدارس في منطقة مصياف، الواقعة في الوسط بين الجبال الساحلية والسهول الداخلية من سوريا، والتابعة إدارياً لمحافظة حماه.

كان أهل أبي من مشايخ العلويين، وهم أصحاب مكانة وحظوة لدى الطائفة - رغم أن مكانتهم تضاءلت بعد الانتشار الواسع لنفوذ عائلة الأسد. ولجد أبي مقام يعلوه سقف على شكل قبة في أعلى سفح في الجبل، ,اذكر أني كنت أزوره مع جدتي وأصل إليه، وأنا ألهث من التعب ككلب عطش بعد أن نمارس رياضة تسلق الجبال سيراً عبر الطرقات الجبلية الوعرة المؤدية إليه، وحين نصل تنفتح أمامي رؤية سحرية، لم تمحها أظافر الزمن الخشنة من ذاكرتي: ساحة وارفة محاطة بأشجار السرو والصنوبر، يتخللها بعض الصخور الملساء المتعايشة مع أزهار برية وجبلية ثائرة، تملؤها بالبهجة المجموعات البشرية المنتشرة هنا وهناك، عائلات قادمة مع اطفالها، لإيفاء نذورها للمقام أو للاحتفاء بأعياد كثيرة كأعياد الربيع والأضحى والرابع من نيسان، جماعات شبابية قادمة للتسلية في مكان اصبح مع الوقت منتزهاً للعائلات وملتقى للعشاق والعازبين، يعمِّرون موائد البرغل واللحم المطبوخ مع المرق وقطع البطاطا، أو المكوم فوق صواني البرغل العامرة، ويعقدون حلقات الدبكة والغناء والهرج، ويتبادلون نظرات حب عفوي ريفية وخفية، تتسلل كتيارات كهربائية غامضة بين عيون الشباب والصبايا المرتدين أفضل ما عندهم من ثياب بسيطة وغير أنيقة. وتشتبك الأصابع مع بعضها في حلبة الدبكة، ويعلو صوت خبطات الأقدام على الأرض في حماسة تزيد عندما يتعمد الرجال إظهار فحولتهم للنساء، ولفت أنظارهن. وتصبح الخطوات الراقصة أسرع وأقوى مع تصاعد حالة الابتهاج الجماعي، في غليان يشرح نزوع البشر للرقص والتعبير عن غريزتهم للبقاء والتكاثر والخلود في كون غامض.

في الطرف اليميني للساحة تتكشف قبة المزار وأمامه بعض القبور المزينة بالريحان، وبينها قبر أبي. وكانت جدتي تبلله بالدموع والعتب واللوم كلما زرناه، لزواجه بوالدتي من خارج الطائفة ومخالفته لنصائحها، وهو الحديث الذي ألحت جدتي على تلقيني إياه منذ الرابعة من عمري. كنا ندخل المزار منذ وصولنا، ننزع أحذيتنا في الخارج، وتتأكد جدتي من أنني لست حائضاً، كي لا أنجس المكان

المقدس، وهذا طقس بدأت تتبعه بعد بلوغي، ثم نبدأ بالدوران حول ضريح الشيخ جد أبي الموجود في الداخل والمغطى بقماشة خضراء خشنة نقتطع أجزاء منها ونضعها في معاصمنا للتبرك، رائحة البخور تملأ المقام، وندور ونحن نقبل قماشة الضريح وندعو اللّه أن يوفقنا، ثم نخفض جبهتينا ونلصقهما به، ونتضرع للشيخ الميت أن يتشفع لنا لدى اللّه كي يحمي أهلنا وأحبتنا من الأذى ويحقق أمنياتنا. نقبِّل وندعو ونلصق جباهنا، ونقبل وندعو ونلصق جباهنا، هكذا دواليك حتى يخلص الدعاء. كانت جدتي تدعو وتبكي، وتشتد رائحة البخور والدموع في المكان. وكنت ككل الأطفال الصغار الذين يقلدون الكبار، أدعو وأبكي مثلها. هي كانت تدعو لي بالتوفيق، وأنا كنت أدعو لأمي التي حرقت قلبها، وأخذت منها ابنها الوحيد كما تعتقد، والذي أخذه القدر من كليهما، وهو في عز شبابه، ليدفن بجانب القبة التي لم يؤمن بقداسة الجسد المدفون فيها يوماً، والذي يتحدث معظم أبناء المنطقة والطائفة عن كراماته الخارقة. وما زلت أذكر جيداً نبع الماء العذب بجانب المزار، والذي أكدت جدتي أنه ظهر بعد تجمع الماء الخارج فجأة من تحت قدمي الضريح في معجزة تؤكد قداسة سره، كما حدثتني مراراً عن فتاة مشلولة، وقفت ثم مشت على أعتابه. وكنا كلما دخلنا لتقبيله نرى امرأة ضعيفة أو عجوزاً معاقة تزحف وتقبِّل وتبكي، ويعبق البخور في المكان.

*****

انسللت تحت الدوش في منزلي بطواعية عبدة تنساق لرغبات سيد مستبد وساحر، وأغمضت عيني كمن يدخل في غيبوبة. انسابت أصابع الماء الساخن على جسدي كحلم، وملأتني رائحة شامبو الاستحمام المعطر بزهرة اللافاندر المفضلة لدي بالنشوة. كان المساء نائماً. وكنت أنا مستيقظة الحواس والرغبة، كقطة في شباط. فركت نفسي بليفة الحمام الخشنة، التي كنت أوصي عليها من حلب حيث يصنعونها هناك هي وصابون الغار بأفضل الطرق أصالة وإتقاناً، ثم جففت الماء عن شعري وجلدي، وخرجت من الحمام لأرتدي ثوباً قطنياً قصيراً، وأتابع الأخبار.

حلب المدينة الواقعة شمال سوريا وذات الأكثرية العربية المسلمة السنية والأرمنية المسيحية تحوز على جزء كبير من ذاكرتي. وكنت قد ترددت اليها قليلاً أثناء عملي في دمشق، ومراراً بعد قصة عشق وزواج سري عشتهما مع أحد تجارها وابن أكبر العائلات فيها. وأكثر ما أذكره الآن هو ولاء معظم أبنائها ولا سيما الأغنياء والميسورين من التجار، لنظام بشار الأسد وتأخرهم عن الثورة، مما وصمهم بعار التشبيح الذي عمم بمبالغة غير محقة عليهم وعلى العلويين والأقليات. وفي الأشهر الأخيرة التي سبقت هروبي من دمشق، رأيت الكثير من الحلبيين على حواجز الأمن المنتشرة كالذباب في المدينة، وأعرفهم من لهجتهم الثقيلة والغليظة التي اشتهروا بها كما اشتهروا بالكبب والكباب والزعتر والصابون وقلعة حلب وصباح فخري، ولم أجد تفسيراً لاصطفافهم مع النظام إلا خوفهم من استعادة أحداث الثمانينيات الشهيرة والتي بليت بها حلب أيضاً، ومصالحهم التجارية الضخمة التي غلبت عليها طابع عاصمة الاقتصاد والحمدانيين.

كنت أسأل زوجي: لماذا تدعمونه؟

فيشعل سيجارة من الطراز الفاخر، ويبتلع رشفة وسكي، ويقول:

– حبيبتي، ما حدث في الثمانينيات أذاقنا الويل، نحن تجرعنا الكأس المر حينها، ولا نرغب بإعادة الكرة.

وينتفض فجأة، ويتابع:

– ثم إننا مع بشار حتى الموت، نحبه وأنا أحبه.

يضيفها بلهجته الثقيلة التي أحببتها رغم جلافتها لأسباب تعود إلى صديقة والدتي الحلبية "أم عبدو"، وهي سيدة جميلة وذكية، أنيقة ومرحة، كريمة وتطهو أصناف طعام شهية كمعظم نساء تلك المدينة، وتضع عطراً مميزاً.

* * * * *

والدتي امرأة متوسطة الجمال، قوية الشخصية، وعاشقة للشعر، ونشأت في كنف عائلة اسماعيلية بسيطة، تنحدر من قرية تدعى "عقارب"، تقع في الريف

الشرقي للسلمية، وتبعد عن مدينة "حماه" خمسة وأربعين كيلومتراً، ولم أزرها إلا بضع مرات في حياتي، كانت كفيلة بأن أحتفظ بمشهد بيوتها الترابية الأليفة، وقببها الطينية المائلة إلى السمرة عند الغياب، والهادئة كبيض نعام مغبر عند الصباح. وكان فيها نبع مياه عذب يعرف بالصافي، وتحت الحجارة القريبة منه أو المنتشرة في أنحاء القرية، ترقد عقارب حقيقية يلوح سمها بالموت، وهو السبب الذي جعلني أكره السفر إليها، رغم ظرافة الوقت الذي اعتدت قضاءه مع خاليَّ فيصل وغازي وزوجتيهما. لم يكن لخاليّ أولاد، وعرفت عنهما وعن خالي الثالث المقيم في لبنان حينها سمة العقم، ولطالما احتفيا بنا أنا وأمي وبنات وابناء خالتي الوحيدة في زياراتنا المشتركة غالباً. كنا نلعب ونزور النبع ونأكل الجبن الأبيض مع البطيخ الأحمر وخبز التنور المرشوش بالماء، وهو طقس يؤديه خالي غازي قبل أن نتحلق حول الطعام في الليالي الصيفية المقمرة. وفي طريق خروجنا من القرية ألمح الجامع الرمادي الصغير، وهو أمر علق طويلاً في ذاكرتي التي لم تعر أدنى اهتمام لجامعَي مصياف، والتي لم تسجل أبداً وجود جامع في القرى العلوية باستثناء جامع ناعسة الذي بناه حافظ الأسد في القرداحة عام 1991 تخليداً لذكرى والدته، وملامح وجهها المرسومة على الزجاج الخلفي للسيارات في صور تجمعها بابنها وهو ينحني ويقبل يدها، فيما ترتسم حول رأسها هالة من النور.

أمضت والدتي معظم حياتها في مسقط رأس والدتها، مصياف، ودرست في دار المعلمين في حماه. ثم انتقلت إلى دمشق للتعليم ودراسة الأدب العربي في الجامعة، وهناك لاتقت أبي، القروي الوسيم والمتمرد، وعاشا قصة حب استمرت حتى وفاته، رغم محاولات والدته المتكررة لتدميرها، وهو أمر كان يبدو أحياناً وشيك الحدوث، عندما يئس الزوجان من إمكانية ابتعاد الأم والحماة الأرملة المتيمة بولدها الوحيد حد اقتحام سريره الزوجي في لياليها البيضاء. وقد أخبرتني أمي بأنهما قررا مراراً الابتعاد والطلاق وانتظار وفاة جدتي كي يعيشا بسلام. أخذ القدر والدي شاباً، وغاب عن الوجود، فيما بقيت سيرته حاضرة لسنوات في دموع

وجلسات أمي، وحتى اليوم الأخير في أحاديث وجلسات ومسرات وأحزان وذكريات جدتي المحفوظة بعناية عن كل يوم أمضياه معاً، وبقيت خيوط عداوة معلنة ومبطنة تربط الاثنتين، رغم الفاجعة المشتركة، ورغم مضي الزمن.

كانت لوالدتي شفة ترتجف قبل البكاء، وصوت ساحر جذل في قراءة الشعر وعرافة الحفلات الخطابية. وعُرفت في مصياف بثقافتها وحضورها النسائي المتفرد. ويحكى أنها أول امرأة حملت السيجارة علناً في جامعة دمشق، وأنها كانت تفضل ارتداء البنطلون على الأثواب النسائية ولا تضع الماكياج، وتقرأ كثيراً. مما جعل البعض يلقبونها بالمسترجلة. وفي بيتنا الجميل في شارع المساكن، المطل على جبل المشهد العالي والداكن الخضرة، عشت معظم طفولتي ومراهقتي، محاطة بالأدباء والكتاب والشعراء والمثقفين، من العلويين والإسماعيليين المتجاورين في المدينة الواحدة، الأمر الذي ألزمني بحفظ معظم أشعار محمود درويش، والسياب، وقراءة جبرا إبراهيم جبرا، ونوال السعداوي، وعبد الرحمن منيف. والتفكير بدراسة فرع أدبي، والحلم بمهنة مذيعة، وحرمني فيما بعد أية فرصة من الانحياز لطائفة بعينها.

* * * * *

تسلّلت خطوط الصباح من الستارة المعدنية، وأيقظتني. نهضت من سريري الواسع والمصنوع من خشب الزان. وداعبت كلبي الذي قفز خلفي كملسوع، وكانت هذه عادته في الاستيقاظ معي عند أدنى حركة توحي بصحوتي، إلا في حالات مرضه أو تعكُّر مزاجه حيث يستيقظ ويرمقني بطرف عينه، ليتأكد من أني لم أبدأ بارتداء ملابس الخروج، فيطمئن ويعاد استلقاءه الحرد. لحقني "جوي" إلى المطبخ، ثم إلى الحمام ثم إلى صالون الجلوس، وبدا سعيداً ونشيطاً، ولديه رغبة في اللعب، هذا ما أوحت به حركات ذيله المتواترة. رفعت الستارة الخشبية الموصولة بجهاز تحكم يدوي والمغطية للباب الزجاجي الكبير المطل على الحديقة، والمرتفع عنها بمقدار أربع درجات رخامية فسيحة. ملأ النور المكان وانكشفت غلالة الندى

المشلوحة على شجرة "المجنونة" المدادة الهائجة على الحيطان، وثغور الجوريات النائمة في الحوض الترابي المقابل للباب. حضَّرت كوب الحليب بالقهوة ، وتأملت ساعة الموبايل، لأتأكد من الوقت. لم أكن أملك ساعة حائط أو منبهاً صغيراً، ولا حتى ساعة يد، كانت علاقتي مع الساعات تشبه علاقة كلبي مع القطط، أكرهها كعدو أزلي، إلا أنه فيما كان كلبي يطارد القطط، كان الوقت يطاردني، وأهرب منه كي لا أصدق أنان نكبر ثم نهرم ونموت.

رفعت سماعة الهاتف، وبدأت طقس الثرثرة الصباحي مع منى، صديقتي وزميلتي التي كانت تعمل صحفية في إحدى الجرائد الحكومية. كانت منى جميلة جداً بالنسبة لامرأة في الخمسين من العمر، وردية البشرة وممشوقة القوام، أرغمتها أسرتها الدمشقية العريقة والمحافظة على الزواج في عمر مبكر من تاجر غر عانت مديداً من خياناته، التي اتسعت وزادت مع تقدمه في العمر، ولم يكن يُسمح لها بالطلاق، حرصاً على سمعة العائلة، وخوفاً من عودتها لمنزل عائلتها حتى مماتها، في بيت العائلة الفخم في المهاجرين، الذي أصبح فارغاً بعد وفاة والديها، مما دفع أشقاءها إلى التفكير ببيعه وجعل فكرة طلاقها كابوساً يهدد مخططهم في حال قررت شقيقتهم المطلقة البقاء فيه، وهو أمر بدا مرجحاً، لأن ذعراً مرضياً كان يجتاحها كلما فكرت في مباركة عملية البيع والقبول بمبلغ مالي يعادل حصتها المحدودة في الإرث، كأنثى بين أربعة ذكور، واحتمال اضطرارها إلى شراء بيت للسكن في أحد الضواحي المتواضعة، وهو أمر يكرهه المولودون في الأحياء الأنيقة في دمشق.

كانت منى تدرك مغبّة الإقدام على خطوة مصيرية ستحرمها من حياة الترف التي اعتادتها من جهة، وتعيدها من جهة أخرى إلى ديكتاتورية ذكور العائلة والمجتمع بعد أن تعودت على ديكتاتور واحد، لا سيما وأن فتنتها التي حافظت عليها، جعلتها مثار إعجاب الرجال، وموضع غيرة زوجها الخائن. وشكّ اخوتها اللامبالين بانهياراتها النفسية أمام حياة عاشتها بصحبة المهدئات والمشعوذين

والسحرة، الأمر الذي دفعها للاستسلام لزواجها، دون التوقف عن الأمل بإمكانية نهي زوجها عن رذائله.

أمعن كلبي في النباح، فتأكدت أن أحدهم على الباب، وهو الوقت المخصص لوصول صديقي مجد بناءً على دعوة ملحة مني فتحت له البابين الخشبي والحديدي، ثم أدخلته وأغلقتهما، وأفلتُ سلسلة كلبي لالتقاط أي فرصة تسمح له بالهروب واللعب في الساحة المحاطة بمجموعة مبانٍ ضخمة يقع بيتي في واحد منها:

- أهلين مجد.

قبّلته على خده، ثم انصرفت لإعداد القهوة.

مجد طبيب تخدير عام، يعمل في أحد المشافي العسكرية، قارئ نهم، وسجين سياسي سابق في زمن حافظ الأسد، لم تسمح له أحواله المعيشية الضيقة وأوقات مناوباته في المشفى باستكمال مجموعته القصصية اليتيمة التي أنجز ثلثها، ولا بالزواج من الفتاة الوحيدة التي أحبه والتي لم تجرؤ على الزواج منه بعد أن هددها والدها بمقاطعتها إن تزوجت علوياً وشيوعياً كافراً وفقيراً:

- كيف حالك؟

سألته بمودة، فأجابني زامّاً شفتيه بحركة اعتاد أن يفعلها قبل أن يقول شيئاً مهمّاً:

- الوضع سيئ، علمت بما حدث في درعا؟

- أعرف معلومات قليلة. أخبرني أنت.

التمعت في عينيه نظرة حزن مشوب بإعجاب لم ألمحه في عينيه منذ أن عرفته، وأجاب:

- الأطفال في درعا كتبوا على جدران المدرسة "الشعب يريد إسقاط النظام". وكانت عناصر الأمن هناك قد أنهكت على مدى ليلتين ويومين متتاليين قضتها في

الركض وراء كلاب شرسة، ألقها شبان مجهولون بعد أن خطوا عليها عبارات مناوئة للسلطة. لهثت العناصر ركضاً وراء الكلاب لقنصها ودفنها لاخفاء الشعارات، كان مستحيلاً محوها عن جسد الكلاب البرية بغير تلك الطريقة...

يُشعل سيجارة جديدة ويتابع:

- بعدها تماماً جاءت حادثة الأطفال فجنَّ جنون عاطف نجيب، ابن عمة الرئيس، ومسؤول الأمن في درعا، فأمر باعتقال الأطفال... حادثة الكلاب لم أتأكد منها رغم أن مصدري عنها نسبها إلى ضابط أمن في درعا، إلا أن ما تأكدت منه أن عاطف نجيب وعلى مرأى فيصل كلثوم محافظ المدينة اعتقل حوالى خمسة عشر طفلاً تتراوح أعمارهم بين الحادية والسابع عشرة، واستمر اعتقالهم قرابة الشهر باستثناء أحمد ثاني ابا زيد الذي بقي مختفياً خمسة أشهر قبل إعادته شبه معافى من آثار التعذيب الجسدية، وأن عاطف نجيب قال عبارته الشهيرة لأهالي وعقلاء درعا الذين زاروه للشفاعة لأطفالهم: "اذهبوا ولِدوا غيرهم، وإن كنتم غير قادرين على ذلك أرسلوا نساءكم إليَّ لأحبلهن.. أخبرني مجد أنه مضطر للمغادرة والمناوبة في المشفى، لأعرف فيما بعد أنه كان يزور نقاط التجمع المحتملة للمتظاهرين في دمشق ليشارك فيها.

* * * * *

2

خطَّ القدر وأمي حياتي، وحققت دراستي للأدب الفرنسيّ جزءاً من مؤامرتهما المرسومة ضدي بعناية، والتي بدأت سابقاً في بيت مصياف.

فقد مارس القدر هوايته المفضلة في الفرجة على ردود فعل البشر وطرائقهم الفريدة والمختلفة في احتواء انكساراتهم عبر اختراعهم المستمر والمتقن لحيل وأوهام تمنحهم الرغبة في العيش وتبرر وجودهم.

ورسمت أمي مستقبلي على طريقتها كما يفعل معظم الآباء. كان العيش بلا أحلام مستحيلاً، وكان القدر مطلعاً على ذلك وسعيداً به، أمّا والدتي فلم تكن تعلم بأن حلمها بأن اصبح مذيعة، وجّه بوصلة حياتي التي سأعيشها فيما بعد بطريقة صارمة جعلت احتمال الرجوع فخاً للإرادة، وامتحاناً صعباً لمقدرة المرء على التماهي مع الألم.

هي لم تعلم أن حلمها الذي اصبح حلمي فيما بعد، سيضعني على عتبة الولادة الجديدة لكائنات مستنسخة ومشوّهة متوحشة وضعيفة، محاصرة بعاهاتها الشاهدة على العجز، ومحكومة برغباتها في التهام بعضها عند أول جوع أو خطر محدِق. هذه الكائنات تكاثرت وعاشت وازدهرت في الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون، وأجواء المؤسسات الثقافية والحكومية بداية، وأجواء معظم الأماكن والأشياء في سوريا فيما بعد. كنا نحن الأصحاء نسبياً، نراقب عملية المسخ، ثم نفقد شيئاً فشيئاً مقدرتنا على ملاحظة نتوءات أرواحنا التي بدأت بالتحول.

تمكنت من العمل كمحررة أخبار في الإذاعة عام 1999 بمساعدة ضابط في القصر الجمهوري ومرافق شخصي للرئيس حافظ الأسد، وابن عم زميلة لي في السكن الجامعي. وفي عامي الأول في العمل، أعلنت وزارة الإعلام عن مسابقة لانتقاء مذيعين، وطبعاً، علمت والدتي المسكونة بهذا الشغف بها قبلي. كنا، نحن

العاملين في الإذاعة والتلفزيون نسمع عن هذه الأحداث بشكل متأخر لأسباب تتعلق بتكتم وغموض يلفُّ أجواء الإعلان عنها. وعند انتشار نبأ المسابقة بين الموظفين تلف السخرية الأجواء، وتنتشر عبارات من قبيل: الأسماء معدَّة سلفاً – المحاولة غير مجدية – إنها ضرب من الجنون. ولطالما تحدثنا عن فساد الإعلام بطقوس نميمة شبه جماعية وجانبية تجد ترحيباً حاراً من قبل كتبة التقارير الأمنية المندمجين معنا والمتلهفين لتحضير ملفاتهم والوشاية بنا. وكان المنتفعون بشكل ملحوظ من الفساد لا يعلقون على أحاديثنا التي بدأنا نتجرأ على تداولها مع بداية تسلم بشار الأسد للسلطة اعتقاداً منا بأنّه سيقوم بعملية الإصلاح الموعودة التي امتلأ حبر خطاباته بها.

لا أنكر أن بداية عهد بشار الأسد أثارت الآمال بالتغيير، وداعبت أحلامنا باستعادة إنسانيتنا المسلوبة في عهد أبيه، وجعلتنا نتجرأ على نقد الفساد، نقد يطال الجميع باستثنائه هو وعائلته القريبة، وكبار المسؤولين والضباط والتجار. كنا – نحن الاعلاميين – نتهجم على المديرين الضعفاء بعد أن نتأكد من أن واسطتهم محدودة أو مؤقتة، مما يسمح لنا بانتقادهم دون أن نتعرض إلى خطر الانتقام فيما لو استمروا في السلطة، أما انتقاد ضباط المخابرات فكان محرَّماً كلياً: هم من ينتقد ويضع التقييمات الأمنية التي كانت كفيلة بإنزال أكبر مدير من عرشه ووضع أتفه موظف مكانه. لم تتَّسم هذه التقييمات يوماً بالموضوعية، فالمحبوبون هم متقنو الولاء، والمكروهون هم أصحاب كلمة الحق ومريدو التغيير الحقيقيون.

اشتركت في مسابقة المذيعين الآنفة الذكر، وخضعت للفحص الشفهي، وأثرت إعجاب أعضاء لجنة التحكيم الشكلية. هنأني الجميع وفي مقدمتهم المخرج التلفزيوني الشهير "علاء الدين كوكش" الذي كان يومها في اللجنة. في اليوم ذاته، اتصلت أمي بي وصوتها يتهدج فرحاً وفخاراً، لم يلبثا أن تحولا إلى حزن وخيبة وذهول بعد أن أرهقت عينيها، وعيون بنات خالتي في البحث عن اسمي في قائمة الناجحين المنشورة في الجريدة الرسمية دون أن تعثر عليه. هكذا إذن، وبكل

بساطة، تم استبدال اسمي باسم ابنة ضابط مخابرات، كان مقدراً لهـا أن تـسرق أحلامنا انا وأمي، نحن البسطاء الغافلين عن الوصفة الوحيدة السحرية والمُجدية في سوريا لتحقيق الفوز: الواسطة.

أصبحت مذيعة في إذاعة دمشق الرسمية عام 2001 بعد أن تمكنت من فهم أسرار اللعبة، وعمَّقت صداقاتي مع ضابط القصر الجمهـوري، الـسالف الـذكر، والذي أصبح مرافقاً شخصياً لبشار الأسد، وساعدني على تحقيـق حلـم والـدتي بسهولة، عبر علاقته القوية بمدير الإذاعة حينها، دون أن يضطر إلـى ممارسـة ضغط معلن، ولا سيما أن بشار الأسد إثر تسلمه، حدّ من صلاحيات ضباط القصر، وأخضعهم للرقابة، بهدف الإصلاح الذي كان يحاول تحقيقه فـي البـدايات، ممـا حصر السلطة مجدداً في أيدي أجهزة المخابرات التي أصبحت تراقب الجميع بمـن فيهم مرافقة الرئيس، إلا إذا استثنينا ذو الهمة "شاليش" ابن خالة الرئيس ومرافقـه الأمين والضابط الخارج عن أي شبهة ورقابة.

لم أقابل "شاليش" يوماً، إلا أني كنت أسمع عن قوة شخصيته وكرمه الحاتمي على مريديه وأعوانه وعلى بعض الأسر الفقيرة، ولا أذكر أني سمعت عن غزواته النسائية كبقية الضباط.

علاقتي بصديقي ضابط القصر كانت بريئة بـالمعنى الجـسدي، وتتخللهـا دعابات بذيئة اعتاد الضباط والمسؤولون على التلذذ والاستمتاع أثناء سردها. أنا لم أكن أحب هذه الدعابات، وكنت أخجل منها وأجدها مملة، إلا أني كنـت اضـحك بعدها طمعاً في الحفاظ على علاقتي به، أما هو فكان مكتفياً بضحكاتي وبإنـصاتي لبطولاته الذكورية مع النساء الحائمات حول منصبه ووسامته. كان طويل القامـة، ممشوق الجسد، مفتول العضلات باعتدالٍ، نجم عن ممارسة التمـارين الرياضـية القاسية التي كان يخضع لها من هم في مثل موقعه، إذ عليه أن يكون متأهباً لحماية الرئيس في حال هاجمه أحد لقتله.

* * * * *

أسواق الضاحية التي أسكن فيها مزدحمة كعادتها في الأيام العادية وأيام العطل، ومحال الطعام، والمشروبات الروحية، والملابس النسائية الرخيصة والباهظة، الخليعة والمحتشمة، لا تتوقف عن العمل. أرصفتها مكتظة كموانئ السفن، تملؤها أقدام المارة، وامتدادات المحلات التجارية وأعمال البناء المخالفة والمستمرة، وأحلام المراهقين الباحثين عن صبايا، والهواء مزيج من غبار وشواء وعرق وترقب.

"جرمانا" ضاحية تقع قرب غوطة دمشق، أهلها الأصليون من الدروز، وسكانها الطارئون من الدروز القادمين من محافظة السويداء، والمسيحيين القادمين من القصاع وباب توما للسكن في منطقة قريبة في المسافة من الطبيعة الاجتماعية من منطقتهم الأم، وأرخص ثمناً في زمن أصبح فيه امتلاك بيت حلماً لمعظم السوريين، كما ساكنهم فيها مسيحيو الأرياف وبعض الملل الأخرى، والعراقيون الذين غزوا المنطقة بعد سقوط صدام حسين، بأكثرية مسيحية أيضاً.

تبعد جرمانا عن باب توما وباب شرقي في دمشق القديمة، عشر دقائق في السيارة، وعن مركز المدينة حوالي خمسة عشر دقيقة، تنقص أو تزيد بين الليل والنهار، وتتفاوت حسب أوقات الازدحام، واستقرار الوضع الأمني أو اشتعاله بعد الثورة، وفيما كنت أضطر إلى قضاء أكثر من نصف ساعة أحياناً للوصول إلى عملي في ساحة الأمويين، بسبب التحويلات الطرقية الكثيرة، والهادفة إلى حصر حركة المرور في شوارع محددة مطوقة أمنياً، وتقطعها حواجز كثيفة واجراءات أمنية مشددة، تصل إلى تفتيش "طبون" السيارات، ورؤية الهوية الشخصية، ورخصة القيادة، والتفرس في عيون العابرين وملامحهم، وإخضاعهم إلى ما يشبه التعذيب النفسي عبر إطالة وقت الانتظار قبل العبور أو الحديث بنبرة آمرة وساخرة، اعتقاداً من عناصر الأمن أن ذلك يسهل مهمة اكتشاف المعارضين والمتآمرين على أمن (الوطن والمواطن) على حد قول الاعلام الرسمي، حينها كنت أنتظر في المقابل حوالي ساعة للتخلص من رتل السيارات المحتشدة أثناء مسيرات

التأييد الصاخبة بصوت ابواقها العالية المعبر عن الفرح والجنون، والذي كان يقلق راحة أهل المدينة الآمنين الذين اضطروا إلى المطالبة بمنعه بعد جرعة الجرأة التي أخذوها مع بدء السلطة الادعاء الاهتمام بشعور المواطنين ومطالبهم الصغيرة تحت ما سموه "سقف الوطن"، كما اضطرت وزارة الداخلية إلى التجاوب معهم فيما بعد، ومنع إطلاق الزمور العالي، والسماح فقط بهدير أغاني التمجيد لبشار، وهتافات التأييد التي كانت تزلزل سكون الهواء الممتزج برائحة دم بشري قادم من مناطق الاحتجاجات والقمع.

كنت أذوب من اختناق وأنا محشورة داخل سيارتي المعطَّلة التكييف، والتي أضطّر إلى إغلاق نوافذها كي أتجنب الأصوات العالية، وعيون الذكور المؤيدين، والشبّيحة المتلصِّصين والذين لم يلهيهم حبهم لبشار أو لمصالحهم عن تذكر رغباتهم الجنسية المستعرة.

ويستمر موكب السيارات المهتاجة بالتدافع، متباهياً بصور الرئيس وعائلته الملصقة على زجاج السيارات وهيكلها المعدني وصوره المنبثقة من فتحات أسقف السيارات ونوافذها الجانبية، وأعلام سوريا المرفوعة والمشرئبّة من النوافذ، والتي كان بعضها يستخدم لضرب المتظاهرين في مواقع أخرى، أما في الليل وأثناء إيابي من العمل في وقت متأخر فرض علينا بسبب زيادة عدد موجزات الأخبار والنشرات، فكنت أصل إلى بيتي خلال عشر دقائق، كانت هي الوقت اللازم لقطع المسافة رغم التحويلات والحواجز التي كانت تتساهل مع النساء من جهة، وتبدو نائمة من جهة أخرى، في صمت ليل مدينة أشباح.



أصل إلى العمل. يوم الجمعة هادئ كعطلة. ألمح بعض التعزيزات الأمنية غير الواضحة على الباب الرئيسي الذي يطل على ساحة الأمويين، وباب المرآب

الموجود في الجهة اليمينية للبناء، والمطل على الطريق الواصل بين الساحة ودوار الجمارك، حيث توجد مديرية الجمارك ومديرية الأمن الجنائي، أكتشف الاضطراب الحاصل من عيون عناصر الأمن وازدياد عددهم. كان معظم عناصر الأمن في المبنى من أبناء الريف العلوي الفقير، وكنت أراهم ينتشرون ككلاب حراسة جائعة ووفية، بوجوه شاحبة ومقمرة، تكشف طيبتهم وشقاءهم، وبأسنان صفراء مدبوغة من شرب المتة، وتدخين الأنواع الوطنية الرخيصة، كانوا غالباً ما يتوددون إليّ، ويدعونني إلى مشاركتهم طعامهم المكوّن من البطاطا والبيض والفلافل ونادراً اللحم. كنت أردّ على دعوتهم بتهذيب وأمضي، فلم يكن معتاداً أن نجالسهم. وفي الأعياد كانوا يرمون علينا عبارات التهنئة، والتي كانت تستدعي أن نضع في يدهم بعض العيديات الصغيرة، وبعد أن اشتريت سيارتي، طلب أحدهم مني بدون خجل أن أحمل إليهم طعام العشاء، فأعطيته مبلغاً مالياً عوضاً عن ذلك، وأصبح هذا طقساً ألتزم به كل شهر، لأعلم بعدها أنهم كانوا يفعلون ذلك مع معظم الموظفين، وهذا لم يكن يزعجني، لأنه كان يسمح لي بادخال كلبي إلى العمل وتركه في السيارة حتى انتهاء دوامي، وهو أمر كان ممنوعاً كلياً.

أصل إلى الاستوديو، أضع حقيبتي، وأخرج لجلب موجز الأخبار من منظومة التحرير في الطابق الخامس، أتفرّس في وجوه رؤساء الأقسام، والمحررين، والمذيعين، والمخرجين فأراها غائمة، وأقرأ ذعراً مكفهراً في وجوه زملائنا من أبناء محافظة درعا. أعود إلى الاستوديو، أقرأ الموجز بحياد مشمئز، لا يظهر في أدائي حُكماً، ولا ألمح فيه أي أثر لجريمة سقوط شهيدين من المتظاهرين السلميين على يد قوى الأمن في درعا، في المواجهات إلى أدت إلى جرح العشرات، في جمعة سميت جمعة الكرامة، والتي سيعتبرها التاريخ فيما بعد بداية للثورة السلمية، التي كنا نحن الإعلاميين شركاء بتحويلها إلى مسلَّحة.

القصة بدأت بمظاهرة صغيرة في العاصمة دمشق في الحميدية والحريقة في الخامس عشر من آذار. أطلق ناشطون شباب دعوات عبر الفيسبوك للتضامن مع

أطفال درعا المرتجفين في عتمة السجون، وطلباً لحرية التعبير التي كانت تعتبــر الإثم الوحيد الذي لا يغتفر، حيث حظي القتلة واللصوص الأغنياء مراراً بفرصــة دفع الرشوة لنيل حريتهم فيما رقد الناشطون السياسيون في السجون لسنوات، أكلت أعمارهم وأجسادهم وخوفهم.

اعتقل الأمن معظم المشاركين في تظاهرة الحريقة من نساء ورجال مما دفع المزيد للخروج في اليوم التالي، وفي 18 آذار في يوم جمعة مشتعل وحار كثورة، استيقظ الصباح على أرواح متوثبة، وشبابيك مفتوحة، وحناجر هتفت للحرية فــي دمشق، وحمص، ودرعا، وبانياس.

وقابل الأمن هدير الثورة بشراسة ضبع خائف ومشتت. درعا التي انتفضت لتحرير الأطفال الخمسة عشر، من سجن المخابرات الجويــة، المظلــم، الخاضــع لسطوة شهوة تعذيب مريضة وظالمة، اعتادها رجال هذا الفرع الأمني المــشهور باتقانه للوحشية، شهدت الكم الأكبر من العنف، فقد سقط شهيدان وجرح عــشرات السوريين، وغفت دماؤهم على تراب دافئ وحنون ومتوثب، لإيقاظ حلم الحريــة، الذي كنا قد نسيناه نحن السوريين العبيد. فيما بعد لم يحاكم بشار الأسد ابن عمتــه عاطف نجيب ولا المحافظ، واكتفى بإقالتهم من مناصبهم التي لا يحتاجونها أصــلاً إلا للتعذيب، فجيوبهم وحساباتهم البنكية كانت مليئة.

أفتح الكمبيوتر الموجود أمامي في الاستوديو فوق الطاولة الخشبية التي تحمل مايكروفونات الصوت ولوحة زر التحكّم في وصول صوت المذيع علــى الهــواء مباشرة والموصول بزر تحكّم مشابه في غرفــة الكــونترول المواجهــة، يمكِّــن المخرجين من تفادي أي خطأ أو خلل يصيب صوت المذيع. أزرار التحكّم الأخرى تسمح للمخرج بقطع أي اتصال أو حوار هاتفي، يجتاز حدود التابوهات الــصارمة للإعلام السوري والتي تتربع علــى رأســها حــصانة المــسؤولين المعاصــرين وأسماؤهم، بالإضافة إلى قدسية الرئيس وزوجته وعائلته. ولم نكن نجــرؤ علــى قراءة رسائل المستمعين الناقدة للفساد إلا بشكل ملتفٍ ومزوّر، وكنا نــستنفر عنــد

تلقي اتصالات المستمعين المباشرة، ولا سيما بعد الثورة، وكنا نؤجّل مجيء الحرية، بكبسة زر واحدة سريعة وغادرة ومفاجئة.

أفتح صفحة الفيسبوك الخاصة بي، الحديثة العهد، أتلصص على صفحات الأصدقاء الافتراضيين والحقيقيين، ثم أبدأ بإرسال طلبات صداقة إلى من سيصبحون فيما بعد، ودون علم أو قصد من أهم أسباب ثورتي. يصلني صوت المخرج الجالس وراء الساتر الزجاجي الفاصل بين الاستديو والكونترول، عبر سماعتي الأذنين:

- بتشربي قهوة؟

- لا.. أريد نسكافيه بحليب.

ويلفظ القاف كما تلفظ في اللغة العربية الفصحى، وهي خاصيّة ميّزت لهجة الطائفة العلوية في سوريا، رغم أن القاف كانت جزءاً راسخاً من لهجة جبل العرب المأهول بالأقليتين الدرزية والمسيحية وبعض القرى السنية، إلا أن استخدامها أخرج من كل سياقاته الديمغرافية الأخرى ليُدرج في خانة الرمزية العلوية، رمزية السلطة والنفوذ والقبضة الأمنية، المتزايدة اضطراداً مع بقاء حافظ الأسد في سدة الحكم والنزوح المستمر للعلويين عن الريف قدوماً إلى العاصمة دمشق، للدراسة والعمل في الميادين العلمية والثقافية والابداعية أحياناً، ونادراً في التجارة، بسبب فقر أحوال معظمهم، وغالباً في القوى المسلحة وقوى الأمن، وكان الخيار الأخير الطريق الأسرع والأسهل للحصول على وظيفة آمنة براتب قليل، تدعم مواردهم الزراعية القليلة والمقتصرة على فصل الحصاد في حال كانوا يمتلكون أرضاً، وتقيهم شر الفاقة، إن كانوا من مياومي العمل في أراضي الآخرين.

الأمهات في الريف العلوي الفقير كن يشعرن بالزهو والارتياح لدخول أبنائهن في الكليات الحربية بعد دراسة البكالوريا، فهذا يجيء بدخل ثابت إلى المنزل. الفاشلون في الدراسة، كسلاً أو فقراً، هم من كانوا يتطوعون كعناصر أمن.

أما ارتياد الجامعة، فكان تحدياً كبيراً للفقر وإنجازاً لا بد من بذل الكثير من التضحيات المادية في العائلة لتحقيقه، من حرمان وتقتير وقلق، ورغم عزلة القرى وقساوة برد بيوتها الطينية أو الاسمنتية المتواضعة، وجلافة الطرق الترابية الموحلة المؤدية إليها في شتاء المدارس، وشح المواصلات إليها.

تابع العديد من أبناء هذه الطائفة دراستهم في الجامعات، وتفوقوا في اختصاصات متعددة. كان الطريق ممكناً أمامهم لدخول الميادين المهنية، ما عدا التجارة التي تحتاج إلى أموال، والحرف اليدوية التي تحتاج إلى عائلة كار، والصياغة التي كانت تحتاج الاثنين معاً، وبعض الأعمال الأخرى التي كانت تحتاج إلى الأناقة والدبلوماسية وبعض الطاعة التي لم تكن من صفاتهم.

يعتبر معظم العلويين في سوريا أن حافظ الأسد هو وليّ نعمتهم، وهو من أخرجهم من أوكارهم المغلقة ومخابئهم المذعورة والتي قبعوا في وحشتها طويلاً منذ المجزرة الشهيرة التي ارتكبها بحقهم السلطان العثماني سليم الأول عام 1515، والتي راح ضحيتها أكثر من أربعين ألف علوي حسب بعض المصادر التاريخية.

في الأماكن العصية على الوصول، اختبأ الهاربون من التنكيل العثماني، واختبأت قصصهم الحزينة والمتوارثة جيلاً عن جيل، تصحبها رعشة يائسة قلقة تملأ الهواء والعروق، عند ذكر المجزرة ولو عفوياً، لا أعتقد أن خروج العلويين فيما بعد، من الجحور التي اعتقلهم فيها الاضطهاد والخوف واندماجهم الخجول والتدريجي في الحياة المدنية طهَّر ذاكرتهم من مقصلة "السلطان سليم"، فهم في داخلهم بقوا أولئك المطاردين المتسللين تحت جنح الليل والصمت إلى أحراج الجبال!

* * * * *

3

اقترب موعد تحضير برنامجي الذي أُقدِّمه كل جمعة. كنت أقدم أربع برامج في الأسبوع بالإضافة إلى الموجزات والنشرات التي تتخلل فترة الدوام الواحدة، وهي أربع ساعات لكل مذيع. كنا نكلف أحياناً بتغطية النشاطات والفعاليات الثقافية والفنية، التي كانت تحرك بخجل الحياة الفاسدة والراكدة التي تحولت كلها بعد الثورة إلى فعاليات مؤيدة للأسد وممجدة له، بنفس الطريقة التي كانت برامجنا تتحول فيها إلى السياسة، بما فيها الأغاني المنوعة والعاطفية التي كانت تملأ أوقات البث بين برنامج وآخر، والتي كانت تختفي لتوضع مكانها أغاني التأييد لبشار، والأغاني التي تتحدث عن فلسطين، لتشتيت انتباه المستمعين، وتشويه رؤيتهم لحقيقة ما يجري على الأرض، وإقناعهم أن ما يجري هو مؤامرة كونية، تحاك ضد النظام، لأنه الوحيد الواقف بوجه إسرائيل وقوى الغرب الشرير الذي كان قبل احتجاجات شعبه ضد طيشه، مرتعاً لصداقات بذل كثيراً كي يبنيها، ومكاناً لاقامته ودراسته التي أنهاها في لندن.

أما بالنسبة لبرامجي الثابتة، فقد كانت أربعاً: برنامجاً اجتماعياً يناقش قضايا المرأة الشرقية ومشكلاتها ومدته ساعة ونصف، ومنوعاً أقرأ فيه الشعر وأتلقى الاتصالات الهاتفية يمتد على مدى ساعة، وبرنامجاً صباحياً يتضمن فقرات متعددة كالصحافة والأخبار الثقافية، والزاوية النفسية، التي سجنت، أثناء الثورة، أحد الأطباء النفسيين الموهوبين، الذين كنت أستضيفهم فيها، ويمتد على ثلاث ساعات، والبرنامج الاقتصادي الذي كنت أناقش فيه بعض المواضيع والمقالات الاقتصادية المسموحة، ومدته ساعة. وكنت سابقاً، قد قدمت، ولفترة طويلة، برنامجاً ثقافياً استضفت فيه الأدباء السوريين الذين انضم أميّزهم إلى المعارضة، مثل الكاتبات الروائيات: سمر يزبك، وروزا ياسين حسن، والشاعرة رشا عمران، والسيناريست فؤاد حميرة، وكلهم من الطائفة العلوية، وهم أصدقاء لي في عالم الفيسبوك كما

الواقع. وكنت أتلصص على صفحاتهم الناشطة حباً وحرية وصدقاً، ولا أجرؤ حتى على وضع (لايك). كانت أي إشارة إعجاب علنية لكتابات المعارضين على صفحة الفيسبوك، تعني مشاركتنا نحن المواطنين، في دعم الإرهاب وتشجيعه، و(مساعدة رموز الفتنة) وهو شعار انتشر بكثافة غريبة على اللوحات الاعلانية الطُرقية التي ملأت شوارع العاصمة السورية دمشق منذ بداية الثورة، وكان يقول: احذروا رموز الفساد وحاصروهم.

كنت أرتبك كثيراً في تحضير برنامجي المتعلق بالمرأة، لأن معظم المثقفات الناشطات في القضايا النسوية اللواتي كنت أعتمد عليهن في حواراتي، قد تحولن إلى معارضات علنيات، وكان محرماً علينا استضافتهن أو ذكر أسمائهن في الإذاعة، وهنَّ كنَّ يتهرَّبن من الحديث بحجة المرض أو السفر، أما المؤيدات للنظام، فكن من كل الطوائف، وكنَّ مثقفات مدجنات، ومفرداتهن مطابقة تماماً لمفردات النظام: المؤامرة، الإرهاب، العصابات المسلحة، والمخربون، المندسون، وكن على الصعيد الفكري باهتات كالحكايات المملة.

كلمة "مندسون" هي أول عبارة استخدمها النظام الرسمي لوصف المتظاهرين والناشطين، ويقصد بها من يريد تخريب أمن (الوطن)، ,أصبحت هذه الكلمة تستخدم كثيراً للتندر بين السوريين، من كافة الأطراف، إلا أنه فيما كان الموالون يستخدمونها للضحك واطلاق الدعابات، كان المعارضون يتحدثون عنها بسخرية لاذعة. وكان الحياديون هم أكثر الناس تلذذاً بها، لأنهم كانوا عموماً من نمط الناس الباحثين عن اللحظات السعيدة والعيش بعيداً عن السياسة، وأولئك لا يأبهون إلا لسلامة أحوالهم المعيشية والصحية والعائلية.

أبدأ التحضير لبرنامجي، وأجمع بعض المقالات الناقدة لسياسة الحكومة الاقتصادية، وبمحاولة واعية مني لتأجيل إيماني بالثورة وتبرير صمتي عن الدماء التي نزفت في ذلك اليوم، أختار المقالات التي تركز على خطط النظام في الإصلاح الاقتصادي، والتي كان بشار الأسد يتحدث عنها منذ استلامه السلطة في

2000 مكافحة البطالة والفقر، تخفيف الغلاء ورفع أجور المـواطنين، وتحـسين مستواهم المعيشي، ومكافحة الفساد بكل أشكاله. لم يطلب مني أحد القيـام بـذلك، فعلته وحدي دون ايعازات أو توجيهات من أحد، لأُبرِّر ضعفي وخوفي وعجـزي عن قول كلمة لا للنظام، أو وضع تعليق "أعجبني" لستاتوس معارض.

*****

أن تكتب ذكرياتك، يشبه أن تمسك سكيناً حاداً ومحمّى وتغزه فـي جرحـك المفتوح على الألم، تغزه ببطء ثم تخرجه، وتغزه وتخرجه، وفي كل مـرة تغيّـر طريق اختراقه للحمك الطري والنازف، مكتشفاً أشكالاً متنوعة للألم، أنـت عـارٍ تماماً أمام نفسك، وجرحك ينزّ. أمام مرآتك.

أرهقت من الكتابة، فهل تستطيعون تركي قليلاً، كـي أرتـاح مـن عـبء ذكرياتي. سأنام الآن شكراً.

*****

وصلت إلى بيت صديقتي جورجيت في باب توما. بيتها مكوَّن من طـابقين دائريين يحتضنان أرض الديار الدمشقية، البحرة تتوسط المشهد، وتطلـق ماءهـا بغرور، وأشجار الكباد والنرنج والليمون والياسمين تستقر في الزوايـا الترابيـة، وتبتهج لرؤية البيت يضج بالحياة أثناء جلسات السَّمر، ولعب الورق، والدعوات إلى الموائد العامرة بالكبب الشامية، والتبولة والبابا غنوج واليالنجي وكـأس العـرق، وصحن الخس المقيم على الطاولة.

كانت غرف الطابق الثاني تبدو أكثر قدماً من الأول بسبب قدم طلاء خشبها، فيما كان طلاء الغرف الأرضية يُجدَّد دائماً، وكانت رائحة الخشب القديم ومشروب العرق تمنح البيت صفة الغموض. وقطط المكان تختال كصبايا مقبلة على الزواج، وكنت أكرهها كثيراً، لأنها عدوة كلبي، ولأن حضورها كان يرغمنا على فضّ الاشتباكات المستمرة بينهما، أو نهرها حتى تختفي في المطبخ، أو عدم احضار كلبي، وهو أمر كنت أعتبره عقوبة لكلينا: له لأنه سيبقى رهين البيت وحده، ولي لأني سأبقى حزينة من أجله وأعاني من تأنيب الضمير، ولا سيما أني كنت لا أدمجه مع الناس كثيراً بسبب خوفهم أو اشمئزازهم من الكلاب في بلادنا، وكانت زيارة جورجيت التي لا تكره الكلاب، فرصة لمنحه بعض الشعور الأسري.

جورجيت صديقتي منذ خمسة عشر عاماً، وبيننا خبز وملح وأسرار، في الستين من عمرها، عانس ومتصابية قليلاً تعشق لعب الورق، ولون طلاء الأظافر الأحمر الذي استوطن أظافرها الطويلة، وتبادل الأحاديث، واستقبال الضيوف على موائد الغداء الذي تُعدِّه بنفسها بمتعة وسعادة واضحتين، وكانت مستعدة بعد الجلوس إلى طاولة لعب الطرنيب لشتم أكبر رأس إن هزمها. ولم أكن أسلم أنا والحاضرين من لسانها ومن شتائمها اللاذعة. وكنا نضحك، إلا أننا أحياناً كنا نؤنبها ونهددها بترك اللعبة، فتهدأ وتلبد كنعجة مطيعة .

مرة اصطحبتُ صديقي مرافق الرئيس إلى بيتها للتسلية ولعب الورق، وبفضل براعته الفائقة ربح اللعبة وانتصر عليها، عبق وجهها وصعدت إليه الدماء، إلا أنها ابتلعت غضبها خوفاً منه، وأطلقت عبارات الترحيب به من جديد، وأشعلت سيجارتها، وقامت لإعداد قهوتها المميزة.

بيت جورجيت، وعلى مدى سنوات، لم يَخلُ من الضيوف، من الأقرباء والأصدقاء، وكانت تتمتع بعلاقات قوية مع أقربائها، وتمتلك موهبة جذب الأصدقاء. كانت العائلات المسيحية التي تسكن في باب تَوما تعيش في دِعةٍ وانسجام وفرح، يتوجهون إلى كنائسهم كل يوم أحد، وفي المناسبات والأعياد، وفي

المساء، يُعمِّرون جلسات العرق والود والموسيقا والبهجة. وقد تودد معظمهم إلـــيّ، لأني علوية ولأني صديقة جورجيت التي أطلقت بين جاراتها الثرثارات، من بـــاب التباهي، شرارة قرابتي لضابط ثقيل في القصر. في الحقيقة هو من صـــمّم علـــى مناداتي بـــ"بنت العم" كي لا يستضعفني أحد لمعرفته أن إشاعة ذلك بـــين النـــاس يحميني من شرورهم، ولا سيما أن البلد كان يمر بمرحلة تأزم أخلاقـــي، يحتـــرم الناس فيها اللص الغني والمدعوم ويخافونه، ويدوسون على الشريف الفقير المجرد من الواسطة.

كان البلد يخضع لتشابك علاقات غريبة، كل عائلة تسعى لخلق صداقة واحدة على الأقل، قوامها المصلحة، مع أحد المدعومين، لتتمكن من حماية نفسها إن لزم الأمر، ولتسيير المعاملات والأمور الحياتية، فكل شيء يحتاج إلى الواســطة فـــي سورية.

أذكر مرة أني توسطت لجورجيت كي تحصل على خط هاتف أرضي، ورغم أنه بكل المقاييس اللاسورية كان أمراً تافهاً وحقاً طبيعياً، إلا أن الجيران حـــسدوها عليه، واعتبروا أنه أحد مزايا صداقتها لعلوية، ولم يتوانوا عن ممازحتي بالقول:

- أيمتى بدك تدعيمنا وتركبيلنا تلفون...

باختصار، كنا كلنا فاسدين، ونُساهم كبقية القطيع الصامت في تكريس الرشوة والمحسوبيات والواسطة وتخلخل القيم والأرواح.

جمعت علاقة ودّ متواطئة وغير صادقة بين معظم المـــسيحيين والعلـــويين، وأقول غير صادقة، لأنها كانت مشوبة بالمصلحة غالبـــاً، ففيمـــا كـــان الطرفـــان يُركِّزان، حين يجتمعان، على هذا التقارب المشترك بينهما في العادات الاجتماعية، كعدم وضع الحجاب والاختلاط بين الجنسين وشرب الكحول وبعض الأعياد كعيـــد البربارة، والرموز الدينية المشتركة كمار جرجس، والمعـــروف لـــدى العلـــويين بـــ"الخضر"، كان المسيحيون يتحدثون أمام السنّة والدروز عـــن فـــساد العلـــويين

واحتكارهم للسلطة، وكان العلويون يتحدثون مع السنّة عن علاقتهم القوية بدين الإسلام.

هكذا إذن، كنا كشعوب عالم ثالث، مضطرين دائماً للبحث عن تقاطعات دينية مع الآخر كي نبرّر تعايشنا معه، كانت كل طائفة تُرحّب بالأخرى علناً وتنتقدها سراً، إلا أن حجم النقد والحقد الخفي كان يتزايد ضد العلويين، بعد أن ارتبط اسمهم باحتكار خيرات البلد ومزاياها، وهو أمر لم يكن دقيقاً، لأنه في المقابل كان هناك علويون مسحوقون، وغير فاسدين، وفقراء.

لم يكن ريف مصياف العلوي مدعوماً بقدر ريفي اللاذقية وطرطوس اللذين شكلا البؤرة الحاضنة لمراكز القوى، وصناعة القرار، ومطبخاً لسياسة الدولة ولصوص المال العام. وفي طريقي أثناء زياراتي إلى اللاذقية مروراً بالطريق الواصل إليها عبر طرطوس، كنت أرى قصوراً باذخة الترف ومترفة، مرمية على طرفي الطريق، دون أن ألمح ساكنيها المقيمين في دمشق. وأسأل عن أصحابها، فتُذكر أمامي أسماء مسؤولين وضباط، الأمر الذي لم ألمحه أبداً في مصياف أو ريفها حيث كان بيت أبرز ضابط في مصياف، مكوّناً من طابقين مكسوين بحجارة عادية، وبسيط التأثيث، أما حي جدتي لأبي والمعروف بحي العلويين، فيضم بيوتاً رمادية حجارتها القديمة كالحة، وإسمنتها مسْوَدّ، وأفخمها بيت أبي المكون من طابق واحد، بسيط ومتواضع وبارد.

لم اسمع في حياتي كلها باسم ضابط مخابرات، من أصحاب القرار، الخطيرين والمؤثرين من ريف مصياف، إلا اسم محمد ناصيف، وهو من قرية اسمها "اللقبة"، مقرب جداً من الأسدين الأب والابن، وتردَّد بين العامة: أنه قادر على فك مشنوق من حبل المشنقة. ويقال إنه من أبرز الضالعين في التخطيط لقمع الثورة. كان أبناء عم محمد ناصيف يسكنون في نفس الحي الذي أسكنه في مصياف، وبيتهم يطل تماماً على بيت خالتي، على بعد أمتار من بيتنا، ويبدو اقل

حظاً في الترف من بيتنا إلا أنه ورغم مظهرهم المائل للبساطة، كانوا قادرين على تأمين بعض الوساطات البسيطة.

*****

ارتديت ثوباً أحمر، مُتقن الإغواء، وتوجهت إلى أحد صالونات تزيين الشعر، كانت السماء مُكفهرّة بطريقة مثيرة. تركت كلبي "جوي" في السيارة، ثم أرسلت أحد الصبية العاملين في الصالون لجلبه، بعد أن أذن لي صاحب الصالون الأكثر شهرة في باب توما.

صدحت أغاني وديع الصافي وصباح في المكان كالعادة، ووقفتت النسوة أمام المرايا، وعكسن ايحاءات غريبة ودلالاً إلتمع لحظة جلوسهن. جلست، وربض "جوي" تحت قدمي، نظرت إلى وجهي في المرآة ورأيت وجهي مرتاحاً، وجلست بانتظار بعض ملامح الجمال الإضافية التي اعتادت النساء اكتسابها بعد اكتمال تسريحة الشعر.

– "نعيماً"، قال لي طوني.

حاسبته، وانطلقت في شوارع المدينة. تجولت لمدة ساعة ونصف وحدي على وقع الأغاني العاطفية الصادحة في راديو السيارة. كانت إذاعات الـ"اف ام" قد انتشرت بكثرة، ورغم أنها كانت تسمح لمذيعيها بالضحك والتحدث بعفوية لم نعهدها من قبل في وسائل الاعلام السورية، إلا أن المضمون كان واحداً. وكانت إذاعة صوت الشباب التي أعمل فيها هي الإذاعة الأكثر حضوراً ووزناً، لأنها الأولى بين إذاعات الـ"اف ام"، ولأنها احتفظت برصانتها نسبياً. كنت غالباً ما أقلّب بين الاذاعات فلا أجد موضوعاً يستحق المتابعة، وهذا طبيعي جداً بسبب حجم المحظورات المفروضة: الجنس، والدين، والسياسة، والفساد، وفي المرات القليلة

التي كنا نناقش فيها الاشكالات الاقتصادية ووضع المواطن المعيشي، كنا نلتف على الموضوع، ونضع له أعذاراً غير حقيقية، ونُكذِّب، وننافق، ونُكذِّب. أما الثقافة فكانت مفرغة من كل مضامينها نتيجة خضوعها للرقابة وسلطة الحزب الواحد، وهذا أيضاً كان حال التلفزيون.

☆☆☆☆☆

انبثق الصباح مجدداً، وكان يوم أربعاء، حضَّرت قهوتي، ورفعت سماعة الهاتف:

- صباح الخير منى.

- صباح النور، كيفك.

- الحمد لله، وأنت؟؟

- الحمد لله، شو الأخبار؟

- علقانة بدرعا. اللّه يستر.

- شو في؟

- مظاهرات من يوم الجمعة الماضي. راح قتلى وجرحى، والأمن يعتقل الناس، والاعتصامات مستمرة اليوم في ساحة الجامع العمري، ومن المتوقع أن تكون الأعداد بالآلاف.

- ومن أين أتيت بهذه المعلومات؟

- من ناشطين على الفيسبوك.

- الـ"نت" شغّال عندك؟ (وهذا سؤال طبيعي في سوريا، لأن الـ"نت" كان يتعطل باستمرار).

- إي شغّال.

- يجب أن اشترك في خدمة الـ"نت الثري جي"، فهي أسرع وأسهل.

- لكنها مكلفة.

- غير مهم.

وأتلمظ وأتابع:

- كيف حال زوجك؟

وهنا تبدأ بسرد تفاصيل آخر حماقاته المرتكبة، ومعطيات اشتباهها بخيانة جديدة.

* * * * *

لا اذكر الساعة بدقة، كان الوقت عصراً بعد عودتي من النادي الرياضي، وهو طقس كنت أواظب عليه قدر المستطاع تجنباً للسمنة التي ورثت قابليتها من أمي كما ورثت حب الشعر، والطيبة، وانتفاخ بطانتي العينين، وارتجاف الشفة السفلى قبل البكاء.

دخلت إلى الفيسبوك في منزلي من "لابتوبي" الصغير المخصص لتخزين الأغاني، كنت قد اشتريت "ثري جي" في اليوم الفائت، قرأت على صفحات الأصدقاء أخباراً عن اقتحام المسجد العمري في درعا وعن سقوط عشرات القتلى والجرحى من المدنيين العزل، بعد ممارسات وحشية، ارتكبتها قوات الأمن لقمع المظاهرات التي لم تتوقف منذ يوم الجمعة. فتحت التلفاز على قناة الجزيرة أو الـ"بي بي سي"، والحقيقة أنني لم أعد اذكر بدقة، كل ما أذكره هو أنني سمعت صوت الناشط ايمن الأسود من أبناء المدينة يقول:

"بقي بعض المعتصمين، حوالي الخمسين، لمتابعة اعتصامهم في المسجد العمري احتماءً من برد الليل. وما بين الواحدة والثالثة فجراً اقتحمت قوات الأمن المسجد، وأردتهم قتلى وجرحى بدم بارد، ودون أني تمكن أحد منهم من المقاومة. خرج الأهالي من بيوتهم لإغاثة أبنائهم، فاعتقل الأمن قسماً منهم، فعلت أصوات الأذان والتكبير في المكان، وتتالت دعوات التبرع بالدم لإغاثة الجرحى .

سمعت رنين "موبايلي" فتجاهلته، وأدرت التلفاز على الفضائية السورية، وكان التلفزيون يعرض صوراً لركن داخل الجامع، وقد اصطفت فيه بشكل مرتب مجموعات من البنادق، والعلب المليئة بالرصاص، ورمانات يدوية (نوع من القنابل ورزم من أوراق مالية مكدسة). وتحدث المذيع عن عثور النظام عليها في المسجد بعد اقتحامه وتطهيره من تنظيمات إرهابية تحتله.

هذه الحيلة الإعلامية كانت وسيلة لتغطية مجزرة المسجد، كذباً مفضوحاً أكدته شهادات أبناء المدينة أنفسهم، واعترافات ضابط أمن، أخ لصديقة لي، كان يخدم في درعا حينها، وسخرية مجد المريرة من غباء وكذب رجال الأمن الذين فبركوا هذه الحكاية، حيث أكد لي زاماً شفتيه وعينيه الغاضبتين أثناء رؤيتنا معاً لهذه المشاهد يوم الجمعة التالي:

- لقد نسوا أن هذه العلب التي وضعوا فيها الرصاص، هي من صناعة معامل الدفاع السورية، وكل من خدم في الجيش يحفظها عن ظهر قلب.

وفي ذاك الأربعاء خرج المتظاهرون بالآلاف من قرى درعا لنصرة أشقائهم في المدينة، ووصلوا عند الساعة الخامسة مساءً إلى الساحة المجاورة لبيت المحافظ، ونادي الضباط، واتحاد الفلاحين، والبريد وهتفوا: "سلمية، سلمية" و"حرية، حرية" و"فكوا الحصار عن درعا"، و"الشعب يريد إسقاط جهاز أمن الدولة"، وكانت عيون وبنادق عناصر الأمن والقناصة، المنتشرين فوق أسطح

المباني الحكومية تنتظر بصمت قبل أن تطلق النار والموت في مجزرة ثانية عرفت بأم القرى.

أدرت مفتاح التشغيل في سيارتي، وقصدت الإذاعة، حيث قدمت برنـــامجي الاجتماعي عن المرأة بطلاقة روتينية، واذكر أني استضفت عــضوة ســـابقة فـــي الاتحاد النسائي للحديث عن دوره في دعم المرأة، قرأت موجز منتصف الليل الذي أعاد رواية التلفزيون عن العصابات المسلحة في درعا، وعدت إلى منزلي الهانئ.



4

أغمضت عيني على صوت التلفاز الخفيض المنسرب من غرفة الجلوس، وهي عادة تساعدني على النوم، وتهدهدت في حضن سريري المسترخي. ربض كلبي فوق قدمي، وجلس جلسة أبو الهول المعتادة، قبل أن ينقلب على ظهره، ويسكن، ويغرق في نوم ثقيل. كان "جوي" يشخر أحياناً أثناء نومه، مما يثير دهشتي، دون أن يثير غضبي، ولو كان رجلاً لهجرته.

في حياتي كلها تزوجت مرة واحدة، هي المرة التي حدثتكم عنها، والتي لا أراها زواجاً، بل حباً شرعياً بمعايير المجتمع. لم أكن أؤمن بأهمية الزواج بمعناه التقليدي، كنت أعتبر الحب الحلال الوحيد في العالم، وأرى في معظم الزيجات الشرقية زنى مقنعة بستر الحلال. فكيف يمكن اعتبار الجنس بين الزوجين لا يطيقان بعضهما حلالاً؟؟ والجنس بين عاشقين متيمين حراماً؟؟ هذه الأفكار سببت لي الكثير من الصعوبات في ظل مجتمع مليء بالكذب والنفاق والتناقضات. ولو رغبت في ذكر أسماء الرجال الذين كانوا يخونون زوجاتهم، وحاولوا التقرب مني، لتسببت أنا وحدي بعشرات حالات الطلاق على الأقل، أما النساء فكانت خياناتهن أقل، وأكثر سرية، ليس حباً بأزواجهن، ولا عزوفاً عن الرغبة في الحب مع رجال آخرين، وإنما خوفاً من المجتمع، والفضائح والأثمان الباهظة، التي سيدفعنها في حال أقدمن على مثل هذا الفعل.

كنت امرأة متمردة بطبعي، إلا أنني كنت أحسب حساب المجتمع إلى حدٍ ما، وأكذب أحياناً لإخفاء بعض الأسرار بدرجة أقل من الأخريات، رغم أنني كنت أتحدث بحرية وصدق شديد مع صديقاتي المقربات، لمعرفتي بأنهن يفكّرن بنفس طريقتي. مراعاتي الفاشلة للمجتمع نبعت من حرصي على سمعة والدتي، ومن

عملي كمذيعة. وكان عددنا كمذيعات في كل سوريا لا يتجاوز المئة في كل وسائل الإعلام، مما جعلنا مميزات، وصبغ مهنة المذيعة بجاذبية وإثارة يعيشها المشاهير.

ورغم أن عملي لمدة عامين في التلفزيون طبع وجهي في ذاكرة بعض الناس، العازفين أصلاً عن متابعة التلفزيون السوري الوحيد في البلاد طيلة عقود، إلا أن كثيرين منهم كانوا يميزون صوتي ويقولون: "هذا الصوت مألوف لدينا، ويشبه صوت مذيعة اسمها علا عباس".

عندما كنت أسكن في حي جديد، كان الخبر يتناقل بسرعة، ويقولون: سكنت هنا مذيعة، ويحترمني الجميع، ويطلبون ودي، ويقيمون لي وزناً، فالمذيعة تعني الواسطة، والواسطة تعني السلطة، والسلطة تعني القوة. وكثيراً ما كانوا يطلبون مساعدتي في بعض المسائل التي كنت أستطيع حل بعضها، معتقدين أننا نملك عصا سحرية كالتي امتلكها النظام فقط في خطاباته ووعوده.

أحياناً كان اسمي كله يغيب أمام لقب: مذيعة. فإذا اتصلت بالمطعم لطلب الطعام إلى البيت، ورغبت بإرشاده إلى البيت، أقول له: اسأل عن بيت المذيعة. وأتصل بالبقال الذي أوصيه على الحاجيات فأقول: معك المذيعة. وكانوا هم بدورهم ينادونني بالمذيعة فقط من دون اسمي، لأتلاشى تماماً وراء هذه الصفة، ,اشعر أنها أصبحت تمثلني أكثر من الكتب التي قرأتها، أو من جوهري الإنساني. تساءلت في أحيانٍ كثيرة: إذا توقفت عن العمل كمذيعة، من سأكون؟؟ والجواب وجدته عندما وجدتني أتخلى عن كل مكتسباتي وألقابي، كي أكون أنا.

بالعودة إلى حديث الزواج، كان صلاح رجلاً وسيماً، ميسوراً، طويل القامة، معتدل البنية، اسمر اللون، وجذاباً بشكل لا يقاوم، على الأقل بالنسبة لي. أعجبت به منذ أول مرة قابلته فيها، أما هو فتيم بي، واستعلت بيننا قصة حب من طرفه، ورغبة من طرفي، لا أعلم لماذا لم أتيم به بنفس القدر، رغم استماتته لارضائي، ربما لأني كنت مهووسة بالقصص الصعبة التي تخلق نوعاً من التحدي.

كنت أبحث في لاوعيي عن الحالات المستحيلة لرغبة خفية وغامضة بعدم الدخول في ارتباط حقيقي يهدد الحب بالفشل. فالزواج مقبرة الحب، كما كانت تردد أمي الشاعرة دائماً والحق يقال إن لها أكبر الفضل في إقناعي بهذه الفكرة، التي حرمتني فرصة المغامرة بدفن حب حقيقي أو وهمي في هذه المقبرة. كبرت وأنا مقتنعة بهذه الفكرة، وزاد رسوخها لدي، طباع رجالنا الشرقيين، المثقلة بالأنانية، والتي كانت تؤكد لي دائماً: أنني لن أتمكن من تحمل رجل على مدار أربع وعشرين ساعة إذا جلس في البيت يوم العطلة.

كنت في داخلي أبحث عن حالة زواج غير تقليدية، أستطيع فيها الحفاظ على عالمي الخاص ومسافتي الآمنة وتمنح الشعور بالتجدد، لأنه كما تعلمون "كل ممنوع مرغوب". والزوج عندما يركن لوجود زوجته بجانبه دائماً، ويتأكد أنها غير راغبة أو قادرة على تركه يوماً، لأن الطلاق في بلادنا كارثة وويل على المرأة، يشعر بالأمان، ثم بالملل. والأمان عدو الشهوة، والملل عدو الحب. أنا كنت أبحث عن زواج لا يصيبه الملل، وعندما تعرفت إلى صلاح، علمت أني وجدت ضالتي. في الحقيقة اكتشفت أنني كنت على خطأ فيما يتعلق بتوقعاتي إزاء صلاح فقط لأننا حين نحب لا نمل أبداً.

كان صلاح متزوجاً أمام الناس وهاجراً لزوجته سراً، وكنت أنا زوجته وحبيبته، وأمام الناس أدّعي أنه مجرد صديق. استمرت علاقتنا لأربع سنوات، أمضينا أوقات تواجدنا فيها معاً في الرحلات والمطاعم وسهرات الطرب والرقص في أفخم مطاعم المدينة. كان يبذل كل ما في وسعه لإسعادي، وكنت أنا أبذل كل ما في وسعي لمضايقته، وتولدت لدي رغبة خفية للانتقام منه عوضاً عن كل رجال الكون، كنت أنتقم لزوجته منه، لأنني كنت في أعماقي ضد إقامة علاقة عاطفية مع متزوج، ولا أعلم كيف استطاع بدهائه الذكوري أو بسبب جنوني أن يقنعني بقبول حالته، والتعاطف معه بسبب زوجة غير مبالية وباردة وكبيرة – كانت بنفس عمره – ادعى أنه ينوي أن يطلقها بعد حين. كرهت زوجته وحزنت من أجلها، وهي

الزوجة المغدورة ككل نساء الشرق والمحكومة بخوفها، وكرهته وحزنت من أجله، وهو الزوج الغادر ككل رجال الشرق والمحكوم بعقده، وكرهتني وحزنت من أجلي، وأنا الممزقة بين الخوف والبطولة والجهل والمعرفة، كنت أنثى بلا وجه.

مارست الابتزاز العاطفي والجسدي على صلاح، وهي لعبة تتقنها نساء بلادنا. ولم أقبل بإقامة أية علاقة جسدية قبل كتابة عقد زواج شرعي لدى محامٍ، أحتفظ بنسخ عنه معي وحدي، ويمنحني مبرراً شرعياً لعلاقتي بصلاح. وافق هو مرغماً، وخاضعاً لشهوته المسعورة لجسدي، وهكذا سمحت له أن يتردد إلى منزلي بين الحين والآخر، وأعلنت نبأ زواجي منه للمقربين جداً، حرصاً على عدم وصول النبأ إلى زوجته رغم أن رغبة شريرة وقوية كانت تلح علي أحياناً بأن أمسك الهاتف وأفضح سر زوجي السعيد.

كان صلاح يغدق عليَّ المجوهرات والعطور والهدايا الثمينة بشكل متواتر، يزيد حدة وسماجة حين اقرر تركه، واقترح عليّ مرة شراء محل تجاري بعد إحدى الجردات الطويلة، فلم أمانع، وهكذا زادت ثروتي التي جمعتها من عملي الطويل، والمعروف بغزارة دخله مقارنة بمداخيل السوريين، وإرثي من أبي الوحيد، ثم أملاك جدتي الأرملة بعده، وهدايا صلاح الباذخة.

في الحقيقة، كنت امرأة محظوظة مالياً، وتمكنت من تأسيس امبراطورية مالية صغيرة، كانت ستؤمن لي الرفاه المادي، فيما لو تركت العمل، وهو أمر لم أكن أفكر فيه إطلاقاً بسبب شغفي بعملي كمذيعة، حتى إن فكرة قديمة كانت تراودني بالانتقال، والعيش في دولة غربية تحترم المرأة، إلا أنني طردتها من رأسي تماماً عندما تأكدت من استحالة إمكانية التخلي عن عملي الذي غلف الجزء الأكبر من شخصيتي وماضِيَّ وأحلام أمي.

حدث أن فكرت بترك العمل من أجل إنجاب طفل والزواج بأحمد، وهي قصة قديمة دارت أحداثها قبل أعوام. أحمد زميل لي في العمل، ابن عائلة دمشقية

معروفة ووالده زميل لنا أيضاً، مخرج إذاعي معـروف، بـسبب إخراجـه منـذ الثمانينيات لبرنامج إذاعي شهير باسمه: (حكم العدالة)، يتناول قـصص الجـرائم الحقيقية، ويستلهم أحداثها من القصر العدلي، الأمر الذي أحبه الناس كثيراً، بحكـم طبيعتهم المائلة إلى الرغبة بانتصار الخير وإحقاق العدالة الإلهية في قاعة المحكمة على الأقل. كانت حلقات البرنامج تنتهي دائماً بمحاكمة عادلة يعاقب فيها القاتل أو المغتصب، ولا أعتقد أن أي برنامج آخر حقق الشهرة التي حققهـا حكـم العدالـة وقضاة محكمته وضباط النيابة والمحققون فيه.

أحمد كان شاباً صغيراً وذكياً ولامعاً ومتميزاً بين أقرانه، ومـصاباً بهـوس الإخراج الذي منحه أصابع فاتنة ترقص الحجر إذا ما امتدت إلى "ميكسر" الإذاعة (الجهاز الذي يستخدمه المخرجون لاختيار الأغاني وبثها على الهـواء). ولـسوء حظي وحظه العاثر، أغرم بي، وأنا اذكر أنني ملت إليه لفترة قبل أن أصاب بردة فعل عنيفة ضد السنوات العشر التي أزيده بها، وضد الحروب والتهديـدات التـي أضرمها والده ضدي وضد سني الذي لم أختره، بعد أن تأكد من محـاولات ابنـه الزواج مني. من غير الشائع في بلادنا أن تتزوج المرأة برجل أصغر منها سناً، إلا في حالات نادرة، بينما من المألوف أن يتزوج الرجل بامرأة في عمر بناته، كـي تتمكن من خدمته حتى موته، وكي يتمكن هو من التهام صباها وشهوتها حتى موت أحلامها.

في الواقع، منظر الأصابع العجوز على لحم بضّ يقرفني ويثير اشمئزازي، كما يقرفني مشهد امرأة صبية تتأبط ذراع زوجها العجوز في الشارع أو المطعـم. ولم أفكر يوماً في الزواج برجل أكبر مني بكثير، بل رفضت عروضاً وفيرة مـن هذا النوع كانت متاحة لي ولغيري من النساء اللواتي تجاوزن الثلاثين دون زواج، واللواتي كن يعتبرن عوانس. أحمد كان يستشهد دائماً بقصة النبي محمد ﷺ الـذي تزوج خديجة بنت خويلد التي تزيده خمسة عشر عاماً، متناسياً أنني لست خديجة، وأنه ليس محمداً، وأن المجتمع الشرقي بعيد كل البعد عن تطبيق الإسلام الحقيقي،

رغم انشغاله الدائم بذلك نظرياً. أحبني هو، وهربت من حبه ومن أهله، ومثل كل قصص الحب من طرف واحد، كنت أنا أتمنّع، وهو يزيد ملاحقة وحباً ورغبة في امتلاكي. لو كان من نفس عمري، ومن أسرة مختلفة، لتزوجته، لكن الأمنيات لا تتحقق دائماً.

أعترف أنّي فكّرت في لحظات محدودة، أن أترك عملي في الإذاعة وأتزوج أحمد كي أنجب منه طفلاً، بعيداً عن عيني والده الشرير، وتجاوباً مع الحاح رغبة الأمومة علي وعلى ثديي اللذين كانا يدران الحليب، من فرط الحنان والحاجة إلى طفل، كما أخبرني الطبيب حينها. إلا أن فكرة التخلّي عن عملي كمذيعة كانت تصيبني بالهلع وتمنعني عن تحقيق أغلى الرغبات إلى قلبي: الأمومة. وأود أن أخبركم هنا، أني وقبل هروبي المفاجئ من دمشق، كنت قاب قوسين أو أدنى من أن اصير أماً وأنثى كاملة.

*****

في الصباح التالي لمجزرة الجامع العمري ومجزرة أم القرى، كنت على الهواء لمدة ثلاث ساعات. فقرة الأبراج اليومية تمر بمرح كالمعتاد مع الخبيرة الفلكية التي تقدمها، وفقرة الصحافة، والزاوية النفسية، والأغاني المنوعة، وكأن الدم الذي أريق في الليلة الفائتة على تراب درعا التي لم تنم لم يكن سورياً، وكأنني أنا نفسي لم أكن سورية.

عدت إلى منزلي بسرعة، وتناولت طعام غداء جاهز، ونمت لساعات بدت طويلة، لأستيقظ على صوت مستشارة الرئيس بثينة شعبان على الفضائية السورية، وهي تعقد مؤتمراً صحافياً تتحدث فيه بانفعال وحماس، يشيان بقلق النظام وذعره من ازدياد حدة الثورة الشعبية ضده، وأعلنت قرار إصلاحات من بينها زيادة الرواتب، رغم أنه لم يكن هناك أي مطلب اقتصادي من قبل المتظاهرين، وأن الرئيس لم يأمر بإطلاق النار، وتحدثت عن فتنة طائفية مقصودة في سوريا.

في تلك الليلة سمعت القبور، لأول مرة، هتافات "الشعب يريد إسقاط النظـــام" و"يا بشار سماع سماع دم الشهداء ما ينباع"، بينما كانت منازل العاصـــمة دمـــشق وشوارعها ترفل في ثوب الدهشة والصمت والمجون، وطقوس يوم خميس اعتيادي ميت.

*****

أمضيت صباح الجمعة بصحبة البستاني في الحديقة، شذَّب أبو علاء النباتات الجانحة، وسرح امتداداتها بطريقة لائقة، وقص العشب الزائـــد، وبـــدت الحديقـــة كعروس بثوب أخضر موشى بالورد الجوري والقرنفل والزنبق والياسمين ووريقات خضراء مائجة. شربت الشاي معه، ثم أوصيت على طعام الغداء استعداداً لاستقبال والدتي. وصلت والدتي متأففة من كلبي "جوي" منذ دخولها: هي تخاف منه كثيراً، إلا أنه صمم على مداعبتها والتحرش بها إلى أن أولته اهتمامها ولاعبته، وحينهـــا تركها لشأنها، كانت تبدو أكثر هرماً كلما رأيتها، وكانت التجاعيد تغزو وجهها يوماً بعد يوم. بعد الغداء، ضممتها إلى صدري كطفلة وحدثتها عن عملي، وصـــديقاتي، والكتاب الذي أقرأه لـــ"أورهان باموق"، ونادي الرياضة، وطبيب التجميل الذي يقوم بشفط الدهون، وعن العمليات التي تعيد الوجه شاباً. وحاولت اقناعها باجراء عملية، إلا أنها رفضت رفضاً قاطعاً. كانت تخشى كثيراً من التخدير العام، وأما أنا، فكنت أذهب إلى التخدير وعمليات شفط الدهن كمن يذهب إلى نزهة، بـــل كنـــت أحـــب التخدير، لأنه كان برأيي فرصة لاستعادة الشغف بالحياة، فالتخدير موت ســـريري يبقيك لمدة ساعات جثة هامدة قبل أن تتمكن من العودة إلى الحياة مجدداً، بعـــد أن تكون تعرضت حقاً لخطر الموت، وعدم الاستيقاظ، وفقدان الفرصة الممنوحة لـــك من الحياة بالتمتع برؤية شمس جديدة تخرج من خلف ستارة غيم عابر، ورمـــادي،

أو وجه طفل بهي يمنحك الحياة وهو يمسك بإصبعك، أو لمسة حب شهية تسخِّن الدم في عروقك، وتدفعك إلى البكاء من شدة اللذة.

هكذا إذن كنت أعتبر الحياة بعد التخدير ولادة جديدة، وأعترف أني أحب البدايات. سألت أمي عن رأيها في الأوضاع الراهنة، فابتسمت بحزن، وقالت عبارة واحدة:

- أنا خائفة على مصير البلد.

أمي كانت التقت بشار الأسد هي وبعض المسؤولين في اتحاد الكتاب العرب في سوريا، حين استلمت فيه منصب نائبة المدير لخمسة سنوات، في المكان الذي شغلته بثينة شعبان قبلها. استمر اللقاء يومها لساعات خرجت بعدها وهي تقول:

- شعرت أنه ابن لي، إنه طيب وودود.

أثناء طريقنا أنا وأمي إلى بيتها حيث كان علي أن أُقلها قبل توجهي إلى العمل. علقنا في زحمة موكب السيارات المؤيدة لبشار، الذي كان يعرقل حركة السير ومرور السيارات الأخرى غير المشاركة.

* * * * *

استقبلت صلاح بقبلة، وأخذت الأغراض من يده، علبة وسكي فاخرة، ثلج وموالح، وعلبة عطر العود التي يحب رائحتها على جسدي، والتي أصبحت فيما بعد لصيقة بالجنس والحب في ذاكرتي. كنت أرتدي له ثوباً من الشبك الأسود، الذي يسمح للهواء والرغبة بملامسة الجلد المعصور بين خيوطه الرقيقة، شعري الأسود مرخيّ على كتفي بفتنة شرقية، وعيناي تغزلان الضوء والشوق كحباحب الليل. حضّرت مائدة تليق بالوسكي. وشغّلت جهاز "السي دي". فبدأ الهواء يرقص على

ايقاع أغنية "أنت عمري" لأم كلثوم. كان "جوي" يحفظ رائحة صلاح، فجلس إلى جانبه صاغراً، مراقباً كلينا كزوج غيور وعاجز ومستسلم.

سألته عن رأيه في الأوضاع الراهنة، فأكد أنها فتنة، وأن الرئيس شخص طيب، وأن الحلبيين معه. لم تكن لدي الرغبة في المتابعة بحديث السياسة، فقفزت إلى جانبه، وطرقت كاسي بكاسه، واستسلمنا لقبلة طويلة، تشبه الدوار والحب وسرير التخدير، همس في أذني بأنه يعشقني، فلم أجب، وتابعت ذوباني المرتجف بين يديه السمراوين، ثم اشتعلت كجمرة.

كنت أحبه، لكني كنت أحب نفسي أكثر، وكان عليّ الاستعجال في مشروع الأمومة، نظراً لعمر بويضاتي المتقدم بيولوجياً، 38 عاماً، وكنت عَقَدْتُ العزم على تخييره بين تركي أو منحي طفل، وكنت أعلم أنه سيوافق.

اعتقدت طويلاً أن الأمومة هي الثمرة الوحيدة الإيجابية للزواج، إذا ما استثنينا أيضاً، اضطلاع الرجل الشرقي بمسؤوليات المنزل والمصروف وتركيب جرة الغاز الذي كنت أكرهه. أعترف أني كنت امرأة اتكالية مدللة، وأن الحياة وضعت في دربي رجالاً أخلصوا لي، أصدقاء وعشاق، وأني سعدت بمؤازرتهم لي، إلا أني لم أخدع رجلاً يوماً، بل كنت واضحة جداً حد الفجاجة. ولو أني كنت امرأة لعوب كبعضهن، لوضع حولي قبيلة من طالبي الود. باختصار كنت امرأة مرغوبة ومحبوبة من الرجال نسبيّاً، إلا أني ورثت الأخلاق عن أمي، فلم أستغل أنوثتي كما كان دارجاً في بلادي.

في عامي الواحد والعشرين، شاركت بدور ثانوي في مسلسل تلفزيوني، وقد فعلت ذلك من باب التجريب، ولم أتوقع أن يحدث ما حدث. رآني رجل أعمال خليجي معروف، طبعاً في المسلسل، أُغرِم بي من شكلي، وجنّد بطانته للعثور على رقمي وعنوان سكني. وفوجئت أنا وصاحبة البيت التي أسكن عندها باتصال من مدير أعماله يعلن فيه عن رغبة الشيخ محمد بخطبتي ومقابلة أهلي. ومن باب

الفضول والتجريب أيضاً وافقت على ذلك. اجتاز محمد عتبات المنزل الدمشقي القديم والفسيح الذي كنت أسكن فيه حينها، وكان يمشي بضعف وخجل غريب على رجل يملك الملايين، ودلفنا أنا وصاحبة المنزل، وزوجها معه إلى الصالة الشرقية الزاهية الألوان، والفائضة برائحة العرق والبخور، وجلسنا وحدنا.

وبدا محمد الأسمر ذو الأربعين عاماً، والقادم بسيارة الليموزين، وجلابية بيضاء ناصعة ذات أزرار ذهبية، يشرح مشاعره نحوي، وأخبرني أنه منذ أن رآني على شاشة التلفزيون لم يغمض له جفن، وهكذا ببساطة قرر أنه عليه الزواج مني. بكى محمد من شدة تلوّعه بي، وكانت هذه أول مرة أرى فيها رجلاً يبكي. وأعتقد أن دموعه وأمواله واستعجاله في الزواج بي هي سبب رفضي له فيما بعد، عرض محمد رغبته بشرائي بطريقة شرعية: فيلا لي، فيلا لأهلي، شركة انتاج ضخمة باسمي أنا أديرها، سيارة لي، سيارة لأهلي، وبيت في مصياف. عدّلت جلستي المتعالية التي تُميّز سلوك الفتيات في مقتبل العمر، وطلبت مهلة للتفكير، وودّعت محمد المرتجف شهوة كان يعتقدها حباً، وفيما بعد، ورغم محاولاته المستميتة لإقناعي عبر وسطاء مع والدتي وعبر إغواءات مادية كانت تتزايد شيئاً فشيئاً، رفضت الصفقة التي اعتبرني الجميع غبية بعدها.

كان مجتمعنا مفصوماً وغارقاً كلياً بالشيزوفرينيا الاجتماعية، فبينما كان الجميع يتحدثون عن الدين والأخلاق والمبادئ، كانوا يتهافتون على المال والسلطة، ويعتبرون الزواج برجل غني فرصة ذهبية بمعزل عن المشاعر، والزواج بحبيب فقير ضرباً من الغباء. وأعتقد أن الفساد الذي كان متفشياً حينها، في كل مفاصل الدولة نتيجة سياسات الإفقار العام، وممارسات المسؤولين، استطاع الوصول إلى الأرواح والأخلاق بشراسة، وشاع كثيراً في الأوساط الشعبية المثل القائل: أمران لا يسمع عنهما: زنا الأغنياء وميتة الفقراء. وأعتقد أن هذا المثل يختصر الأزمة الأخلاقية التي صاحبت الفساد.



أنا هنا أقف على الضفة المواجهة للموت تماماً، حيث تصل إليّ رائحة لحم محترق وبارود ودم مشوي وحرية، وفي تجاهل وترف يليق بجثة متحركة، أواصل حياتي الطبيعية والمستقرة. أسقي حديقتي كل صباح مع كأس الحليب والنسكافه، ألاعب كلبي، أستمتع ببيتي، وهو يلتمع نظافة وأناقة بعد زيارة السيدة المسؤولة عن تنظيفه، أذهب إلى النادي الرياضي، أصفف شعري مرتين عند مزيّن الشعر، أعتني ببشرتي لدى طبيب التجميل، أضع "البوتوكس" بين حاجبي كي أخفي عقدة الزمن والتجهم. أشتري الملابس الباهظة الثمن، لأعوض نقصي العاطفي بسبب تأزم علاقتي مع صلاح وإحساس بالذنب لم يكن واضحاً حينها. أسكب العطر على جسدي بإفراط، آكل واشرب وأدخن وأنام وأقرأ أحياناً. أستقبل الجارات، أزور صديقاتي ونتحدث عن الرجال والحب، وأفكر في رغبتي بإنجاب طفل قبل أن يسبقني قطار الزمن، متناسية أن آلاف الأمهات قد خسرن أبناءهن. وكأن ما يجري في المدن السورية ليس من شأني، وكأن هذا الدم هو ماء. قاتلة أنا حين صمتّ عن دمهم.



5

كانت شرارة التظاهرات قد انتقلت إلى اللاذقية وحمـــاه وبانيـــاس وحمـــص وإدلب وريف دمشق، بعد جمعة العزة 2011/3/25، مما أرعب النظام وأجهزته، وكثفت وسائل الإعلام حديثها عن مؤامرة ومندسين ومخربين وعابثين بأمن الوطن، وتجاهلت في صمت غادر ومهين ومطبق، دماء مئات الشهداء الـــسوريين، وآلاف الجرحى والمعتقلين والجثث المفقودة والمشوهة المعالم والمرمية كلحم مهترئ فـــي عتمة برادات المشافي الوطنية.

كنت اذهب إلى الإذاعة، واضطر إلى المشاركة في برامج مليئـــة بالكـــذب، وأشعر بطعمٍ مالح في حنجرتي يدفعني أحياناً إلى الرغبة بالـــصراخ، وأنـــا أردد رواية النظام. كنا نرغم على السخرية من المتظاهرين، والاستهزاء بدموع الأمهات الثكالى، كنا نروِّج لوجود عصابات مسلحة ومتطرفين، رغم أني لم المح، في ذاك الوقت، أي شعار إسلامي في المظاهرات، بل شعارات مكتوبة على لافتات يدويـــة الصنع، تدعو إلى الحرية والكرامة وتحرير المعتقلين، وإنشاء دولة مدنية تعدديـــة، وإسقاط النظام. لم ألمح أي حضور لرجال دين أو متطرفين، بل صـــبايا ســـافرات ومحجبات وشباب علمانيين، وطلاب جامعات، ومسلمون معتـــدلون، ويـــساريون قدامى، يتظاهرون بأكتاف متراصة كالقوة، وأياد متشابكة كالحب، وأقـــدام جريئـــة كالموت، وصدور مفتوحة للحرية كالحلم.

أصابني مشهد تمزيق صور بشار، وإسقاط تمثال حافظ الأسد، بالذهول لفترة طويلة، وبقيت الفضائيات العربية تُعيده كحدث خلخل موازين الكون. كنت أجـــرؤ وأنا بصحبة أصدقائي الموثوقين على التعبير عن احترامي للجرأة الأسطورية التي أبداها أبناء درعا لحظة إسقاطهم لصنم العبودية المطلق والذي بقي جاثمـــاً فـــوق أرواحنا المنهارة أربعين عاماً. كنا في أعماقنا التي اعتادت القهر والصمت نـــشعر

بالامتنان مما حدث في جمعة العزة، لأنه حقق حلماً دفيناً وجميلاً، وانقلاباً على الصورة النمطية للسوريين المدجّنين والخائفين في ظل نظام أمني شرس وتعتيم على العقل، كان تحطيم التمثال إثباتاً أننا نحن السوريين لم نمت كلياً، وأن ثمة أمل وليد بإعادتنا إلى الحياة، ولو أن بعضنا استغرق وقتاً أطول مما ينبغي لهذه العودة.

حاولنا في الإعلام السوري الترويج كثيراً لفكرة الفتنة الطائفية التي أطلقتها بثينة شعبان في مؤتمرها الصحفي الأول، ولكني لم أعثر مطلقاً حينها على شعارات طائفية، بل كانت المظاهرات تدعو إلى وحدة السوريين، وترفع شعارات مناوئة للطائفية، في الوقت الذي كان النظام يخترع عبارات طائفية، ويروج لها بين الناس كعبارة: "العلوية عالتابوت والمسيحية عبيروت" الذي انتشرت بكثافة وذعر بين الأقليات المترددة أصلاً بشأن انخراطها في التغيير، خوفاً من وصول التيارات الإسلامية المتشددة إلى الحكم وشبح الحرب الأهلية. ورغم أننا عبر وسائل الإعلام، كنا نتحدث بمبالغة عن مفهوم الوحدة الوطنية، إلا أننا في الوجه الخفي للنقاش، كنا نحاول تذكير الأقليات والمواطنين بمصيرهم المشؤوم في حال فكروا بالتغيير، ملوّحين لهم بعصا الدمار والتخريب الحتمي المرافق لإسقاط النظام.

باختصار كنا حريصين على نبش وتضخيم مخاوفهم، وإبقائهم أسرى الجهل والطاعة العمياء والشلل الكلي. وكما كنا نشارك بقتل أجساد المدنيين الثائرين عبر شراكتنا مع النظام إعلامياً، كنا نشارك أيضاً في قتل أرواح السوريين الواقفين على عتبة الأشياء بترقب.

☆☆☆☆☆

وصلت إلى ساحة الأمويين، وكان قاسيون يطل كإله إغريقي أزلي وخالد، دخلت إلى المبنى، ودلفت إلى غرفة مديرتي لشرب القهوة، هي عادة كنا نحن المذيعات نتبعها غالباً، لنعلن عن وصولنا، ونطلع على الأمور الجديدة في الإذاعة، ولا سيما أن مديراتنا المتتاليات كنَّ زميلات لنا، وتجمعنا معهن علاقة ودّ، باستثناء

واحدة كانت متسلطة ومكروهة، إلا أنها كانت تعاملني بحبٍ كاذب بسبب توصية جاءتها من ضابط ثقيل في المخابرات.

قدَّمت لي المديرة الشابة، ابنة مدير مكتب فاروق الشرع، كوباً مضاعفاً من القهوة التركية طلبته كي أنفض بقايا النعاس عن رأسي المثقل بعد ليلة متقطعة النوم، وبدأت تتحدث عن الإرهابيين وعن همجية الشعب الذي لا يعي قيمة قائد شاب وحضاري كبشار الأسد. أومأت لها برأسي إيجاباً، وتابعت شرب قهوتي، وحين ألحت عليّ لمعرفة رأيي، أجبتها بأن الفساد هو السبب الرئيسي للمشكلة، ولو أن الرئيس قام بالإصلاحات حقاً لما ثار ضده أحد. وكانت دبلوماسية ومعتدلة الطرح، فلم تثر ضدي كما فعل غيرها لاحقاً، وأردفت كي أحمي نفسي من عواقب جرأتي فيما بعد: الرئيس شخص نظيف جداً، إلا أن الحاشية المحيطة به هي سبب البلاء، وهم أنفسهم من يمنعه من الإصلاح.

وافقتني وقالت بانفعال طيب وساذج كان يغلف ردود فعلها أحياناً:

- إي والله، إي والله، كلامك صح، اللّه يعينو على هالمسؤولين.

انضمت إلينا مذيعة ثالثة، عرفت بدعمها القوي وصلاتها الأمنية بسبب عمل والدها كسائق شخصي لحافظ الأسد على مدى ثلاثين عاماً، مما جعله فرداً من العائلة، وانتقلت الصلاحيات بالوراثة منه إلى عائلته، فطال الدعم ابنته وأشقاءها وشقيقاتها وأصهارها وزوجها، الذي حظي بمنصب رئيس قسم المخرجين رغم قلة موهبته وعدم امتلاكه الشهادة الجامعية، وكذل كانت هي. دخلت وطلبت القهوة، ولفَّت رجلاً على رجل في حركة متسلِّطة، وانضمت إلى حوارنا الذي سمعت آخر قسم فيه وقالت:

- يكفي، يكفي حديث عن الإصلاح، سوريا أفضل دولة في المنطقة، اذهبوا وشاهدوا الدول الأخرى.

وتابعت دون أن يجرؤ أحدنا على مناقشتها:

- فعلاً شعب ما بينعطى وجه، كلهم شوية زعران وعاملين ثورة، اللّه يرحم حافظ الأسد اللي عملهم شعب جوعان وجاهل.

صحوت من دوار النوم الذي كان لا يزال جاثماً في رأسي وأجبتها:

- يا ستي، اللّه يقدم اللي فيه الخير، نحنا بدنا سوريا تكون بخير، والــرئيس كل الناس بتحبو.

هكذا إذن، لم أجرؤ على الدفاع عن الثوار، لم أجرؤ على الاعتراض والقول إنهم ليسوا زعراناً، إنهم بشر مثلنا، وكانت لديهم أحلام وحبيبات وأمهات، لم أجرؤ على قول كلمة حق واحدة. ولو كنت أستطيع لصرخت بوجهها: إن نظامك قاتــل، وهذه ثورة حقيقية.

طويت خوفي وصمتي وعاري، وودعتها بابتسامة مخادعة وجبانة، ومضيت.



6

ازدادت غزارة التعزيزات الأمنية في شوارع دمشق، لا سيما بـالقرب مـن ساحة العباسيين القريبة من ريف دمشق، وساحة الأمويين الواقعـة فـي منطقـة استراتيجية حساسة، حيث يقع مبنى الإذاعة والتلفزيون، وهو من أخطر المراكـز أثناء الانقلابات، ومن سطحه بإمكانك أن ترى: مكتبة الأسـد الوطنيـة، وقيـادة الأركان العامة، وآمرية الطيران، ومبنى إدارة الأمن الجنائي، والشيراتون، والنفق الواصل بين اوتوستراد المزة – بيروت ومركز العاصمة دمشق، وتتكشف بوضوح الطرقات المؤدية إلى مشفى الشامي، والمهاجرين، والمالكي، حيث يربض القـصر الرئاسي.

كانت أوصال المدينة تزداد تقطيعاً يوماً بعد يوم، والحواجز بدأت تنتشر في كل مكان. وبدأ الوجوم والخوف مسيطراً على مساءات المدينة. كنت أتجـول فـي سيارتي نهاراً، فأعلق في الزحام، وبعد خروج الموظفين من أعمالهم عند الثالثـة ظهراً، تبدأ الشوارع تخلو شيئاً فشيئاً من المارة والسيارات التي تتضاءل حركتهـا في المساء.

سيطر الخوف على الناس رغم أن الاضطرابات لم تكن قـد اقتربـت مـن العاصمة بالمعنى الفعلي، بل كانت محصورة في أرياف وأحياء محـددة، كـدوما وزملكا والقابون والمعضمية، فيما بقيت كل المواقع الحساسة والمنـاطق الأخـرى هادئة.

حين أفكر الآن بروية، أرى أن خوفنا كان مبالغاً فيه، بل، كنا جبناء. وأعتقد أن السبب الرئيسي لذعرنا يعود إلى عدم اعتيادنا علـى الاضـطرابات الأمنيـة، فسوريا منذ أحداث الثمانينيات كانت مستقرة أمنياً كهرم ينخره السوس، وكنا قبـل الثورة نتمكن من التجول في كل الأوقات، نهاراً وليلاً، نشاءً ورجالاً، في الشوارع

والطرقات الفرعية والحارات، وفـي المـدن الكبـرى والـصغرى والـضواحي والأرياف. يساعدنا على ذلك الجهاز الأمني القوي المسيطر على كل مرافق الحياة في سوريا، بدءًا من الإذاعة والتلفزيون، ووصولاً إلى الحمامات العامة في كراجات "الهوب هوب" (الباصات).

☆☆☆☆☆

اتصلتُ بمروى، واقترحت عليها أن أمر لاصطحابها للخروج فـي نزهـة، فوافقت. كانت تشعر بالسأم والضجر مثلي. مروى امرأة خمسينية، تتحدر من عائلة دمشقية لأم علوية، موظفة في وزارة الثقافة، أرملة، شقراء وجميلة، وأعرفها منـذ سنوات. انتظرتها أمام مدخل بيتها ريثما وصلت بطلّتها الملكية، تبادلنـا التحيـة، وانطلقنا إلى ضريح الجندي المجهول في قاسيون. هناك تتوقف الـسيارات للتنـزه وشرب القهوة، أحياناً تأتي عائلات بأكملها لافتـراش العـشب أمـام الـضريح، خصوصاً في الربيع والصيف والأيام الشتائية المشمسة.

كانت الأحوال المعيشية الضيقة لذوي الدخل المحدود ترغمهم على اختيـار هذا المكان كبديل عن المطاعم والرحلات المكلفـة. يـصطحبون إليـه عـائلاتهم وأطفالهم وأصدقاءهم، يجلسون ويتسامرون ويأكلون ويدخلون الأرغيلة في متنفسهم الوحيد بعد أن محا التوسع السكني العشوائي غوطة دمشق التي كانت رئة المدينـة والفقراء.

كان معظمهم من العائلات المحافظة التي ترتدي نساؤها الحجاب والجلباب، وكثيراً ما غبطتهم على هذه الطقوس، ولا سيما عند التماع عيونهم بسعادات جديدة لم نكن نعرفها نحن رواد المطاعم والمقاهي. نزلنا من السيارة، ووقفنا أمام فـسحة الجبل الكبير، طلبنا كوبي قهوة من بائع متجول، لعب كلبي مع أطفال في الجـوار

يتوددون إليه، فيما زمت امرأة أخرى قريبة من سيارتنا شفتيها استياءً واحتجاجاً على اقتنائي لكلب... ولم يزعجني الأمر بسبب اعتيادي عليه.

حدثتني مروى عن ابنة خالة لها تسكن في درعا، اضطرت للنزوح عن منزلها بسبب اقتحام الجيش للمدينة. وقد أخبرتها الآتي: "كنا نقف أمام النافذة في بناء قريب لساحة الاعتصام، ورأيتهم بعيني يقلصون رجلاً مجنوناً يعبر الشارع، رجل عالبركة ليس له دخل بشيء، مسكين كان أهل الحي يتصدقون عليه، والمتظاهرون شباب بعمر الورد لم يكونوا يحملون أسلحة، والله ولا حتى عصا، هم يطلقون النار على كل من يقف بطريقهم... صمتت ثم أخبرتها عن وجهة نظري بضرورة رحيل النظام وعن خيبتي بخطابيه الأول والثاني. وشاطرتني الرأي، ثم تحدثنا عن الرجال وخيباتنا بهم.

دفعنا ثمن القهوة، وعدنا إلى بيوتنا قبل أن ينزل الليل. وصلت إلى بيتي وأنا أفكر بقصة حبيب مروى، وأردد بيني وبين نفسي أن الرجال خونة، وهذا ما كنا نردده نحن الشرقيات. مروى التي كان شعرها الأشقر الذهبي وغنج مشيتها وتدويرة وركها ومؤخرتها البارزة والمثيرة تجعل الرجال يتصببون عرقاً حين تمرّ، والتي طردت مئات العشاق والمعجبين، أصبحت الآن تعاني من الوحدة. لم يكن سهلاً لامرأة في الخمسين أن تجد حبيباً، وخصوصاً إذا كانت متطلبة وانتقائية مثل مروى، فالرجال لدينا مهووسون بالصغيرات، إلا في حالات خاصة جداً. كان مجتمعنا يعتبر المرأة التي تجاوزت الأربعين ولم تتزوج عانساً فاتها القطار، فما بالكم بأرملة في الخمسين، والحق يقال إن مروى كانت لا تزال مغوية، وبشهية جنسية كانت تفاجئني، لاعتقادي حسبما يروج المجتمع أن الرغبة الجنسية للمرأة تخف مع التقدم في العمر، هي كانت تشرب المهدّئات كي تُسكت عويل شهوتها، وكنت أنا أستغرب وأعتقد أنّها غير طبيعية. فُطرنا على الاعتقاد أن المرأة محدودة الصلاحية، بتاريخ قابل للانتهاء عند الخمسين، وكانت معظم وجوه النساء الخمسينيات الريفيات والفقيرات لها ملامح باردة، محنطة وخالية من الحياة، ولو

أنهنَّ وضعن قليلاً من الحمرة على شفاههن، وبعض الشهوة في عيونهن، لبدون أصغر بعشر سنين حالاً. نساء المدن كنَّ أكثر اهتماماً بأناقتهنّ ومظهرنّ، ويتردّدن إلى عيادات التجميل، لإجراء كل ما يعيد إليهن بعض الصبا، أو يوقف عجلة دوران الزمن على الأقل. وهذه المبالغة بالاهتمام بالشكل الخارجي تجسد حقيقة نظرة الرجل إلى المرأة.

مروى التي عاشت قصة حب مشتعلة مع جار يملك مكتب محاماة قريباً من مكان عملها، وبعد إخلاص ووعود بالزواج، عادت من سفر سريع ومشؤوم وتوجهت لتفاجئه في المكتب، فسمعت عبر النافذة المطلة على المدخل الخلفي للبناء، والمفتوحة بشكل موارب، وبسوء حظ عاثر للحبيبين، أصوات قُبَل وتأوهات، تحفظ صوت مُطلِّقها عن ظهر قلب، ارتجفت ككلب مبلل في كانون وطرقت على الباب، ففتح لها الرجل مصاباً بالذهول، وبجنون امرأة متيمة ومغدورة توجهت إلى المطبخ، فوجدت شاياً مغلياً، حملته مع خيبتها ورشقت به المرأة الأخرى الخارجة من سرير الرغبة للتو. الرجل لم يقل شيئاً خوفاً على سمعة المرأة المتزوجة، التي كانت تضاجعه، والمرأة ابتلعت صوتها وحريق جلدها تحت الشاي المدلوق، وخرجت صاغرة كعبدة ذليلة، كشف سوء حظها خيانتها لزوجها أمام صديقتي. أما صديقتي مروى فمضت دون أن تنبس ببنت شفة، توجهت إلى بيتها، وجمعت كل ما تمكنت من جمعه من البراز، ووضعته في علبة ثم مضت إلى مكتب حبيبها الخائن ومرّغت أبوابه وحيطانه وشبابيكه بالروث، وبقيت على مدى أسبوع تفعل الشيء ذاته، دون أن يتجرأ هو على مواجهتها، طبعاً لأنه هو أيضاً كان متزوجاً، ويخفي أمر علاقتهما عن زوجته. بقيت مروى شهوراً بعدها، تتساءل وتفكر وتُدخِّن بشراهة وتسهر وتحتسي الكحول وتتذكر القصة، ولم يحاول لا هو ولا هي العودة حسب قولها.

كان لمروى أخت متدينة، لا تقطع فرض صلاة، وتواظب على قراءة القرآن، وتقيّة، يئست من تعافي صديقتي من داء الخيانة والعشق. فأخذتها إلى شيخة فاضلة لتساعدها على النسيان.

أنا ورغم مرور شهور على حادثة البراز، واظبت على تجنب سؤالها عما إذا كانت قد نسيت، لأني أعلم أن امرأة مغدورة لا تنسى إلا بحب جديد.



7

ارتديت ثوباً مكشوف الصدر وشهياً ويزيده فتنـــة، وتأبطـــت ذراع صـــلاح المبهور الأنفاس بي والمزهو بوجوده مع امرأة معروفة، وانطلقنـــا فـــي ســـيارته الفاخرة إلى أحد مطاعم السهر، استقبلنا مدير المطعم على البـــاب، ورافقنـــا إلـــى طاولتنا المحجوزة في قسم الـــ"في أي بي". كانت الإضاءة مصممة على الطريقـــة الفرنسية، شموع خافتة على الطاولات، وطيف ضوء برتقالي اللون وأزرق تمتـــد أصابعه في ضباب الهواء البارد والعابق ببعض الدخان.

الموسيقا لعنة ساحرة شريرة تتعمد الإيقاع ببني البشر، كأس الشمبانيا جنّـــي متواطئ، وعينا صلاح اسطورة الخلق والتكوين، ودمي يغلي. كانت الوجوه تتغير شيئاً فشيئاً على إيقاع الغناء والخمر والنشوة، وتصبح ودودة وأليفة وحارة، قابلـــت على مدى سنوات أثناء ترددنا أنا وزوجـــي إلـــى ذاك المكـــان، أهـــم الـــضباط والمسؤولين وبعض أبناء عائلة الأسد، وتأملت كيف كانوا ينسون تجهمهم وقساواتهم ويصبحون أطفالاً بعد الكأس الثالث، كان صـــلاح يغـــار كثيـــراً مـــن عيـــونهم المتلصّصة، ومن عيني الزائغتين، لم يكن يعلم أني أعشق مراقبـــة البـــشر وهـــم ينزعون عنهم أعمارهم وأعباءهم وشرورهم وأقنعتهم، ويرتدون الحقيقة.

منتزعاً لذتي كلها، ومحطماً عالمي السحري، بدأ المغني بترداد أغاني تتغنى بحب بشار الأسد. هاج الحاضرون، وكلهم من الطبقة المخملية، الغنية اصلاً والتي زادت غنى بعهد الأسدين الأب والابن، فيما افتقرت أخـــرى، أو الطبقـــة الحديثـــة الثراء (المحدثة النعمة) من أغنياء السلطة والتجـــار، وبـــدأوا يغنـــون ويقرعـــون كؤوسهم تأكيداً على حبهم لـــ"سيد الوطن". كان التصفيق والتهليل يعلـــو بعـــد أي مقطع غنائي يذكر اسم بشار، لإثبات حسن النوايا والولاء للقائد الرمز. شيء مـــا سمّر يدي في مكانهما، شيء ما منعني من التصفيق، امتلأت عيوني بدموع خائفـــة

ومبلوعة، لم أصفق، ولم أخفْ من أحد، لأنني كمذيعة وعلوية، أقع خارج دائرة الشبهات. قام معظمهم من خلف الطاولات ورقصوا على أنغام أغنية تمجيدية، وحاول صلاح المنتشي بالخمر وحب الرئيس أن يدعوني إلى الرقص فرفضت. وانتظرت عودة المغني إلى الأغاني العاطفية، وانتقيت أغنية لمغني معروف اسمه جورج وسوف وتأبطت ذراع صلاح للرقص، أجل رقصت رغم حزني الشديد المخبأ، وكانت درعا تذبح حينها.

*****

بعد أن وصلت إلى الإذاعة، جلست قليلاً مع المخرج، وبدا سعيداً كقط مدلل، كان من سكان دمشق بعد أن جاء مع عائلته من القرداحة، ودرس في معهد متواضع، ثم تمكن عبر واسطته من الحصول على عمله كمخرج، وهي فرصة يحسده عليها آلاف خريجي الجامعات السوريين العاطلين من العمل، تماماً كما تحسدني آلاف الخريجات على فرصتي للعمل كمذيعة.

تظاهرت بالفرح كممثلة تتقن دورها، ثم دخلت إلى الاستديو، وجلست في كرسيي المعتاد أمام الميكروفون، فتحت شاشة الكمبيوتر، وبدأت أراقب رسائل المستمعين الواصلة عبر الرقم 1887، المخصص لهذا الغرض، والموصول بشركتي الاتصالات الخليوية الوحيدتين في سوريا: 1- شركة السيرياتل التابعة لرامي مخلوف ابن خال الرئيس، ورجل الاقتصاد الأول المحتكر لقطاع الاتصالات الخليوية ومشاريع أخرى، والرجل الثالث بعد بشار وماهر، مع ملاحظة غياب اسم زوج أخت الرئيس آصف شوكت من الحياة المافيوية العلنية. 2- وشركة "آل آم تي آن" التابعة لأحد التجار الدمشقيين – على ما أذكر، والحائز على مباركة ورضا ودعم رامي، بعد قبوله بدفع الكم الهائل من الضرائب واستثناء شركة سيرياتل من ذلك، كما أخبرني موظف هناك.

كان رامي ذا حظوة لدى بعض العلويين الفقراء لخلقه فرص عمل لأبنائهم وقيامه بأعمال خيرية لهم ولقرابته بالرئيس، ولدى بعض أبناء الطبقات الغنية من الطوائف الأخرى، لأنه أدخل خدمة الموبايل والإنترنت الهوائي إلى سوريا، ليجني منها أرباحاً هائلة قيل إنه تقاسمها مع بشار الأسد، ولدى العاملين لديه من كل الطوائف والمدينين له بإنقاذهم من براثن البطالة والفقر.

على الضفة المقابلة وفي السر كان رامي مخلوف مكروهاً من قبل عامة الشعب لغلاء خدمات الموبايل والإنترنت في سوريا، وتعطلها المستمر، ولقناعتهم بأنه لص كبير يقتات على دماء السوريين، كما كان قبله أبناء نائب الرئيس المنفي عبد الحليم خدام. ومن أولى الشعارات التي رددت في الثورة شعارات ضده شخصياً فهو كان رمز الفساد الأكبر في سوريا، وصاحب الاسم الأكثر تردداً في الصفقات وقطاع الأعمال بشراكة مدفوعة الثمن دائماً مع تجار دمشق وحلب وغيرهم.

كانت رسائل المستمعين تصل تباعاً، في غياب كلي لرسائل المستمعين من درعا، وفي انحسار سيزيد يوماً بعد يوم للمشاركات من ادلب وبانياس ومدينة حماه ومعظم الريف الدمشقي وبعض أحياء حمص. كانت الرسائل تصل فقط من الموالين، من اللاذقية وطرطوس وحلب والسويداء والرقة ودير الزور وبعض الحالات الاستثنائية الموالية في المحافظات الثائرة.

لم يكن المستمعون المعارضون يجرؤون على التعبير عن آرائهم فالتزموا الصمت ليقينهم بأن شبكة الاتصالات مراقبة. وصلتني عشرون رسالة معارضة للنظام على مدى عام ونصف من عملي، ولم أكن أفعل شيئاً حيالها سوى الحزن والتجاهل، فيما علمت أن بعض الزملاء والزميلات كانوا يبلغون مدير الإذاعة عنها ليسارع هو، بدم بارد وخائن، لتسليم أرقام مرسليها إلى الجهات الأمنية. مرة رأيت مديرتي الجديدة التي عُينت محل القديمة الشابة، وهي تتحرك بتوتر وجزع، لأعلم فيما بعد أن متصلاً غافلهم وشتم الرئيس على الهواء قبل أن يتمكنوا من قطع اتصاله، ومن حينها منع

استقبال الاتصالات على الهواء مباشرة، وعمّم الأمر عبر ورقة وقعت من المدراء بالتسلسل، وعلّقت في الكونترول والإستديو ولوحة الإعلانات.

فاجأني الشاب الذي يعمل في البوفيه حين اصبح أمامي، كان قد دخل دون أن أنتبه، حاملاً معه النسكافيه بالحليب، احتسيت نصفه على عجل مع سيجارة نعنع، ثم شكرت المخرج على الضيافة، وفتحت صفحتي على الفيسبوك، وبدأت بالقراءة في إحدى الصفحات الصديقة لناشط اسمه محمد الحريري من درعا:

"منذ 26 ابريل 2011 عبر الهاتف المحمول

"سيدي الرئيس،

بدنا ساعتين ندفن فيهن شهداءنا، لو سمحت في جثث بالشارع، في مجال نسحبها؟ ما بدنا خبز أو مي أو كهربا، بدنا بس ندفن الشهداء... ماذا سيقول الصامتون عن تجويع اخوتهم في درعا؟! كيف سيذهبون صباح الأحد إلى أعمالهم ووظائفهم الحكومية ويمارسون شرب الشاي والقهوة؟ أي أحاديث سيتداولونها وهم يقتاتون من حسنات النظام ورشاويه؟؟ إنني أدعوهم إلى اضراب سلمي عن العمل حتى يتم الافراج عن درعا السجينة. أذكِّرهم بخبزهم وقمحهم الذي تدره عليهم سنوياً سهول حوران وفلاحيها، قليل من الضمير فقط، هذا كل ما أرجوه".

واصلت القراءة بشرود وخوف من أن يراني أحد وأنا أقرأ صفحة معارضة، إلى أن صحوت مرعوبة على صوت المخرج القادم من الكونترول عبر سماعات الأذنين، وهو يطلب مني أن ابدأ البرنامج، ثم أردف بابتسامة بلهاء وفوقية:

- على فكرة، الخال بيسلم عليك، وهو معجب بصوتك وثقافتك جداً.

- من هو الخال؟

أجابني بابتسامة غبية وفخورة ومشرئبة: ضابط مخابرات كبير.

أغلقت الفيسبوك، وقدمت البرنامج.

* * * * *

8

لا أعلم ما الساعة تماماً، بات الزمن حدثاً عابراً أمام الجثث المكومة كخضار فاسدة ومرمية في سوق الموت، خبر سوريا يتصدر نشرات الأخبار على شاشات الفضائيات، وصمتنا يخون درعا... آه درعا، أي عجز يشلنا كي لا ننبس ببنت شفة؟

كنت جالسة في بيتي على الأريكة المقابلة للتلفزيون، وحيث سأتسمر لساعات طويلة وايام دون حراك، فيما بعد، وعلى يميني طاولة أضع عليها الكمبيوتر المحمول الصغير، دخلت إلى الفيسبوك كلصة، وقرأت صفحات المؤدين، وكانت تعج بصور الرئيس وعبارات مديحه وتعظيمه. على الصفحات الحيادية، كان كلام الحب وسيلة متبعة لتضليل الروح عن الألم، أما صفحات المعارضين فكنت أؤجل دخولها كي أحافظ على مسافة آمنة وزائفة بيني وبين الحقيقة، مسافة تضعني بعيداً عن رائحة الدم. شيء ما غامض وسري وصارم، شيء ما يشبه طيفاً خفياً كان يشدني من يدي، لا دخل معه في الكواليس السرية للموت، للحقيقة، للرؤية، كان يؤنبني، يوبخني، ويجعلني أرغب بالتقيؤ، كان آمراً وواخزاً ومختبئاً في زاوية سحيقة في قلبي.

*****

كانت علاقتي بكلمة "مجزرة" محصورة في سياق لغوي توثيقي، يفرضه الحديث عن المجازر الشهيرة التي سجلها التاريخ، أو سياق بصري موجه تسوقه مشاهد الأخبار حول ما يجري من مجازر بحق الفلسطينيين. وكانت هذه المرة الأولى في حياتي التي أكابد فيها هذا البلاء وجهاً لوجه مع الموت، مجزرة في

درعا، مجزرة في سوريا، فوق التراب الذي عشقته قدماي، فوق الضفاف التي زرعتها قمح امتدادي، فوق موانئ طفولتي وقبلتي الأولى وذاكرتي، مجزرة في بلدي، مجزرة بحجم الدم المسفوح على رصيف صمتنا، عجباً يا درعا، كيف تركناك تُقتلين دون خناجر غازية، أو سيوف غريبة؟؟ بصفاقة وهدوء يشبه الموت؟؟

مجزرة صيدا في درعا، حدث لن أنساه ما حييت، واحد من جروح مفتوحة في الذاكرة، سوداء وملتهبة وواسعة كالسماء: في 29 نيسان وحسب شهادات أبناء البلدة وبعض المنشقين عن النظام من قوى الأمن، وبعد حصار قوات النظام لدرعا بأيام، قرر أبناء ريفها مؤازرة المدينة المحاصرة، فتجمعوا وحملوا الخبز والحليب والطعام لإيصاله للعائلات الموجودة هناك، قطعوا المسافة الطويلة مشياً على الأقدام، وعندما وصلوا إلى مدخل بلدة صيدا الشرقي عند المساكن العسكرية، استقبلتهم قوى الأمن بالبنادق، وعلا هتاف: الشعب يريد إسقاط النظام. فأطلق رجال الأمن الرصاص، استشهد في مجزرة صيدا وحدها 120 مدنياً، اعتقل 160، وجرح العشرات. الطفلان حمزة الخطيب وثامر الشرعي (13 عاماً) كانا برفقة المتظاهرين، حملت أصابعهما أرغفة الخبز الساخنة والمعبأة في أكياس رقيقة، لايصالها إلى أقرانهم الجياع، لم يكونا يعلمان أن الخبز صنو الموت. اعتقلا مع المئات يوم مجزرة صيدا، ليعودا إلى والدتيهما جثتين مشوهتين بعد نحو شهر من التعذيب قضياه في صقيع سجن المخابرات الجوية. عاد ثامر الشرعي جثة معذبة مشوهة ومقتلعة الأسنان وهامدة. وعاد حمزة وجهاً طيباً بريئاً منتفخاً وميتاً، وبين فخذيه كان ثمة فتحة غائرة مكان عضوه الذكري المبتور ومكان ضمائرنا أيضاً. روج النظام بأن "حمزة" ذي الثلاثة عشر ربيعاً الذي لم يعرف عادته السرية بعد، كان متوجهاً مع رفاقه لاغتصاب نساء العسكر.

* * * * *

في غرفة مذيعي الإذاعة المقفرة، شربت النسكافيه بالحليب ودخنت بشراهة. كانت النافذة تطل على الفناء الخلفي للمبنى، ومنها ترى بعض التحركات الأمنية لعناصر الحراسة، وتُسمع أصوات الغناء القادمة من احتفالات مبنى الشيراتون القريب. سمحت لنفسي بالانزلاق في الكرسي الخشبي العريض، ثم أدرت التلفاز على قناة الجزيرة. اقترب صوت المذيعة التي بدا أنها تتحدث عبر الموبايل، ثم دخلت إلى الغرفة، تبادلنا السلام والقبل:

- هل ترغبين بشرب شيء؟؟

أجابتني:

- أجل قهوة.

ثم وضعت حقيبة يدها جانباً، وأطلقت صيحة دهشة واستنكار:

- تتابعين الجزيرة؟

- أجل، ما المشكلة؟؟

وبدأت بإطلاق سيل من الشتائم واتهامات بأن هذه المحطات مغرضة ومتآمرة ضد سوريا، وتابعت باشمئزاز:

-كل من يتابع هذه المحطات خائن.

ارتبكت وأجبتها بنفاق متعمد:

- على العكس تماماً، علينا أن نعرف أعداءنا جيداً، وكي نعرفهم علينا أن نتابع إعلامهم.

في هذه الأثناء، بدأ مذيع الجزيرة بالحديث عن الطفل حمزة الخطيب، شهيد مجزرة صيدا، وقبل أن يكمل المذيع جملته، انتفضت كالملسوعة:

- "خرجو اللّه لا يقيم عن قلبو"، إنه يستحق أكثر من ذلك، يريد اغتصاب نساء الضباط؟؟. ها قد لاقى جزاءه العادل.

ابتلعت اختناقي وأجبتها:

- ولكنه طفل ولم يصل سن البلوغ، ولم يعرف عادته السرية بعـد، كيف سيغتصب نساء الضباط؟؟

- أنت الطفلة... لقد أمسكهم رجال الأمن وهم يحاولون اقتحام المساكن العسكرية، وهذه معلومات موثقة من أقربائي في الأمن.

ابتلعت لساني وإنسانيتي مجدّداً، وغيرت مجرى الحديث كلياً، وسألتها من أين اشترت حقيبتها الجميلة.

* * * * *

9

دلفت إلى مكتب مدير الإذاعة الذي كان مشغولاً بتوزيع نسخات ورقية إلى كل موظف يدخل مكتبه عمّا أسماه "مخطط بندر بن سلطان".

– اقرئي، ومدّ يده نحوي بإحدى النسخ، قرأت سريعاً:

"أطل السفير السعودي الأسبق في الولايات المتحدة الأمريكية بندر بن سلطان، بمخطط جديد من مخططاته الجهنمية على العرب والمسلمين، ووعد بندر الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش بأن إسقاط النظام السوري لا يكلِّف سوى ملياري دولار وأربعة أشهر، وتأمين وصول رئيس سوري إلى سدة الحكم يكون قلبه وعقله لأمريكا. الهدف من كل هذا التغيير يصب في الوصول إلى مشروع الشرق الأوسطي الجديد الذي بشرت به كوندليزا رايس وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة إبان الحرب على لبنان في تموز 2006، وقد وضع مخطط تنفيذي لهذا الوعد بالاتفاق مع السفير الأمريكي الأسبق في لبنان جيفري فيلتمان. ويعتبر بندر بن سلطان أن بشار الأسد له شعبية حقيقية داخل وخارج سوريا، ويجب عدم الاستهانة بها.. لذلك لا بد من توجيه هذه القوة المؤيدة إلى قوة موجهة ضده. الخطة تعتمد استراتيجياً على استغلال رغبة الناس المشروعة في الحرية والكرامة والتخلّص من الفساد، وتحويل رغبات الناس إلى الثورة على النظام عِبْر إقناع الناس أن طريق الإصلاح من داخل النظام مغلق، وأن الحل هو ثورة شاملة للاطاحة بالرئيس الدكتور باشر الأسد".

لم أعلّق على الموضوع، وشربت القهوة وودّعته.

هبطت الدرج المؤدي إلى مرآب السيارات الخلفي، وعدت مجدداً إلى كلبي وسيارتي، وانطلقت أعبّ الطرقات المترقبة، وأنا أستمع إلى أغنيتي المفضلة لوردة الجزائرية.

كنت أستمع إلى تلك الأغنية عشرات المرات، معتقدة أن تكرارها قد يطفئ شغفي بها، اعتماداً على نصيحة كازانتزاكس في زوربا بأن إفراطنا في تناول ما نحب كفيل بتخليصنا من لعنة اشتهائه. كنت امرأة شرهة، شرهة للحلويات، والملابس والعطور، والحب. ولم تفلح نصيحة زوربا في تخفيف شراهاتي رغم إفراطي في التهام واقتناء الأشياء، أما الحب فكان من المستحيل إشباع رغبتي به في بلاد يقاس فيها احترام المرأة بمدى تحفظها وإخفائها لمشاعرها. ويقيّم شرفها عبر غبائها وبرودها العاطفي وإخفاء متعتها في سرير الزوجية كي لا يعتقد الزوج بأنها امرأة مجربة جنسياً فتحلّ عليها اللعنة. أكدت لي إحدى ضيفات برامجي الإذاعية أن زوجها طلقها في ليلة عرسها بسبب تأوهاتها من شدة المتعة، رغم أنها كانت عذراء، وقررت بعدها أن تتظاهر بالبرود الجنسي حتى موتها. وعندما تزوجت مرة ثانية، مثّلت الدور جيداً، فاحتفظ بها الزوج الثاني، إلا انه خانها مع أخرى أكثر حرارة.

كنت مثل باقي النساء أحاول الانسجام مع كل هذه التناقضات، بل وأستمتع بها أحياناً، وكنت أعيش معظمها عبر علاقتي بصلاح، مفتونة بفكرة الحياة السرية بقدر كرهي لها، والانتظار القلق للزوج السري أو العشيق الشرعي في الليالي المتأخرة، بعد أن ينام الجوار ويتمكن من التسلل تحت وقع العيون المتلصصة، والدخول عبر الباب السحري إلى عتبة العناق الحار، اللذيذ والخائف، وتبادل اللمسات والقبل في شعور بارتكاب إثم محرم يمنح العلاقات الجنسية بُعداً سحرياً، يضعها في خانة المستحيلات العصية على التحقيق، وأكل تفاح الشجرة المحرمة.

كنت أؤمن أن زواجاً تقليدياً سيكسر غرائبيّة الحالة ويدخلها في الروتين، فرفضت عشرات عروض الزواج الجادة، واخترت رجلاً لا يجرؤ على الاعتراف بي أمام الناس خوفاً من زوجته، ولا أستطيع الاعتراف به خوفاً من والدتي التي كانت ترفض كلياً فكرة الزواج بمتزوج رغم أنها بدت أكثر ليونة في تقييم خصائص الزوج المناسب بعد أن تأكدت أن ابنتها الوحيدة أصبحت على أبواب

العنوسة، وعشت صراعاً مديداً بين حبي لصلاح ورغبتي في إنجاب طفل، وبين مبادئي المدافعة عن قضايا المرأة ونديتها للرجل، ورفضي لدخولي في بوتقة حريم السلطان، وبين رغبتي في ممارسة هذا الدور في الوقت نفسه.

كنت أحاول معاقبته ومعاقبة نفسي، أحرمه من رؤيتي، فيتوسل إليّ كي يعود إلى ذراعيي الحارتين، أمانع مرات عدة، ثمّ أستسلم لشوقي إليه أو لهذه التناقضات المجنونة، وأعود بعدها وأنقلب عليه مجدداً في حركات تمرد متقطعة، ضد كذبه وكذبي وكذب المجتمع المهووس بالجنس ليلاً وراء الأبواب المغلقة، والمحرم له نهاراً وفي العلن.

ذات مرة، ناقشت مديرة عُرفت بثقافتها، عن مساوئ عملنا كمذيعات، وعن التحفظ المفروض علينا فيما يتعلق بالتواجد في الأماكن العامة، وحياتنا الخاصة التي كانت تحت عدسة مكبرة، فأجابتني بكل بساطة:

- عليكن أن تفعلن ما تردنه في السر، في البيوت المغلقة.

صدمتني جملتها حينها، ولم أستوعب مغزاها، لأكتشف فيما بعد أن معظم المذيعات والنساء اللواتي يبالغن في إظهار التحفظ والرصانة أمام الناس، هنّ الأكثر تواجداً في الغرف السرية للمسؤولين والتجار. إحداهن كانت تقيم ليالي حمراء في بيتها، ثم ترفض ارتداء كنزة عارية الأكمام في الصباح من باب الحشمة. هذه السيدة دعت صلاح إلى بيتها دون أن تعرف عن علاقتنا، وأجبرته أنا على الذهاب من باب الفضول، قرع الباب ودخل، ففوجئ بالمدعوين من مسؤولين ومدراء ومذيعات، يمارسون حقيقتهم وراء الأبواب المغلقة. صاحبة البيت نفسها استطاعت أن تؤمن لنفسها مكانة مرموقة كمديرة لا تمتلك أدنى حد من الكفاءة باستثناء تأمين النساء الشابات للرجال اللاهثين وراء شهوتهم الجنسية.

عشتُ شكلاً من هذا النفاق عبر زواجي السري بصلاح، وهو زواج يعتبره البعض محلَّلاً في الإسلام، في حال توفر له شاهدان لإثبات صحته، ويقال إنه زواج

شائع في مصر، أما في سوريا فبدأ بالانتشار سراً، بعد ارتفاع نسبة العنوسة لدى النساء والرجال، ومنع إقامة علاقة جنسية معلنة خارج إطار الزواج الشرعي. ورغم أن بعض الحالات كانت تتمرد اجتماعياً ضد الأعراف السائدة، وترفض الانصياع لهذه الشرعنة، إلا أن النساء كن يدفعن الثمن المُرّ وحدهنّ في حال تمرّدن، فشرف الرجل الشرقي محصن، رغم أن الزنا حرام في الإسلام على الجنسين. أما المرأة فمخلوق هش، شرفه يقع بين فخذيه، وباستطاعة إشاعة كاذبة تطلق عن علاقة جنسية تربطها برجل، أن تدمر مستقبلها في الزواج كلياً، هذا إن لم تقتلها، كما يحدث في جرائم الشرف في بعض المناطق المتخلِّفة، وهي جرائم قتل متعمّد ومخطّط يرتكبه الرجال بحق زوجاتهن أو بناتهن أو أخواتهن لمجرد الاشتباه أنهن على علاقة جنسية بأحدهم.

وحدث مرة أن استضفت في برنامجي رجلاً ريفياً عديم الثقافة، قتل ابنته الوحيدة التي تدرس في المدينة بعد أن شك أنها على علاقة بأحدهم، وقضى حياته نادماً بعد أن تأكد أنها عذراء. هذا الرجل بكى، وقال لي: قتلتها بيدي هاتين.

جرائم الشرف لا يعاقب عليها القانون، وبقيت كذلك طيلة حكم حافظ الأسد (العلماني). وتوصل بشار الأسد إلى جعل عقوبتها عاماً واحداً، فيما تمنح المرأة حكم الاعدام أو السجن المؤبد، إذا ما قتلت زوجها بعد ضبطه متلبساً بجرم خيانتها مع أخرى، وهو موضوع أثار الكثير من الجدل ومحاولات التغيير في أوساط الناشطات المطالبات بحقوق المرأة، ولكن دون أي جدوى تذكر.

كانت عمليات ترقيع غشاء البكارة للشابات المقبلات على الزواج منتشرة بكثرة، وأكد لي أحد الأطباء المختصين بالأمراض النسائية أن عيادته تعجّ بهنّ، وذلك قبل انتشار غشاء البكارة الصيني الرخيص الذي قيل إنه لا يكلف إلا حوالي ألف ليرة سورية.

كنت أرفض الكذب بكل أشكاله رغم اضطراري للجوء إليه أحيانـــاً، وكنـــت ضد لجوء النساء إلى ترقيع غشاء البكارة باعتباره عملية غش كاملة، إلا أنني وفي بعض الأحيان برّرت لهنّ استخدامه بسبب الجور الشديد الواقع عليهنّ، ولا سيما أن فقدان العذرية في الشرق يعني دمار المرأة. وأعرف كثيرات ممن بقين عازبـــات طيلة حياتهنّ لخوفهنّ من انفضاح سر بكارتهن المثقوبة أو ممن احتفظن بعذريتهن حتى مماتهن. في بلادي كان دارجاً أن تمارس المرأة الجنس بكل أنواعـــه شـــرط احتفاظها بعذريتها، وإحدى النساء اللواتي عرفتهنّ ضاجعت عشرين شـــاباً وبكـــل الطرائق المتاحة في جسد المرأة باستثناء ثقب الشرف الشهير.



10

عندما كنت صغيرة، كانت جدتي لأبي تأخذني معها في زياراتها إلى القـرى العلوية المحيطة بمصياف: الحريف، نيصاف، بعرين، المـشرفة، عاشـق عمـر، الهزينة. كانت الطرقات الترابية الفقيرة تستقبلنا بمودة أم حانية، ويحتضننا الهـواء القادم من الحقول القريبة الملفوح بالشمس ورائحة سنابل القمح الطريـة وأشـجار الدفلى ورائحة طازجة لأشجار تتنفس. وما أن نتوغل في طرقات القرية أكثر حتى تهب نسائم قادمة من البيوت الطينية، ذات الجدران المتفسخة، والمطينة من الداخل والخارج بمادة مصنوعة من روث البقر الناشف، والذي كـانوا يـستخدم لحمايـة البيوت من البرد والحرّ كطريقة بدائية وغير مكلفة، والتي تحولت فيما بعـد إلـى جدران اسمنتية ميتة لا تشبه تلك الأوكار القديمة، التي تشبه خلايا النمل النـشيطة، وتهب النسائم محملة برائحة خبز التنور، والبطَاطا المسلوقة، والبندورة الطازجـة، والنعناع، وعرائس الذرة المشوية، وأحلام فقيرة.

كان أقرباء جدتي يهللون لقدومنا، ويطبخون البرغل، ويذبح ابنهم دجاجة تنام في القن مع صديقاتها، وتنتف صاحبة البيت ريشها بعد أن تضعها في الماء المغلي، وتنظفها وتطبخها بمرق البندورة الحمراء، والبطاطا المقطّعة، أو تسلقها وتـضعها على وجه البرغل إذا كانت زيارتنا في الأعياد التي كنت أعرفهـا مـن صـحون البرغل المغطاة باللحم، والتي كانت تعبأ وتوزع على جميع بيوت القرية أو الحـي لاحقاً حين سكن العلويون في المدن. وكانت جدتي والنـساء الأخريـات يحملننـا صحوناً، نتراكض نحن الصغار لإيصالها إلى البيوت الأخرى في طقسٍ كنا نعتبره عقوبة حقيقية لنا لاضطرارنا إلى حمل الصحون والسير في الطرقـات الـوعرة. ومرة أوقعت الصحن من يدي، واختفيت لساعات من خوفي من غضب جدتي إلى أن بحثت هي عني، وقبلتني لطمأنتي أن الكارثة ليست كبيرة.

في الأعياد كنت ألمح الرجال وهم يستقبلون رجال الدين المشايخ، ويقبِّلـون أيديهم تعبيراً عن الاحترام، وكنا نحن الصغار مجبرون على تقبيل أيدي المشايخ دون أدنى تردد. وكانت عائلة ابي عائلة مشايخ مما جعلني أمضي طفولتي ومراهقتي في تقبيل الأيدي، والتي سينقذني منها، فيما بعد، سفري إلى دمشق للدراسة في الجامعة، وابتعادي كلياً عن هذه الطقوس إلا أثناء زياراتي المحدودة إلى مشرفة المشايخ مسقط رأس أبي.

وبعد تقبيل الأيادي، يجتمع الرجال فقط بصحبة رجال الدين في غرفة مغلقة ويأكلون البرغل باللحم، ويشربون العرق، ويتمتمون بكلمات وجمل وأصوات غامضة، لم نكن نجرؤ على التنصت إليها، لمعتقد ترسخ في أذهاننا الصغيرة حينها وسيرافقنا حتى مماتنا، أننا إذا استمعنا إلى أي كلمة مما يقولون سنمسخ إلى أفاعي في لحظة واحدة. كانت جدتي وأخواتها الأربع الوحيدات بلا أخ شاب، يؤكدن لي أن طفلة حاولت الاستماع إلى المشايخ، فتحولت إلى أفعى، وكنت أصدق الرواية. وكبرت فيما بعد لأعلم أن الصغار يبعدون عن هذه الاجتماعات السحرية المغلقة خوفاً من أن تلتقط ألسنتهم البريئة جملة ما فينقلونها إلى العلن، ويفشون سراً من أسرار الديانة العلوية الباطنية، ولأدرك أيضاً فيما بعد أننا نحن النساء نمضي أعمارنا كلها دون أن نعرف أو نتعلم أي معلومة عن عقيدتنا الغامضة.

وفيما كانت النساء تمضي أوقاتها في زراعة الأرض والمطبخ وخدمة الرجال، والدراسة والعمل لاحقاً حين تطورت الأرياف، كان الشباب العلويون بمجرد بلوغهم عمراً محدداً يخضعون لدروس دينية مكثفة من قبل رجال الدين في الطائفة، ويحلفون على عدم إفشائها، ويقال: استلم فلان دينه. وأعترف أني في سنواتي الأولى في جامعة دمشق، حاولت دون جدوى اقناع العديد من اصدقائي الذكور العلويين المتعلمين لإفشاء السر، وأخبرتهم مراراً أن إقصاء المرأة بهذه الطريقة وجهلها لدينها الحقيقي ظلم وجنون وتخلف، مما دفع بعضهم بالاستشهاد

بمقولة نسبت إلى علي بن أبي طالب، ابن عم النبي محمد، المقدس لـدى الطائفـة العلوية وهي: "النساء ناقصات عقل ودين"، فكيف يعطى الدين لناقصات؟!

كنا كنساء علويات لا نضع الحجاب، ونلبس كما نشاء وكما يليـق بمجتمـع ريفي، ونختلط مع الذكور من الطائفة منذ طفولتنا، فـي انـدماج حـضاري راقٍ وبريء، وتميز معظم شباب الطائفة بنظافة أخلاقهم وطهر سريرتهم تجاه المـرأة، وأقول متأكدة أن الشاب والفتاة العلويين لا يعرفان الجنس قبل الزواج، حتـى فـي أكثر حالات العشق اشتعالاً، رغم اللقاءات السرية والقبل السريعة التي كانت تُسرق في الحقول أو الكروم أو الحواكير البعيدة.

كانت الأجواء الاجتماعية مريحة جداً في الشكل الظـاهر، وكـان الـشباب والصبايا يعملون معاً في الحقل والبيدر، ويمضون الأمسيات الصيفية على أسـطح المنازل البسيطة أو على المصاطب، وهي أماكن جلوس تبنى على عتبات البيـوت الخارجية. وفي الأعراس والأفراح تعقد حلقات الدبكة، ويرقص الجميع في دوائـر تتشابك فيها أيدي الصبايا والشباب بحميمية بريئة، ويتعمد بعض الـشباب إمـساك أيدي بعض الفتيات كتعبير منهم عن الإعجاب. وكانت هذه الحركة تعتبـر بمثابـة إعلان عن الحب، وتتناقلها نساء القرية كنبأ خطوبة جديد يتكلّل بالزواج غالباً. هذه الحرية الاجتماعية كانت تبدو لي شكلية أمام التحريم المطلق علـى المـرأة تعلـم ومعرفة دينها الذي ما تزال سريته وغموضه تشغل عقول بقية الطوائف الإسلامية!

للعلويين كتاب ديني غامض لم أقرأه يوماً واسمه "الجفـر". يحكـى أن فيـه تنبؤات لعلي بن أبي طالب، وقد نسجت عنه كما حيكت عن العلويين الكثيـر مـن الأساطير والقصص الغرائبية التي لا أساس لها من الصحة، والتي ساهم في خلقها باطنية الديانة، واختباء العلويين قديماً في الجبال بعيداً عن المدن والغرباء.

يعتقد البعض أن العلويين لديهم ليلة تعرف بالليلة الحمراء حيث تطفأ أنـوار القرية ويجتمع النساء والرجال، ويمارسون الجنس بصمت مطبق دون أي تمييـز

لهوية الشريك الجنسي، الأخ مع أخته والأب مع ابنته وهكذا، ويحكى في هذه الأسطورة الإيروتيكية أن أحد الرجال تعمد قطع خرقة من ثوب الفتاة التي عاشرها ليكتشف في اليوم التالي أنها ابنته، مما دفعه لقتل نفسه. وأؤكد لكم أني لم أر ولم أسمع بالليلة الحمراء طيلة حياتي وزياراتي الطويلة والمتكررة للريف العلوي.

الأسطورة الايروتيكية التالية حيكت حول العلويين والإسماعيليين وتقول إنهم يعبدون فرْج المرأة ويقدسونه، ويقال إن أحد الغرباء تلصص على أبناء الطائفة الإسماعيلية أثناء أدائهم الصلاة، فرأى الرجال ينحنون أمام فرج إمرأة، مما جعله يعتقد أنهم يقدّسونه. وبعض الإسماعيليين يروي أصل القصة كالتالي: زوجة الأمير كريم آغا خان (رمزهم الديني وتجسيداً لاستمرار الإمامة)، كانت حاملاً، فانحنى بعض الرجال للجنين الذي في بطنها والذي يعتبر بدوره تجسيداً مقدساً ومستمراً للإمامة، وهنا أؤكد أيضاً أني لم أر ولم أسمع أي شيء من هذا القبيل طيلة فترة معاشرتي للطائفتين.

يتفنَّن الناس في نسج الأساطير وتأليفها كي يمنحوا لحياتهم الواقعية البائسة والمملة معنى خيالياً، مثيراً ممتعاً وغريباً. وكانت الطوائف ذات طقوس العبادات السرية مرتعاً خصباً لذلك، وأيضاً حكايات الجان والسحرة.

لعلي بن أبي طالب قداسة أسطورية لدى العلويين. وكانت جدتي تقف كثيراً أمام وجه القمر، تدعو وتصلي، وعندما سألتها مرة في إحدى الليالي الصيفية المقمرة والصافية عن سر ذلك، أجابتني:

- إنه وجه علي، كرَّم اللّه وجهه، انظري، ألا ترينه في القمر؟؟

وتتنهد وتضيف:

- أرجوك يا إمام علي وفّق لي حفيدتي وأتِها بعريس صالح.

أما القصص التي نسجت عن كرامات مزارات العلويين فكثيرة، وكانت ولا زالت تدهشني.

يحكى عن مزار اسمه أبو طاقة أو الشيخ العلوي يوسف ربعو المتوفى عام 435 هـ، وهو مقام مشهور لدى الطائفة العلوية وفي سوريا كلها، ويوجد في ريف حماه في قرية سامها ربعو. ويعتقد الناس أنه قادر على كشف السرقات، والخيانات الزوجية، والجرائم، والعلاقات الجنسية المحرمة.

وأبو طاقة عبارة عن حفرة في الصخر على شكل مستطيل ارتفاعه ستين سنتيمتراً وعرضه لا يتجاوز الخمسين، أما عمقها فيكاد يصل إلى أربعين سنتيمتراً، تضيق الطاقة في نهايتها، ويدخل المشتبه فيهم من خلالها ويقسمون الإيمان على براءتهم، فإذا كانوا بريئين، تمكنوا من الخروج مهما كانوا بدناء. وإذا كانوا لصوص أو زناة، يعلقون فيها حتى يقرأ أحد الشيوخ المكلفين بحراسة "أبو طاقة" آيات قرآنية محددة تمكنهم من الخروج.

هذا المقام له شعبية وشهرة واسعة في سوريا، ويأتي الناس إليه من كل المدن والطوائف، ويزوره من يتعرض لسرقة ويشتبه بأحد من أقربائه أو أصدقائه، أو من يشتبه بخيانة زوجته ويرغب بمعرفة الحقيقة، وتدخل النساء المتهمات في الطاقة كعبدات ذليلات. وإذا علقن في الداخل، حكم عليهنّ بالقتل أو بالطلاق والفضيحة على أهون تقدير، ولم أسمع يوماً بامرأة أدخلت زوجها في "الطاقة" للتأكد من خيانته.

"الطاقة" مكان سحري كما يقال، وحين زرتها للفرجة إثر الحاح جدتي، رأيت قنطرة رخامية تؤدي إلى غرفة صغيرة، فيها قبر صاحب المقام الشيخ، وفيها صور لأولياء صالحين ومجموعة من المصاحف القرآنية الموزعة في كل مكان. وكانت رائحة البخور تملأ الأجواء وتشبه الرائحة في مقام جد أبي. وأذكر جيداً أن رجالاً ونساءً محجبات وسافرات كانوا هناك يجرّبون الدخول في الطاقة، وعلق أحد الرجال فيها رغم نحالته فيما خرج رجل بدين بعده، وكأنه انزلق انزلاقاً. خفت يومها كثيراً لأن جدتي اقترحت عليّ المرور لتتأكد من أني أحبها، طبعاً جدتي كانت تمازحني، إلا أني بقيت حتى هذه اللحظة، أخاف من مجرد التفكير بهذه

الطاقة التي تشبه القبر، ولم أحاول زيارتها بعد تلك المرة أبداً. كنت أكـــره فكـــرة وجود طاقة تتمدد وتتضيق حسب خطايا البشر، وكنت أعتقـــد أن البـــشر خُلقـــوا ليرتكبوا الأخطاء ولا سيما النساء المحكومات بمجتمع ذكوري يتيح للرجل فعل ما يحلو له، ويسمح له بتعدد الزوجات فيما تُقتل النساء لشبهة في جرائم الشرف.

أبو طاقة بقي في ذاكرتي رمزاً لعذاب القبور الذي يتحدثون عنه في الإسلام، إذ يحكى أن قبور المذنبين تضيق عليهم بعد موتهم فيما تتسع قبور الصالحين. في سوريا كانت القبور تضيق على الشهداء، لأنها لم تعد تتسع لكل الجثث الجماعيـــة المتراكمة.



11

أجفلني صوت الهاتف، ورددت، فجاءني صوت منى:

- مرحباً

- أهلاً منى، كيفك؟

- "ماني منيحة"!!

بدأت تتحدث بصوت مخنوق وعصبيّ عن متاعبها في الصحيفة التي تعمل فيها، وعن قلقها على مصير البلد، وغباء النظام والإعلام في التعاطي مع الثورة، وعن حجم العنف الذي سيولده. وكنا نستخدم في أحاديثنا الحذرة من مراقبة الأمن للهواتف لغة الشيفرة نسائية خاصة، وندمج السياسة بأحاديثنا النسائية الخاصة، مما كان يولّد بعض المواقف الكوميدية، فكنت أقول لها مثلاً: زوجك غبي ومجنون وأحمق عليك أن تطلقيه. وهذا معناه النظام غبي ومجنون وأحمق، ويجب أن يسقط. أنا أشعر أن زوجك سيوصل بنا إلى الهاوية. وهذا معناه أن النظام سيدمرنا .. أنا أكره زوجك كرهاً شديداً، ولا أحتمل أن أراه. وهذا معناه: أنا أكره النظام.. هناك ذبابة تطير حولي. وهذا يعني انتبهي أنا أسمع صوت تجسّس على الخط.. ونتعمد تكرار الدعاء بالخير والتوفيق للرئيس والأجهزة الأمنية، فنقول في سخرية مبطنة: اللّه يحميهم ويديمهم فوق رأسنا، لولا وجودهم لخرّبت العصابات الإرهابية البلد، هؤلاء المجرمون.. ثم نضحك بشكل هستيري على هذه الشيفرة الغبية.

في ذاك الصباح كانت منى مضطربة جداً، فقررت زيارتها كي نتحدّث بعيداً عن الرقابة والخوف. قرعت الباب، ففتحت لي الخادمة، ثم أطل زوجها محيياً ومهللاً بحفاوة مصطنعة، وشاركنا الجلسة، وبعد أن شربنا القهوة، انتقلنا إلى مناقشة الوضع العام، فاستمات في الدفاع عن النظام، مما أثار دهشتي، لأن منى أكدت لي سابقاً معارضته. أخفيت استغرابي ولم أحاول الاستفسار كي لا أتسبّب بأي إحراج

لصديقتي وبعد أن يئست أيضاً من إمكانية تواجدنا بمفردنا بعيداً عن تلصّص زوجها، تذرّعت بموعدٍ آخر، وودّعتهما ومضيت.

بعد مرور أيام من هذه الزيارة، سألتها:

- ما قصة زوجك؟ لماذا تحدث هكذا؟

- بصراحة، تعمد هذا، لأنك علوية وحذرني منك، قائلاً: لا تصدّقيها مهما قالت، فالعلويين لا يمكن أن يكونوا ضده، ومن المؤكد أنها تحاول استدراجك بالكلام لكي تخبر عنك الأجهزة الأمنية.

منى صديقتي الدمشقية العلمانية كانت تثق بي وتعلم صدق موقفي، إلا أن كثيرين لم يكونوا في نفس وعيها، وهذه الحادثة التي شهدتها في الشهر الثامن من الثورة، كانت مؤشراً خطيراً للشرخ الطائفي التي تعمّد النظام توسيعه بين مواطني سوريا، وهي حادثة أحزنتني كثيراً بالإضافة إلى قصص أخرى مشابهة.

*****

كانت المجازر تتوالى واحدة تلو الأخرى وكنا ننسبها في الإعلام إلى العصابات المسلحة دون أي دليل بصري يؤكد ذلك، لاستحالة توفره، فقط الاعترافات المفبركة هي كانت الدليل الضعيف على وجودها. كان الواقفون على الحياد يميلون إلى تصديقها في كثير من الأحيان، رغم معرفتهم بألاعيب النظام، هروباً من الإحساس بالعجز وعقدة الذنب، التي كانت تثقل ضمائرهم، ورغبة في خلق مبررات لسكونهم. الكثيرون كانوا مؤمنين بفشل النظام في الإصلاح والتصرف العقلاني لوقف الدماء، إلا أنهم كانوا لا يجرؤون على التحرك، لأنهم كانوا يعلمون ضمنياً أن بشار الأسد لن يتخلى عن الكرسي حتى لو اضطر لإحراق سوريا بأسرها. الخوف على سوريا من جنون الأسد وعصابته بالإضافة إلى

الخوف المزمن لدى السوريين من فروع الأمن، أبقى الكثيرين منهم في خانة الصمت.

حدثني أبو إبراهيم الدمشقي، والموظف في إحدى الوزارات قائلاً:

- يا أختي، لا نستطيع عمل شيء، الأسد سيحرق البلد كي يبقى، وهذا ما يرغمنا على الصمت. ثم نحن خائفون على سوريا منهم.. (ثم توقف وتلفت حوله خائفاً) يجب أن ننتبه: الجدران لها آذان..

لا أعلم إذا كنتم تستطيعون كغربيين استيعاب التناقضات التي كنا نعيشها، والتي جعلت أكثرنا جرأة مشلولاً، كفأرٍ عالقٍ في مصيدة محكمة، كنا بحاجة إلى سنوات كي نعيد العمل إلى العضلات الضامرة في أدمغتنا المنومة مغناطيسياً، هو نفق الضوء بعد العتمة الطويلة، يعمي البصر قبل التأقلم مع النور واستعادة الرؤية.

أعترف أني كنت جبانة، وأعترف أني كنت خانعة، وأعترف أني كنت أحسد المتظاهرين على جرأتهم. كنت أقضي ساعات وساعات، مسمرة أمام التلفاز، لأراقب هذا الحبل السري الذي يوحّدهم، لأراقب هذه الأمواج من الشجاعة الغامرة وهي تنتقل بين أجسادهم المتلاصقة، وحناجرهم باللغة المحرمة، فتجعل ساحات التظاهر بؤراً من النور والألوهة، وتوقظ الهواء والبلاد والأرواح.

سألت مرة رامي صديقي الناشط المسيحي، المصمّم على التظاهر، رغم اعتقاله أكثر من مرة:

- بماذا تشعر وأنت في التظاهرة؟

فأجابني بفرح لم أفهمه إلا لاحقاً:

- بالحرية.

أعترف الآن يا رامي أني غرت منك كثيراً يومها، ومن غرفتك الفقيرة المؤجّرة والغنية بالكرامة، والتي كنت أشعر فيها بفيض من الطاقة السرية، التي لم أجدها في بيتي الغني، أو آلاف الدولارات المكدسة في حسابي البنكي، غِرت منك

وحسدتك على أصابع النور التي كانت تداعب عينيك وأنت تتحدث عن الحرية، وعن خيبتك الشديدة بعد عودتك من اعتصام ساحة عرنوس الذي لم ينجح، كنت تتحدث يومها كأنك فقدت عزيزاً.

حدثني يومها رامي عن اعتصام مفترض لم ينجح، على الرغم أن عدد الصبايا والشباب القادمين إلى الاعتصام تجاوز المائة وخمسين، إلاّ أنهم تناثروا كلصوص في أماكن متباعدة في أنحاء الساحة، ولم يجرؤوا على التجمع أو الاقتراب، خوفاً من الاعتقال واستشراس عناصر الأمن المختبئين كرصاصة غادرة. وحده رامي ذهب ووقف كنسر في المكان المخصص، وقف وانتظر طويلاً، على مرأى من رجال الأمن، وكان يتلفت يمنة ويسرة باحثاً عن رفقة، وبما أنه بقي وحيداً، اعتقده رجال الأمن واحداً منهم ولم يقتربوا منه. ضحكنا كثيراً أنا ورامي على هذه الحادثة، إلا أني بكيت كثيراً عندما اعتقل مجدداً.



12

شهر حزيران كان من الأشهر المفضلة لدي، لأنه يوعز بقدوم فصل الصيف وانتهاء المدارس وبدء العطلة، ويرتبط بذاكرتي البعيدة والعائدة لطفولتي، حيث كنا نرمي حقائبنا المدرسية ونمزّق الكتب والدفاتر، رغم إلحاح أمهاتنا على ضـــرورة الاحتفاظ بها لمنحها لأبناء العائلات الفقيرة. والحق يقال إننا وقتها لم نكن نفكر بهم ولم نكن نفهم معنى الفقر، لأننا كنا صغار، ولأن مدينة صغيرة كمصياف لم تكــن تسمح برؤية ملامح لفروق مادية بيننا وبين أقراننا، كانت مستويات الناس الماديـــة متقاربة ظاهرياً. وقلل إمكانية ظهورها نمط الحياة البسيط غير الحافــل بالوســـائل الاستهلاكية الشائعة في المدن الكبرى.

كانت مصياف مدينة صغيرة لا تحتاج إلى سيارات للتنقل إلا عند النزهـــات إلى الريف المجاور، ومن يمتلك سيارة كان يضعها على باب بيته، ولا يحركها إلا نادراً بسبب قرب المسافات ولذّة السير على الأقدام في الهواء الجبلي الطلق والآسر في الفصول غير الباردة. وأذكر جيداً سيارتنا الـــ"لادا" البيج المغطاة بشادر مخطط لم يكن يزاح عنها إلا في مرات نادرة، ولم يكن هناك ملاهٍ للعــب الأطفــال، ولا سينما مفعّلة بل سينما قديمة مغلقة ولا تعمل، ولا أماكن سهر أو مطـــاعم أو مقـــاهٍ تتيح فرصة للأغنياء بالتباهي، أو للفقراء بالتحسر، باستثناء مطعم "الوراقة" يوجـــد في أول الطريق المغادر إلى دمشق. ولم يكن أهل مصياف يقصدونه لعـــدم رواج هذه الظاهرة أصلاً، ولأنه كان عبارة عن منتزه مليء بالأشجار الخــضراء التـــي كانت مشهداً مألوفاً لسكان المنطقة. وكانت كل بيوتها متشابهة فـــي تلـــك الفتـــرة باستثناء حارة العلويين التي كانت تبدو أفقر وأكثر حزناً. باختصار، كانت مصياف مكاناً مثالياً للفقراء، لأنها وببساطة لم يكن فيها شيء يمكن شراؤه ســوى الطعـــام المتوفر بكثرة وبأسعار رخيصة، والملابس المتواضعة الثمن، والحلويات التقليديـــة الرخيصة، والكتب التي عزف السوريون عن قراءتها مع مرور الوقت.

شهر حزيران 2011 كان كئيباً ومخيفاً، وعثر فيه على ثلاث مقابر جماعية لعشرات المجندين من الجيش النظامي، قال النظام إنهم قتلوا على يد الثوار في ادلب، فيما أكد الأهالي أن النظام هو من قتلهم، لأنهم كانوا يحاولون الانشقاق. واستغل الإعلام السوري الحادثة بأبشع طريقة ممكنة للإساءة إلى الثورة وإلى المتبقي من إنسانيتنا، مصمماً على عرض مشاهد الجثث لأيام متتالية. أعترف أن المشاهد، كانت مؤلمة حدّ الموت، وأني شعرت بالإقياء والغضب والعدمية، عندما رأيت أجساد الجنود الفقراء المدماة والملقاة في حفرة عميقة تحت التراب في ظلام دامس وعميق، إلا أنني كنت أصب جام غضبي على بشار، لأنه استخدم أجسادهم الشابة في معركة الدفاع عن كرسيه، ولأن أعداد المقابر الجماعية في المناطق الثائرة كانت أكثر بكثير، وكانت الجثث تُدفن بصمت وبلا شواهد أو أكفان أو مراسيم تشييع مهيبة، كما حدث في مجزرة أطفال الحرية في حماه.

*****

كل ما يجري حولي يرهقني، ولم اعد قادرة على التحمل: الدماء، والاعتقالات، والكذب في الإعلام، وزواجي المشوه من صلاح. لم يعد ممكناً أن استمر على هذا النحو، حملت هاتفي الخليوي واتصلت بمجد، صديقي العزيز، ومخزن اسراري:

- هل بإمكانك زيارتي؟
- أجل، خيراً؟ هل هناك أمر طارئ.
- لا اطمئن، أنا مكتئبة فقط. أنا بحاجة إلى جرعة معنوية منك.

قدم مجد كعادته، حاملاً قدميه الثقيلتين، وفلسفته العميقة بالحياة، وعلبة دخانه، وعينيه الثاقبتين تحت نظارة العيون الرخيصة:

- أقلقتني، ما بك؟

وكقنبلة موقوتة تنتظر الانفجار، أجهشت بالبكاء، أجهشت كطفلة، وضـمني إلى صدره بعطف أب حنون، وبكيت على صدره طويلاً، وبصوتٍ عالٍ وشـهقات مقهورة ومتألمة، واصلت البكاء، ولم يوقفني، بكيت وبكيت وبكيت، بكيت بـصوت يشبه النحيب، وحدّثته عن خوفي على سوريا مما سيحدث مستقبلاً، وعن ألمي مما يجري، وعن الضغوط الأمنية التي تمارس علينا في العمل، حدثته عـن الكـذب، وعن خوفي من أن أقول ما أفكر فيه، وعن رغبتي بأن أقول الحقيقة، وأن أخـرج للتظاهر. وبكيت طويلاً وأنا أحدثه عن المذيعات المواليات اللـواتي يـصادرن أي فرصة لحوار عقلاني ومتّزن، وعن المخرجين الشبيحة الذين يجلـسون كـضباط المخابرات أمامنا في الاستديو، وعن شعوري بتأنيب الضمير لأنني صامتة لا أفعل شيئاً. حدثته عن حمزة الخطيب، وانهرت وأنا أبكي كغيمة مطر انهمرت وسـالت على الأرض، ثم اختفت في التراب العميق. هدّأني مجد، ودخل إلى غرفة النـوم، وأحضر لي غطاءً سميكاً، ثم دثّرني به بعد أن تمددت على الأريكة، وطلب مني أن أنام، قائلاً لي عبارة وحيدة سريعة وحاسمة ومريحة كالموت:

- أخرجي للتظاهر.

ومضى نحو الباب، واختفى خلف ضباب الفكرة التي أطلقها في هواء الغرفة.

في صباح اليوم التالي، شربت النسكافيه بالحليب، واتصلت بصديقة قديمـة كنت أعرف من مجد أنها تخرج للتظاهر كل جمعة هي ومجموعة من الناشطات:

- ألو.

- ألو.

- كيفك؟؟

- تمام والحمد للّه

- سمعت أنكم ستخرجون اليوم بنزهة، أنت والصبايا.

- ....

- أو انكم ربما ستذهبون إلى المطعم، ففكرت بالخروج معكم.

- ....

- للأسف أنا ابني مريض، ولن أتمكن من الخروج.

- حسناً إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

أغلقت الهاتف، وما هي إلا لحظات حتى جاءني صوت مجد على الهاتف ومن رقم غريب لا أعرفه.

- ألو علا..

- أهلين..

- لا تتحدثي مرة أخرى على الهاتف بهذه الطريقة مع ......، وأيضاً احذري من الحديث مع ....، الصبايا ملاحقات وخطوطهن مراقبة، اتصلت بي .... وهي خائفة، وطلبت مني أن أخبرك أنه عليك أن تريها وجهاً لوجه وتتفقا، وهي اليوم لن تخرج لأن الوضع خطير.

صمتّ ثم قلت بعد أن خفت على مجد أيضاً:

- ولكني لم أقل شيئاً، أنا أريد أن أخرج معهن إلى المطعم، هذه هي القصة.

- حسناً، عن اذنك الآن.

- سلامات، إلى اللقاء.

كانت الناشطات قد تعرّضن لحملة اعتقالات كثيفة منذ بداية الثورة، واعتقل منهن الكثيرات. وكنت قد وصلت في الوقت المتأخر، فلم تعد النساء تجرؤن على التظاهر في دمشق إلا بشكل متخفٍ ونادر.

*****

13

قررت أن آخذ إجازة مرضية، لأجري عملية شفط للدهون: عقدتي الأزليــة، كتبت الطلب وقدمته لمديرتي، فتوسعت حدقتا عينيها، ورمقتني باندهاش وقالت:

– ألا تخافين من هذه العمليات؟

فأجبتها:

– الأعمار بيد اللّه، كل واحد منا يموت في ساعته.

لم أكن واثقة من وجود اللّه، إلا أني كنت واثقة من ضرورة وجوده في هذا العالم المليء بالفقر والأوبئة والأمراض والحروب والحب والأشجار والكلاب.

لم أجد في كل المؤلفات والإبداعات الأدبية أو العلمية الهائلة فكرة ترقى إلى إبداع وعظمة وبهاء فكرة اللّه، ورغم أن بعض التصوّرات الدينية الخاطئة صوَّرته على شكل وحش مفترس سينتقم منا بعد مماتنا، إن نحن استمتعنا قليلاً، إلا أني كنت متأكدة من عكس ذلك. وكنت أراه جميلاً وطيباً وذكياً ومستامحاً وعاشقاً للمتع وغير متديّن، لم أكن واثقة من وجوده، لكن شيئاً ما، طيفٌ خفيٌ وغامض وسحري كــان يحدّثني عنه، ويهمس في أذني بأنه موجود على هيئة أرواح طيبة تسكن في السماء وتتنقّل بيننا. أعترف لكم أني رأيت هذه الأرواح في ساحات التظاهر، وأعترف أني استغربت اختفاءها عندما قتل بشار الأسد الأطفال، هل يهرب اللّــه مــن صــوت الرصاص، أم أنه يدع البشر يعبرون عن أحقادهم وشرورهم كمــا يــشاؤون، ثــم يحاسبهم شديد الحساب؟؟؟ في سوريا كان اللّه يتفرج ويبكي، لم يكن يعتقد أن البشر يستطيعون التحول إلى وحوش.

وافقت مديرتي على الإجازة، فاتصلت بقريبة لي تسكن في مصياف، وطلبت منها أن تأتي لمرافقتي إلى المشفى والبقاء برفقتي لفترة. وهكذا جاءت ناهد البسيطة والمخلصة لبشار ككلب، والفقيرة حد الشبع، وكنت استغرب كيف تتمكن امــرأة لا

تملك أي شيء في الحياة سوى راتبها الزهيد بعد ثلاثين عاماً من الخدمة في مدارس الدولة لا يكاد يكفيها لاستئجار بيت وتناول اللحم أربع مرات في الشهر، وتركيب أسنان اصطناعية محترمة، والتوقف عن الاستدانة من البقال حتى آخر الشهر، أن تؤيد بشار وتدافع عنه؟؟؟ كانت بعثية قديمة، وكان التنويم المغناطيسي البعثي الأسدي، قد أغلق عقلها عن أي فرصة لتفكير منطقي، بصراحة، أخبرتها: إن استمرَّيت في الدفاع عنه أمامي، لن استقبلك مرة أخرى. ناهد كانت تحبني حقاً، وتعتبرني بمثابة الابنة التي حُرمت من إنجابها، بعد أن قرر اللّه والنظام التآمر ضدها بالعقم والفقر فاحتملت شراستي. دخلنا إلى المشفى في طقوس احتفائية، وكنت أشعر أني أدخل إلى نزهة، لبست ثوب العمليات الأزرق، وقلت لها:

- إذا مت في العملية، أخبري أمي أني أريدها أن ترث كل شيء، شرط أن تخضع لعملية تجاعيد لوجهها وأن تربي كلبي جوي.

صرخت ناهد بجنون كعادتها:

- لا تقولي هذا الكلام.

إبتسمت وصمتّ. جاء الممرضون ووضعوني على النقالة، وأنزلوني عبر المصعد إلى غرفة العمليات، هناك استسلمت لعملية التخدير الممتعة والمريحة كموت سعيد، وهمست لطبيب التخدير في إذنه:

- أرجوك، أعتقد أني سأهذي تحت البنج، إذا ما شتمت النظام لا تخبر أحداً، ولا تسمح للبقية بسماعي.

كان وجهه قد بدأ يغيب مبتسماً على إيقاع المادة المخدرة والعَدُّ: واحد اثنان ثلاثة ....

ارتحت من كذب زملائي الاعلاميين لمدة أسبوعين، كما ارتحت من متابعة الأخبار، وبالتالي من أي إحساس بالمسؤولية تجاه دماء الشهداء والمعتقلين في

السجون المظلمة والمكتظة، وخرجت من نقاهتي الصحية امــرأة جديــدة رشــيقة وسعيدة، بعد أن خسرت الكيلوغرامات الزائدة.

كانت التحصينات الأمنية قد تكثّفت في طرقات العاصمة دمشق، كمــا ازداد عدد الحواجز الأمنية، وازداد عدد وسلاح عناصر الأمن الواقفين فيها، أصبح مبنى التلفزيون أقرب إلى ثكنة عسكرية تتعزز حراستها يوماً بعد يوم، وطالت التعزيزات الأمنية بابَيْ الدخول المخصص أحدهما للمشاة والثاني للسيارات. انتشر عناصــر الحراسة على امتداد السور الإسمنتي الضخم المحيط بالمبنى، وبُنيت لهــم غــرف مراقبة لم أرها من قبل، وأصبح الدخول من الباب الأمــامي المخــصص للمــشاة يتطلب العبور، عبر مفرزة أمنية واقفة في بداية الطريق المحاذي للسور الأمــامي للمبنى، وعبر حارسين واقفين على الباب الخارجي الأول، ثم المرور مــن أمــام غرفة جانبية مخصّصة لمسؤولي أمن المبنى، والولوج بعدها إلى الغرفة المخصصة للتفتيش. كنا نضع حقائبنا على اللسان المتحرك لجهاز المراقبة، ونعبر تحت جسر معدني فاحص، ونخضع لنظرات رجال الأمن المشكّكة والجالدة والخائفــة. كانــت نسبة الشك تزيد أو تنقص حسب الانتماءات الطائفية أو الــسياسية أو الديمغرافيــة المناطقية للموظفين.

الموظفون من أبناء المناطق الثائرة، يخــضعون لــضغوط وتفتــيش أمنــي مضاعف فيما يعبر أبناء المناطق والأقليات المؤيدة بــسهولة. هــذا التمييــز فــي التعاطي الأمني والتفتيش لم يقتصر على حواجز الإذاعة والتلفزيون فقط بل كانت حالة شبه عامة في كل حواجز التفتيش في سوريا.

أما الباب الخلفي المخصص للسيارات، فقد تم دعمه في البداية بغرفة حراسة جديدة على جانبه اليساري في مواجهة الغرفة القديمة اليمينية، لتضاف إليه فيما بعد حواجز إسمنتية تعزله عن الشارع العام المؤدي إلى ساحة الجمارك، وتقيه خطــر التعرض لهجوم مباشر.

دخلت من الباب الخلفي كعادتي ثم مصعد البوفيه، ولمحت وجه زميلنا صالح من درعا، أقبلت نحوه، وصافحته بمودة وخوف:

- كيف الحال؟

- لا بأس.

احتويته بنظرة حانية، وقلت له بصوت خفيض:

- أنا حزينة من أجل درعا، طمئنّي، هل تعرض أحد أقربائك للأذى؟

- حتى الآن لا، لقد خرج معظم أهلي وأقربائي من درعا.

لم أجرؤ عن سؤاله عن العصابات المسلحة والإرهابيين لأني أعرف أنها كذبة، ولم أجرؤ عن سؤاله عن حقيقة ما يجرين لأني كنت أعلم الحقيقة، ولم أجرؤ على سؤاله عن رأيه بطريقة النظام في التعاطي مع الأحداث، لأني كنت واثقة أنه لن يجرؤ على الحديث معي بصراحة (أنا العلوية المدعومة). كلانا كنا خائفين، هو خائف مني، وأنا خائفة من النظام، تلفتُّ حولي كمن يرتكب جرماً، وسمّرتُ عينيَّ في عينيه لثوان بدت طويلة يومها، وكمن يحاول اقناع الآخر بصدقه، وضعت يدي في يده، ورصصت عليها بقوة، وقلت:

- اللّه يكون معكم.

لم يفصح لي هو أبداً عن كذب رواية النظام في درعا، ولم أفصح له أنا مطلقاً عن موقف مماثل، إلا أن أعيننا كانت تقصان الرواية ذاتها.

بعد أيام تعرض صالح إلى التحقيق عدة مرات من قبل أمن المبنى، لمجرد انتمائه إلى درعا، وهكذا كان الحال مع معظم الموظفين الحورانيين الذين اعتبروا موضع شبهات وشكّ، لتحدرهم من مدينة أطلقت شرارة الثورة، وأقضّت مَضْجَعَ النظام وأجهزته الأمنية، وكانوا يفتّشون على الحواجز كأنهم مجرمين. وفي الشارع كان مرور سيارة تحمل لوحة كتب عليها درعا، كفيلاً بملاحقتها وتفتيشها كما يفتش رأس مصاب بالقمل.

اعتقلوا ابن صالح بعد فترة رغم أنه أكد لي بصوت مخنوق بالبكاء أنـــه لـــم يشارك في أي احتجاج، وقد تمكن بفضل علاقاته كصحفي من إخراجه من السجن سريعاً، إلا أني كنت أراه دائماً قلقاً وخائفاً وحزيناً وصامتاً، وهي كانـــت الـــسمات التي ميزت سلوك زملائي الإعلاميين من درعا، في تلـــك المرحلـــة، بمـــا فـــيهم المؤيدون.



14

آب 2011

جاء شهر رمضان خجولاً ومرتبكاً هذا العام. وبدأ الناس في المدن الهادئة مشغولين بالتحضير له، عبر شراء الحلويات والمؤونة، وتكديس الطعام خوفاً من الغلاء وارتفاع الأسعار الناري الذي يرافق هذا الشهر من العام. ورغم أن القضاء على الفساد كان من أبرز أسباب اشتعال الاحتجاجات في سوريا، إلا أن الحكومة بدت كعادتها عاجزة عن ضبط الغش والتسيب غير المبرر في أسعار السلع الغذائية والمواد الأولية الأساسية للمواطن. كان الناس يكثرون من الشراء رغم الغلاء، لأن موائد الشهر الكريم اعتادت على أن تعمر بأفخر وأشهى أنواع الطعام واستقبال الأقرباء والأصدقاء الصائمين. وبدل أن يكون شهر الصوم شهراً للتقشف والجوع، تحول إلى شهر للطقوس الاجتماعية والعائلية المصحوبة بالموائد الشهية والعرق سوس وقمر الدين وفتة الحمص الشامية والكبب وأنواع الشوربات وأشكال أخرى لا تعد ولا تحصى من أنواع أصناف الطبخ الشرقي. وكان كلّ إنسان يزين طاولته حسب إمكاناته المادية، إلا أن أفقر بيت كان يصرف في شهر الصوم ما يعادل دخل ثلاثة شهور أخرى اعتيادية على الأقل.

في رمضان، تسكن دمشق وتهدأ، وتبدو الوجوه أكثر طيبة ووداً وروحانية، ويتحول الغاضبون إلى مسالمين وديعين، والأشرار إلى قطط وديعة، فيما يتحول المدخنون الصائمون إلى مجانين، أما أنا فلم أصمه أبداً، ومرة حاولت صيامه مع جدتي، والدة أمي، التي لم تكن تقطع منه يوماً، كمعظم سكان مصياف الأصليين من الإسماعيليين، فلم أفلح. وبعدها أقلعت عن المحاولة لتعلقي الشديد بالتدخين. مما أذكره هنا جيداً أن جدتي لأبي لم تترك منه يوماً دون صيام كما كانت تقرأ القرآن

كل يوم، وما زال منظر نظاراتها المؤطرة بإطار معدني أسود يربض في ذاكرتي كصورة أليفة ومحبّبة ومحزنة.

كانت حركة المرور تشهد ازدحاماً جنونياً قبل ساعة الافطار عند أذان العشاء، ويتدافع السائقون بجنون للوصول إلى بيوتهم. وأعتقد أن الجوع والعطش لم يكن دافعهم، بل كان هذا الشعور العارم بالطمأنينة والمتعة عند شرب أول قطرة ماء على صوت الأذان وبرفقة العائلة، والذي منح هذه اللحظة سحراً خاصاً ومقدساً. ورغم أني لم أكن أصم إلا أني كنت أدعى كثيراً إلى الإفطار في بيوت الأصدقاء الصائمين.

هذا العام كان رمضان حزيناً ومختلفاً في المناطق الثائرة التي كانت تواصل الاحتجاج والموت دون توقف، وأصبحت نشرات الأخبار ووجبات الموت والاعتقال طقساً رمضانياً يومياً.

صدف عيد ميلادي لذلك العام، في رمضان، 11 آب، لم أقم أي طقس احتفالي، إلا أني تلقيت بعض الهدايا: حقيبة جلدية خمرية اللون مخططة بالأسود من منى التي تعلم انه لوني المفضل، لعبة دب صغير وعلية عطر من أحمد صديقي وزميلي في العمل، و"افرولا" خمري اللون أيضاً من جورجيت. وفي المساء قَدِمَ صلاح من حلب لزيارتي، وأتى حاملاً معه طقماً من الذهب وعلبة عطر من نوعي المفضل. لم يعجبني العقد، وشعرت أنه سوقيّ الشكل، إلا أنني شكرت صلاح بلا مبالاة وفوقية اعتدت أن أمارسها معه حين يجلب لي الهدايا.

كانت مشاعري قد بدأت تتغير نحوه، وأعترف أنني كنت أفكر بتركه جدياً. لم يلحظ هو ذلك بسبب انشغاله بشهوته الجنسية، وتأييده لبشار الأسد، أما أنا فكنت أشعر تماماً بهذا التغير الذي بدأ يطرأ على مشاعري تجاهه، والذي بدا واضحاً في عدم رغبتي برؤيته كثيراً، وفي برود جديد نحوه. اليوم عندما أفكر في سر تحول مشاعري تجاهه أدرك أنها كانت زوجته، والثورة. وأنه لم يفهم أنني امرأة لا تقبل

الاستمرار بخيانة امرأة أخرى، رغم أني حاولت ذلك. كن يؤكد لي أن علاقتهما الجنسية مقطوعة، ولم أكن أصدقه. كنت أشمئز منه عندما أتخيل أنه يخوننا نحن الاثنتين. رفض جديد بدأ يولد في داخلي، رفض جديد لكل ما استكنت إليه، لحياتي المصابة بالفصام، لخوفي وضعفي وعاداتي القديمة كلها. شيء ما بدأ يجبرني على التحول، على استعادة علا القديمة التي شوهتها الحياة الفاسدة والراكدة التي عاشها السوريون، وبدأت أفقد رغبتي في الأشياء التي كانت تبدو أساسية، بما فيها رغبتي بالأمومة، والتي كانت سبباً من أسباب بقائي مع صلاح في فترات احتقاري لازدواجيته وازدواجيتي.

كنت امرأة مفصومة اجتماعياً، وجاءت الثورة لتعرّي كل الزيف في أرواحنا، كنت أريد صلاح وأرفضه، أكرهه وأحبه، أشتهيه وأشمئز منه، أهجره وأعود إليه، وبين كل هذه التناقضات كانت تعيش رغبتي بالأمومة. صلاح كان يعرف ذلك، وكان يؤكد لي أننا سننجب طفلاً، وأنه ينتظر الوقت المناسب للخضوع للعلاج كي يستعيد مقدرته على الإنجاب، والتي كانت قد خفت بعد مرض أصابه أثناء زواجه الأول. وفي المرات التي بدوت جادة في هجره فيها، جاءني متوسلاً ومؤكداً أنه جاد وسيخضع للعلاج، وكنت واثقة من صدقه، إلا أنني وفي داخلي لم أكن أرغب بالإنجاب منه. كنت أفرح برضوخه لشروطي ومحبته لي، إلا أنني كنت أهرب من الارتباط الجدي به، هل كنت أكذب عليه أم أكذب على نفسي؟ هل كنت خائفة من أن أمله بعد أن يصبح بيننا رباط أبدي؟ لا أعلم، كل ما أعلمه أن مقدرتي على إنهاء الزواج في أي لحظة كانت تمنحني شعوراً بالحرية، وهذا كان شرطي عند عقد الزواج به: أن تبقى كل نسخ العقد السري بحوزتي.



في اليوم ما بعد التالي لعيد ميلادي، أخذت حماماً سريعاً، وتوجهت إلى مزيّن. قدّم لي أحد العاملين لديه فنجان الحليب بالنسكافيه، كالعادة، شربته وأنا أتأمل وجهي في المرآة، ثم توجهت إلى محل يستورد ألبسة أجنبية، ورحب بي كمن يعثر على هبة من السماء، فالشراء كان قليلاً بسبب خوف الناي من طول الأزمة في سوريا، وبدئهم بسياسة تقشف جدية. اشتريت عشرة بنطلونات وثلاث عشرة كنزة، وخمسة فساتين قصيرة، ودفعت مبلغاً يعادل دخل موظف لشهور. أوصل البائع السعيد مشترياتي إلى السيارة، ووضعت حزام الأمان الذي سأنسى وضعه في الأيام اللاحقة، وانطلقت في شوارع المدينة بعد أن وضعت حمرة الشفاه. كنت وحدي أنا وكلبي "جوي" في سيارتي، وكان "جوي" يطل برأسه من النافذة اليمينية ويراقب الناس والهواء والأشياء، وكنت أراه فرحاً ومضطرباً كمن خرج من السجن تواً: حتى الكلاب تكره السجون.

فتشت بين محطات الراديو بحثاً عن أغنية عاطفية تعجبني وتعينني على تصنع الفرح، والانفصال عن الواقع، إلا أن معظم الإذاعات كانت تبث أغاني التمجيد لبشار أو الأغاني الوطنية. وبعضها كان يبث برمج سياسية، أو برامج منوعات هابطة. كانت إحدى المذيعات تضحك بفرح، ورغم أني لاحقاً سأضحك بتصنع في برنامجي عن المرأة، إلا أني شعرت بغثيان خانق، وحزن شديد، كنت أحاول أن أنفصل عن الواقع، وأهرب من الاستماع إلى البرامج السياسية الكاذبة التي تبثها الاذاعات السورية، وأهرب من متابعة الفضائيات العربية التي تنقل أخبار الثورة، وحده الفيسبوك العالم الافتراضي كان صلتي بعالم الواقع.

تجولت ساعتين في سيارتي أنا و"جوي"، من جرمانا إلى المحلق الجنوبي، إلى اوتوستراد المزة الغربية، ثم لففت ونزلت عبر أوتوستراد المزة المتوجه إلى ساحة الأمويين، ومنها إلى ساحة الجاحظ القريبة من القصر الجمهوري، حيث اعتدت أن أنزه كلبي. واشتريت النسكافيه بالحليب من أحد الأكشاك الموجودة هناك، ولمحت تواجداً سيزداد فيما بعد، لعناصر أمن متنكرين، وكنت أعرفهم من

ثيابهم الفقيرة، ونظراتهم المتجسّسة بغباء مفضوح. انطلقت مجدداً بسيارتي، وكانت الأغاني الراقصة تصدح فيها، وكانت روحي تصدح بالبكاء والشزوفرينيا.

استمرت الثورة، واستمرت محاولة النظام في قمعها وتشويهها، وحدثت بعض حالات الانتقام الطائفي، وحالات تم فيها الذبح على الهوية لعلويين عزل. في حمص كان الوضع مختلفاً، ونجحت خطة النظام الماجنة في خلق صراع طائفي تعمد اشعاله بين الأحياء العلوية والأحياء السنية.

حدثني مجد الذي كان يتردد لزيارة أهله في الأحياء العلوية في حمص:

"كان سكان الحي العلوي آمنين في بيوتهم، حين جاءت مجموعة من عناصر الأمن والشبيحة وأكدت لهم أن الأحياء السنية ستهاجمهم وتذبحهم، فاستنفر الأهالي وحملوا الأسلحة التي بحوزتهم، وخرجوا للقاء السنة. وفي نفس التوقيت ذهبت مجموعة أخرى إلى سكان الأحياء السنية الآمنين في منازلهم، وأكدت لهم أن الأحياء العلوية ستأتي إليهم لمهاجمتهم وذبحهم، فاستنفروا هم أيضاً وحملوا أسلحتهم وخرجوا لملاقاة العلويين".

ووقع الطرفان في الفخ المحبوك بعناية وخبث لاستغلال الاحتقان الطائفي المستتر بين الطائفتين، وحدث اشتباك أودى بحياة كثيرين، بعد مكيدة مفبركة.

يتابع مجد:

"يوم وقفة عيد الأضحى، اشتبكت الأحياء العلوية مع الأحياء السنية. وحدث القتل على مبدأ المقايضة الطائفية، كل قتيل سني يقابله قتيل علوي، هكذا إلى أن وصل العدد إلى مئة وأربعين من السنة ومئة وعشرين من العلويين.

هذا النمط من الفتن كان متبعاً كثيراً من قبل النظام في المناطق ذات التعدد الطائفي. وشهدت مدينة اللاذقية مراراً محاولات من هذا النوع تستهدف الأحياء العلوية والسنية إلا أنها فشلت.. كل هذا الجنون جعلنا، نحن السوريين البعيدين عن مناطق الثورة، والمصابين بحالة صدمة وذعر وارتباك، نميل إلى مراقبة الأحداث

بتوتر من يتابع فيلم رعب على شاشة عرض سينمائية، ليس لأننا متبلدو المــشاعر ومقموعون وخائفون فقط، بل لأنه كان من الصعب لأي عقل بشري أن يــستوعب أن ما يجري هو أمر حقيقي. كنا نلجأ إلى الخيال، ونهرب من الواقع كـــي نبــرر عجزنا عن الصراخ بوجه النظام: ارحل، ارحل وجنّب البلد المزيد من الانـــزلاق إلى الدم. كنا مشلولي الإرادة، هكذا بكل بساطة، إلا أن الشيء الخفـــيّ والناصـــع المختبئ في صدورنا، كان يخزنا ويذكرنا بإنسانيتنا في بعض اللحظات الفالتة مـــن زمام الخوف. وكم كنا نكرهه، لأنه كان يحرك دمنا الراقـــد فـــي اســـتكانة تليـــق بأموات.



15

بعد مرور عام على عملي كمذيعة في إذاعة البرنامج العام، اقتحمت إذاعة منوعة تابعة للإذاعة الرسمية، وسميت "صوت الشباب"، وكنت أنا ومذيعة اسمها عائشة الخراط أول صوتين يظهران فيها. كانت أول إذاعة اف ام في سوريا، ومسموعة بشكل كبير، كنت يومها ما أزال أعمل على نظام البونات، وهو نظام عمل يشبه الإستكتاب في الصحف حيث لا راتب شهري ثابت.

وكنت اقدم فترة على الهواء حين اتصل بي أحد المستمعين وألقى دعابة أجبرتني على الضحك بصوتٍ عالٍ نسبياً. وبعد هذه الحادثة، أرسل مدير الإذاعة بطلبي وأنّبني وهدّدني بالفصل من العمل إن كررت ذلك. أزعجني التهديد كثيراً، وخفت من خسارة المهنة التي أحب في حال لم أؤمن الحماية لنفسي، في ظل قناعتي المطلقة بأنني لست على خطأ، وأن الموقف يستدعي الضحك.

كانت الحماية في سوريا تعني اتصالاً من أحد الضباط الكبار للتوصية بي ومنع المدراء من مضايقتي اتصلت بأحد أقربائي من عائلة أبي، وشرحت له مخاوفي، فأعطاني رقم أحد أقرباء أبي لم أسمع عنه يوماً، ونصحني أن اذهب لمقابلته. بالفعل اتصلت به وأخذت موعداً.

توجهت إلى مكتبه الواقع في أحد أهم الفروع الأمنية حينها في زيارة هي الأولى من نوعها إلى هذه الأمكنة. استقبلني في مكتبه المحاط بالأبهة، ورحب بي الترحيب اللائق بأنثى قريبة. حدثته عن مشكلتي وطلبت منه أن يساعدني في التعيين بعقد مؤقت، لأن التثبيت في ذلك الوقت كان يحتاج إلى قرار من رئيس الجمهورية حصراً، فيما كان العقد بحاجة إلى واسطة وزير أو ضابط كبير.

اتصل الضابط المذكور بوزير الاعلام، وطلب منه أن يعينني عبر عقد مؤقت. وما هي إلا أيام حتى انتشر نبأ قرابتي بضابط مهم في المخابرات، وانفتحت

أبواب الجنة أمامي: عُينت في عملي، وأصبح لي راتب شهري أدين بفضله لذاك الرجل، وازدادت برامجي. وأصبح جميع من في العمل بمن فيهم كبار المدراء يتوددون إليّ، طمعاً في التقرّب من قريبي الضابط، وكان هذا بمثابة صك حماية دائم رافقني إلى اللحظة التي تسرح فيها هذا الضابط من عمله.

السر الذي لم يعلمه أحد ولا حتى قريبي، أني، بعد أيام من تلك الزيارة لم أعد بحاجة إلى واسطة قريبي بسبب ظهور السيد "ع" في حياتي. "ع" هو صديق لقريبي وضابط معروف أيضاً، صادفته عنده، فبدأت قصة حب حارة بيننا. "ع" كان متنفذاً أكثر من قريبي، وباستطاعته أن يفك مشنوق عن حبل مشنقة كما يُقال، ولديه من الأموال ما لا تأكله النيران، ومستعداً وقادراً على تعييني في منصب وزيرة يومها، إلا أني كنت على أعتاب الثلاثين، ولم يكن لدي طموح بأكثر من مذيعة إذاعة، كنت بسيطة ولا أتقن استغلال الفرص، ولو أني طلبت منه لبن العصفور حينها لأحضره.

كنت أقطع مسافة ثلاثة أرباع الساعة كي أتمكن من رؤيته في مخبأ لقاءاتنا السرية في الفيلا التي يملكها في بلودان. أصل، فيفتح الحاجب الباب، ثم ينصرف لمساعدة الطباخ في إعداد العشاء الفاخر، نار الشومينيه موقدة، انعكاسها يلون أحجار الجدران الفخمة والملصقة بعناية، الفرش الخشبي يبدو أجمل أمام ضوء النار، مستسلماً وغارقاً في نشوته. الأرض مغطاة بسجادة من الفرو السميك والناعم، المطر كقطع جمر صغيرة عالقة على زجاج الباب المؤدي إلى حديقة الفيلا الخلفية. في وسط هذه الأجواء الدافئة والمتسلطة، كنا نشرب النبيذ، ونستمع إلى الأغاني الريفية التي يحبها، (وكان دارجاً في تلك الفترة الأغاني الريفية التي تتحدث باللهجة العلوية، ورائدها مغنٍ اسمه علي الديك)، ونتبادل الحديث لساعات.

حدثني مرة بعد كأسه الثاني عن معركة حادة نشبت قديماً بينه وبين رفعت الأسد شقيق حافظ الأسد، بسبب تنافسهما على كسب ود امرأة عشقها بجنون

وتشبهني كثيراً. وكان رفعت الأسد متعوداً على حصوله على أي امرأة يرغب بها، إلا أن "ع" المتنفذ والمزهو بسلطته وذكورته كسب المعركة، على حد قوله.

وفي لقاء آخر، وبعد أن سرى مفعول النبيذ في دمه، بكا أمامي، بكى كطفلٍ صغير من فرط حبه لي ومن رغبته بإسعادي. وأذكر جيداً أنـــي بقيــت لـــشهور مندهشة من دموعه، ليس لأن الحب لا يستحق الدموع، ولكن لصدمتي بأن ضباط المخابرات يبكون مثلنا، كل تلك القوة والطبع النزق، والجبروت كانت قناعاً لروح رقيقة وهشّة وحزينة شوهتها شهرة السلطة دون أن تمحو معالمها البشرية الأخيرة.

كنت استمتع بعلاقتي السرية مع هذا العالم الجديد والغــارق فـــي الـــسلطة والتناقضات وأخاف في نفس الوقت من تورط روحي بها، إلا أنني لم أتمكن مـــن الانسحاب سريعاً إلا بعد أن قرر هو تركي بعد اشتباهه بخيانتي، وهو أمر لم يكن ممكناً لأنني أحببته، ولأنني كنت أعلم أنه يراقبني، إلا أن تاريخ مغامراته الذكورية كضابط مخابرات عريق وشكوكه المريضة بالنساء والتي كانت تــصل إلـــى حـــد الهوس، لم تمنحه فرصة تصديق إخلاص فتاة في الثلاثين، ولا سيما أنه لـــم تكـــن هناك أي فرصة لعلاقة زوجية بيننا، بسبب ضعفه الجنـــسي وإصـــابته بـــأمراض الضغط والسكري.

أنا كنت سعيدة جداً بتواجدي معه ومستعدة للبقاء معه دهراً دون جـــنس، إلا أنه لم يستطع تحمل شكوكه. وهكذا وبعد محاولات متكررة، افترقنا دون أي محاولة منه لإيذائي رغم رغبته بذلك. "ع" كان أقسى ضابط عرفته في حياتي، وأرق رجل قابلته أيضاً.. ببساطة كان يشبهنا كلنا، بانغماسه الكلي في هـــذه اللعنـــة المـــسماة شيزوفرينيا، وأعترف أني أحببته.

* * * * *

16

الحب في زمن الحروب والثورات يتحدّى الموت، يتنفّس ويتمرد، ويرفض أن يُسجن في علبة الخوف، الحب لا يخشى السجون ولا القنابل المسيلة للدموع، ولا الدبابات البعيدة، بل يخشى الموت برصاصة قناصٍ تسرق عمره قبل اكتمال أمنياته المؤجّلة.

شهيّتنا للحب تزداد كلما زاد الخوف والموت والعبث، وكأننا نسابق المتبقي من أعمارنا المرتهنة، ونركض صوب الفرح والشمس والهواء والتفاصيل الصغيرة في أيامنا الملغومة، لتبدو هذه الحمى من الرغبة في إعادة اكتشاف الأشياء، فرصتنا الوحيدة لنعيد التقاط ما ضاع من أعمارنا المنكوبة والقابلة للانتهاء في أي لحظة.

هذه الكثافة في اشتهاء الحياة والحب، والموصولة بحبل سرّي مع الموت كانت تستعر كلما صغرت المسافة بيننا وبينه، وكان تضاؤل هذه المسافة يدفعني لأغبّ من كأس الحياة، كمن يراها لأول مرة. كنت أحاول إعادة اكتشاف السعادات القديمة: الحب، الموسيقا، الشعر، الروايات الجميلة، ورد الحديقة، الأطباق الشهية، لعب الورق مع جورجيت، الثرثرات الطويلة والممتعة مع منى ومروى، اللقاءات مع مجد، وتفاصيل المدينة القديمة، وجه أمي المجعد والحبيب، اللعب مع جوي كابن متخيّل، ومتعي السرية في تعذيب صلاح واكتشاف جسدي بين يديه.

أيّ جنون وحمق يحيقان بالكائن، وهو يراقب أصابع الموت العابثة تعزف سيمفونية الوداع؟ وأي صراخ تطلقه الرغبات الخرساء والمطمورة في عتمة الأيام المهددة بالاغتيال؟ لم يكن الرصاص على مرمى مسافات قريبة من بيتي، ولم تكن الدبابات تطوق الحي الذي أقطن، إلا أن رائحة الدم والبارود والأجساد المتفسخة، كانت تفلت من هوائها السجين، وتطوق أنفاسي بالبكاء، وبرغبة ملحة ومستعرة للصراخ.

شيزوفرينيا مراقبة الأحياء، وهم يموتون دون مشاركتهم الموت، كانت تولد في داخلي رغبة شديدة بالانتقام لهم، بالتمرد على حياتي الآمنة والمترفة والتافهـــة، بمشاركتهم قدرهم المثقوب بالرصاص، إلا أن شعوراً غريباً ومفاجئاً يشبه اللذة كان يتسلل إليّ، لأنني كنت على قيد الحياة وسط كل هذا الموت.

كيف يمكن أن يكون الكائن البشري شريراً لهذا الحد؟ أن يفــرح لإمكانيـــة عيشه بين المقابر والأشلاء؟ أيُّ غريزة بالبقاء تدفعنا كي نـــصمت ونختبـــئ فـــي جحورنا المسورة بالعار.

كم هم حمقى البشر، عندما يهربون من الموت في مقابر جماعية، معتقـــدين أنه بإمكانهم انتقاء موت مريح في سرير هادئ؟

لا أنكر أنه من المطمئن أكثر أن نموت هرمين وسعداء أمام وجـــوه أبنائنـــا وأحفادنا، ونحن نرتدي قمصان نوم وردية، ومنديلاً أبيض، ونضع شرائط ملونـــة على الرأس، إلا أنه لا أحد فينا يضمن ذلك...

هذا المشهد المليء بالتناقضات جعلني أتمسك بالحياة وأحبها أكثـــر. أمرنـــا غريب حقاً نحن البشر، لا نشعر بقيمة الأشياء إلا بعد أن نفقدها أو نـــشعر بقـــرب فقدانها. كنت أشعر أننا قريبون جداً من فقدان السعادات الصغيرة التي كنا نحياها، فبتّ أتمسك بها أكثر، وعدت إلى صلاح أكثر شغفاً ورغبة، رغم امتعاضـــي مـــن موقفه المؤيد للنظام.

كان على اطلاع على صفقات الفساد وغسيل الأموال التي كانت تـــتم فـــي سوريا، ويدرك جيداً أن الإصلاح الذي يتحدث عنه النظام محض هراء. هو نفـــسه تعرض لخسارات مالية كبيرة بسبب مسؤولين فاسدين رفض شراكتهم، فعاقبوه، إلا أنه كان مصمماً على أن بشار شخص طيب ولا يجب التخلي عنه. آه يا صلاح، لِمَ كان عليك أن تكون بكل هذا الحمق وهذه السذاجة؟ ولِمَ كان عليك أن تدفعني إلـــى الرحيل دون كلمة وداع؟

لو انك كنت محايداً على الأقل، لكنت قبلتك قبلة أخيـــرة، وضـــممتك إلـــى صدري وداعبت شعرك، كما كنت أفعل دائماً وكما كنت تحب. لكنت شممت رائحة جلدك الشهواني والمشتعل فوق جلدي، كما كنت أفعل دائماً لأتأكد من أنك لم تخني مع زوجتك أو غيرها. اللعنة على الحواس، كم كرهتها وتمنيت لو أني قطعة صخر صماء لا تسمع صرخات الأمهات الثكالة، ولا ترى أشلاء الجثث المقطعة، ولا تشم رائحة الدماء، ولا أتذوق ملح الدموع، ولا أتلمس جلـــد الأطفـــال القتلـــى النـــاعم والبض، آه يا صلاح، لو أنني تحولت إلى حجر أو إلى شيطان، لكنـــت اســـتطعت مواصلة الصمت، والبقاء بين ذراعيك المهدهدتين لنقي وجنوني. في غرفة نـــومي الصغيرة تلك، ودون أن تشعر، منشغلاً كعادتك بالتهام شهوتنا بعد الشرب والحب، غبت تحت جسدك الثقيل، وبين ذراعيك، وخبأت وجهي مـــن عينيـــك المتقـــدتين كالموت، وبكيت طويلاً، بكيت كطفلة تائهة في العتمة، وخنقت صوتي كي لا تتمكن من سماعي أو رؤيتي. لو أنك رأيتني وقتها، لعلمت أن الموت أقوى مـــن الحـــب، وأن الجنس فوق بحر من الدماء يشبه الرقص على زجاج متكسِّر وحاد.



17

النساء في بلادي يعشن من أجل الرجل، يتعلمن طقــوس إغوائــه وخدمتــه وتأليهه منذ اللحظات الأولى التي تتكور فيها أثداؤهن الصغيرة، وتسارع الأمهــات إلى تلقينهن الدرس المتوارث عبر قائمة من النصائح: الظهر يجب أن يكون منتصباً أثناء المشي كي تعجب المشية الذكور، والشعر يجب أن يكــون طــويلاً وناعمــاً، والعيون منكسرة النظرة كي لا توحي بالوقاحة والجرأة، الخدود وردية كي تــوحي بالخجل، والصوت خفيضاً وليناً كي يوحي بالغنج والأنوثة، والبشرة ملساء خاليــة من أي ظهور للشعر كي يغوي الرجال.

وتبدأ النساء بعشق المرآة والمشط وعقيدة السكر، وادعاء الخجل كوســيلتهن السحرية لاستحضار ذَكَرْ. وتجيء بعدها قائمة المحظــورات المحرمــة: الــشرف موجود بين فخذيك، فحذار من فقدانه، فلا يتزوجك أحد، ويضيِّع مــستقبلك كلــه، حذار من ركوب الدراجة أو ركوب الخيل أو حمل أشياء ثقيلة أو الحديث مع ابــن الجيران، فقد تفقدين العذرية ولا يتزوجك أحد، لا تتأخري بالعودة فيتحــدث عنــك الجيران بالسوء ولا يتزوجك أحد.

وعند اقتراب موعد زواج الفتيات، تضاف لائحة فروض إضــافية: كــوني طبّاخة وزوجة أنيقة دائماً. كوني خادمة وزوجة مرحة دائماً، كوني مربية أطفــال وزوجة مغناج دائماً، كوني قوية الشخصية دون أن تكوني فاجرة، كوني أمام الناس قديسة ومعه في الفراش عاهرة.

هذه الدروس كانت تشوه شخصية المرأة الشرقية وتفرغها مــن مــضمونها الإنساني، وتحولها إلى أداة وغرض مصمم لمتعة الرجل الجنسية، ليصبح الوجــود دونه فارغاً من أي معنى. ومن هنا انطلقت فكرة الشفقة على المرأة العانس، فهــي امرأة بلا ذكر، وبلا معنى، وبلا حياة. ورغم أن نظرة المجتمع إلى المطلقة كانــت

أقسى، وتشوبها الشكوك والريبة والانتقاص، إلا أنها كانت تبدو أكثر ثقة بنفسها من العانس، فقد حازت على شرف الدخول إلى مخادع الأسرار الجنسية المحرمة على غير المتزوجات، وامتلكت فرصة ممارسة الدور التاريخي الوحيد المقدر والمرسوم لها في عالم لا يرى في المرأة سوى خادمة وفرّاخة أطفال وفرجاً.

ورغم أن الكثير من الأسر السورية كانت حريصة على تعليم بناتها ودفعهن إلى ميدان العمل والإبداع، مما فعّل حضور المرأة في معظم قطاعات الأعمال، إلا أن هذا لم يغير من حقيقة النظرة الأزلية والدونية للمرأة، فلو أن امرأة ما كانت في منصب وزيرة مثلاً، وبلا زوج، لاستحقت الشفقة، ولتحوّل أيّ سلوك غير متـزن تقوم به دلالة إلى اضطراب وسادتها الخالية من رجل.

كانت نساء الريف بعيدات عن طقوس الغواية، ولا يتعلمنها إلا بالفطرة. وتتركـز الدروس المعطاة لهن على الشرف، والعمل في الأرض والطاعة والخدمة. أمـا نـساء المدن، فكن بارعات في فنون اجتذاب الرجال، وبعض الأمهات كـن يـشترين لبنـاتهن "بدلات" رقص شرقي، كي يحملنها معهنّ إلى بيت العريس، ويرقصن لـه فـي الليـالي السعيدة والماجنة، وهذه عادة تراجعت في الفترة الأخيرة إلا أنها لم تنقرض.

كانت النساء تمارس السحر والشعوذة كي تجذب الأزواج أو تحافظ علـيهم. ورغم كل التقدم الاجتماعي الظاهر في بلادي، إلا أن بيوت المشعوذين المعروفين كانت ملأى بالنساء من مختلف الشرائح والذاهبات لجلب زوج أو منع زوج عـن الخيانة. وهذا ما رأيته بأم عيني حين رافقت مني الـصحفية المثقفـة فـي ذروة الاضطرابات الأمنية إلى بيت مشعوذة في غوطة دمشق، كي تجلب سحراً يـربط زوجها ويمنعه من خيانتها.

لم تكن النساء تعمل سحراً لإيجاد فرصة عمل، أو التفوق في الدراسـة، أو التحول إلى كاتبات مثلاً، بل كان الذكر هو محور طلاسم الساحرات وتعويـذاتهن على مدى قرون.

كانت العازبات مهووسات بإيجاد زوج، وكانت المتزوجات مهووسات بفكرة الحفاظ على هذا الامتياز. لم أكن أسمع لدى الطائفة العلوية أو الأقليات الأخرى عن طقوس الشعوذة التي رأيتها بكثرة في المدن، إلا أني كنت أسمع عن حسابات فلكية يجريها بعض المشايخ العلويين عن اسم الشخص واسم والدته وتاريخ ميلاده لكشف مستقبله، وعن تنبؤات الإمام علي بن أبي طالب في كتاب الجفر الذي حدثتكم عنه سابقاً، عما سيحمله المستقبل حتى يوم فناء البشرية. وأذكر جيداً أنني في سنوات دراستي الأولى في الجامعة سمعت أحدهم يقول إن حكم العلويين للسلطة في سوريا سيستمر لأربعين عاماً. وقد تذكرت هذه المقولة كثيراً أثناء الثورة، إلا أنني اعتقدت أنها من نسج خيالي.

عملت معنا في الإذاعة خبيرة فلكية من الطائفة العلوية، وكانت تؤكد أن بشار الأسد لن يسقط، وكان أبرز الضباط العلويين يتصلون بها لسؤالها عن تنبؤاتها حول مصير البلد، وأبرز نساء المجتمع يتصلن بها لفضح خيانات أزواجهن الضباط.

هذه السيدة تحدثت أنها رأت ابنها الذي كان متعمقاً في الدين مرتفعاً عن الأرض مقدار متر ومعلقاً في الهواء، وانه أخبرها أنه سيموت قبل أيام من تعرضه لحادثة سير أودت بحياته، وكشفت عن والدته الحجاب، فأصبحت ترى أشياء لا يراها بقية البشر. وللأمانة كانت سيدة طيبة، وتتمتع بقدر عالٍ من الأخلاق والدماثة والجنون.

مجتمع نائم في الخرافة، هكذا هو حال المجتمع الشرقي، رغم كل محاولات التنوير. ولا أخفيكم أن اتصالات ورسائل المستمعين المؤيدين أو الحياديين كانت مستمرة بالوصول إلى برنامج هذه السيدة طيلة أيام الثورة، أما المعارضون في المناطق الثائرة، فكانوا مشغولين بنوع آخر من سحر أسود هو الموت.

*****

كنت أنا نتاج هذه البيئة المتناقضة، وزاد في تناقضي طبيعة والدتي المثقفة، المنفتحة والمختلفة، والتي كانت هي وبعض الآباء المتنورين نشازاً عن بقية الركب، ويسمّونهم النخبة المثقفة. لم تطلب مني والدتي يوماً ألا أحني ظهري كي أحافظ على مشية أنيقة ومغرية، ولا أن أُطيل شعري، ولا أن أخفض صوتي وعيني، ولا أن أحذر الصبيان لأنهم وحوش. على العكس تماماً، تكور ثدياي دون أن تلحظ ذلك، وأذكر أني بقيت لأسابيع ألف حولهما منديلاً أخفيه تحت ملابسي كي أخفي بروزهما المفاجئ، إلى أن انتبهت هي إلى ضرورة ارتدائي لحمالة صدر فاشترتها لي. وما زلت حتى الآن أحمّل مناديل الصدر اللعين ذاك مسؤولية الترهل في ثديي.

كانت أمي تقصُّ لي شعري كالصبيان، وتشجعني على الاختلاط بالفتية، قائلة إنهم كائنات مثلنا، ولا يأكلون البنات، وتنام وتصحو مرددة على مسامعي أن الشهادة الجامعية هي السلاح الوحيد الذي يحمي المرأة، ثم تختم محاضرتها معيدة بمناسبة وبدون مناسبة: اقرئي، اقرئي..

ما يزال مشهد الكتاب في يد والدتي، وهي مستلقية لساعات طويلة على الأريكة بجوار المكتبة الصغيرة في بيتنا، حاضراً في ذاكرتي. كانت امرأة مختلفة حقاً عن معظم النساء، وهذا ما أصابني بلعنةٍ، سأمضي حياتي وأنا أحاول التخلص من طلاسمها، وأفكر: لو أن أمي كانت تقليدية، سخيفة، ومدجنة، لكنت استطعت العيش بهناءة وراحة بال وانسجام مع المحيط، إلا أن الأقدار لا تسألنا قبل أن تنتقي لنا آباءنا.

لم يكن حديث الطائفية والطوائف يذكر في بيتنا. وفي عمر الثالثة عشرة سمعت بكلمة "علوية" لأول مرة. كنت ألعب في باحة المدرسة، أثناء الفرصة، اقتربت مني فتاة قادمة من قرية مجاورة للدراسة في مصياف، وأمسكتني من يدي وأخذتني بعيداً عن عيون الأخريات ثم همست في أذني:

- علا أنت علوية.

في المساء وأمام التلفاز قلت لأمي:

- أمي أنا علوية.

فالتمعت عينا أمي بغضب مفاجئ، وصفعتني على وجهي الصغير والسمين صفعة لن أنساها ما حييت. وما زلت أشعر بتأنيب الضمير والخوف من أمي كلما استخدمت التوصيفات الطائفية المقيتة مرغمة لإنجاز هذا الكتاب أو توصيف الواقع بدقة. أمّا جدتي لأبي كانت تُعَيِّرُني دائماً بأنني نصف علوية، وكانت كلما غضبت مني تصرخ وتقول:

- لن تكوني يوماً ما حفيدة بارّة، فأنت فرخ الإسماعيليين أي نصف إسماعيلية.

أما سكان مصياف الأصليون، فلم يكونوا يتحدثون أبداً في الطائفية، بل كانوا يبدون منفتحين لاستيعاب جميع الطوائف. واستقبلت مصياف الكثير من الأسر العلوية والعديد من الأسر السنية والمسيحية، في جو من التعايش المثالي، دون أن يكون هناك أي معنى لهذه التسميات التي لم أسمع بها إلا من جدتي لأبي وشقيقاتها وبعض زميلاتي في المدينة الجامعية فيما بعد، ومن بعض أهل المدن أيضاً.

كانت جدتي تروي لي قصة بئر دفن فيه رجال دين علويون وهم أحياء بعد أن اعتقلهم إسماعيليون في مجزرة ارتكبت ضدهم على حد قولها. وسمي البئر "العنان"، لأن أصوات المدفونين فيه كانت تصدر على شكل عنين لم ينقطع لأيام. وتقول الأسطورة إنه ما يزال يعن حتى اليوم، وتسمع منه أصوات، إلا أنني لم ألمحه يوماً، ولم أسمع عنينه، ولم يذكره أهل مصياف أمامي يوماً. وأعتقد انه من القصص التي هولتها الذاكرة الشعبية إثر وقوع صدامات بين الطائفتين في عامي 1800 و1919.

*****

لطالما أحببت الأساطير، وعالم ما وراء الطبيعة الميتافيزيقيا، وكانت الديانة العلوية ببعض معتقداتها مسرحاً خصباً، وساحراً ومدهشاً لتلك العوالم. فهي تـؤمن بظاهرة التقمص، تناسخ الأرواح، التي يؤمن بها البوذيون والدروز. وأعرف الكثير من القصص التي تبدو لي اليوم رائعة بقدرتها على تجاوز حدود الواقع والمعقـول إلى فضاءات المتخيل.

كان رجال الدين العلويون يتحدثون عن أن الروح بعد الموت تنتقل إلى حياة أخرى، وفي لحظة فناء الجسد تتحرّر وتنطلق للبحث عن جسد جديد تستقر فيه، ولا بد أن يكون جسد مولود أقبل إلى الحياة حديثاً. أعمال البشر في الحياة السابقة تقرر سعادتهم في الثانية، فالمؤمنون والصالحون حياتهم مريحة، ويتقمصون في جـسد علوي حصراً. أما الأشرار فيعانون من صعوبات وأمراض في حيـاتهم الجديـدة تكون بمثابة عقوبة وتطهير مما فعلوه سابقاً. من تكثر خطاياهم يعاقبون بالطرد من الطائفة المقدسة، ويتقمصون في أجساد لها ديانات أخرى غير العلويـة. وكانـت جدتي تقول كلما رأينا شخصاً مصاباً بالبرص: أنه علوي ملعـون فـي الحيـوات السابقة.

كل هذا يجري دون أن تتذكر الروح منه شيئاً، إلا في حالات نادرة، تظهـر للعيان حين يقص المتقمص المتذكر حكاياته عن حياته السابقة، فيتمّ تتناقلهـا بـين الناس للتأكيد على مقدرة الخالق وأسرار الخلق، وكان بعض المتذكِّرون يقـودون أهاليهم الجدد إلى أماكن عيشهم السابقة كما يقال. جدتي نفسها كانت تعتقد أن روح أبي موجودة في جسد أحد أقربائنا، وكانت ترغمني على تقبيله مؤكّدة أنها وبعد أيام من وفاة أبي رأته في نومها، وأخبرها أنه سيسكن في جسد ابنة عمها الحامل، وما هي إلا أيام حتى أنجبت المرأة ذكراً، صارت جدتي تناديه أبي. عندما كبـر هـذا الصبي، كانت له ملامح غبية وسمجة لا يمكن برأيي أن تصلح لاستقبال روح أبي الذكية.

ذات مرة انتشرت حكاية في مصياف: كان هناك امرأة من سكان الريف اسمها خديجة، وكانت بصحبة زوجها وولديها حين هاجمتهم ضبعة متوحشة، وافترستهم جميعاً في طريق عودتهم إلى القرية في الليل الموحش للمناطق الجبلية الوعرة. افتقدهم أهل القرية لأيام، ولم يعلموا سبب اختفائهم، إلى أن وجد راعٍ أثار ملابسهم في المكان دون أن يجد أثراً للعائلة. بعد ثلاثين عاماً من حادثة الاختفاء جاءت سيدة غريبة إلى القرية وقصَّت على السكان حكاية الضبعة، وأخبرتهم أنها هي خديجة، ودلتهم إلى منزلها القديم دون مساعدة، وحدّثتهم عن مئات التفاصيل المتعلقة بخديجة وعائلتها.

أنا، كنت أجد في التقمص فكرة ساحرة، تنقذ الإنسان من بشاعات الكون، وتمنحه فرصة الحلم بعدالة إلهية مفقودة على الأرض، وفرصة عيش حيوات متعددة تتيح تحقيق الأحلام المؤجلة. ولا أخفيكم أنني حين أفكر بحياتي في جيل سابق، أعتقد أنني كنت سيدة فرنسية نبيلة من القرون الوسطى. والحقيقة أنني عندما كنت صغيرة، كنت ألفّ ستارة قماشية حول خصري، وأحولها إلى ما يشبه أثواب النساء الدارجة في تلك العصور. ولطالما تخيلت أني أرقص في بلاط ملكي فسيح. ورغم أنني لست مسيحية إلا أن صوت أجراس الكنائس يصيبني منذ طفولتي بنوع من الحنين الغامض لشيء أعرفه وأجهله. أما إذا كانت لدي فرصة الاختيار لحياتي في الجيل القادم، فآمل من اللّه أن يمنحني جسداً رشيقاً كي أكون راقصة.



18

توجّهت لزيارة ميساء وائل في صحنايا. وصحنايا ضاحية هادئة تسكنها أكثرية مسيحية ودرزية، وهي تشبه جرمانا في نسيجها الاجتماعي، إلا أنها أكثر بعداً وأناقة وأقل ازدحاماً. وقد بقيت بمعزل عن أي اضطرابات أمنية تماماً، ففيما ستشهد جرمانا فيما بعد تفجيرات سينسبها النظام إلى العصابات المسلحة الحاقدة على الأقليات، ستبقى صحنايا بعيدة عن أي تهديد، رغم أن التحصينات الأمنية المحيطة بها أقل بكثير من تلك المحيطة بجرمانا، ورغم أن ذريعة استهداف الأقليات متوفرة.

وصلت إلى الضاحية، وبدت الأسواق شبه فارغة، ثمّ دخلت الطريق الضيق المؤدي إلى بيت صديقَيَّ.

كان وائل شيوعياً وناشطاً سياسياً سابقاً. أكمل دراسته للعلوم السياسية خارج سوريا، ثم عاد إليها ليمنع من العمل نهائياً، ويحرم أي حق بالحصول على فرصة عمل مناسبة. هذا المنع أرغمه على العمل في مهن عدة، عمل دهاناً لعدة أشهر، ثم بائعاً للآلات الموسيقية في محل صغير استأجره هو وصديقه، وملأه بالآلات الموسيقية الشرقية، آلات عود وطبلات ودفوف للنقر، وأشياء أخرى. ولما فشل المشروع، افتتحا مكتبة لبيع الكتب السياسية والروايات العالية المستوى، وملأها بأجمل ما كتبه ماركيز وبورخيس وكونديرا وباتريك زوسكيند والطيّب تيزني وعبد الرحمن منيف ونوال السعداوي وأدونيس ومحمود درويش وغيرها من أهم المؤلفات، إلا أن طوفاناً تسبب به خزان المياه الصدئ والمهترئ في سقف جيرانهم المسافرين، بلَّل الجدران ورفوف الكتب كلها. وهكذا انتهت حكاية المكتبة، وخرجوا مدانين بآلاف الليرات التي دفعوها ثمناً لكتب لم تبع. ومرة اشتغل سائق تاكسي إلا انه لم يتمكن من المتابعة، لأنه كان يمتنع عن أخذ الأجرة من الفقراء والنساء

الحزينات والسياسيين الشيوعيين، والأصدقاء والأقرباء والجيران. فخسر التاكسي، وفصله صاحب العمل، ليمضي بعدها معظم وقته في البيت إلى أن بـدأت الثـورة وبدأ يخرج للتظاهر.

كان وائل من الطائفة الدرزية، وميساء كذلك، وقد تزوجا بعد قـصة حـب طويلة لم يمنعها الفقر والبطالة أن تتحول إلى زواج، مثلما منع الكثير من العـشاق السوريين الفقراء. وبقيت ميساء التي تحمل إجازة جامعية في الصحافة، مـصممة على الحفاظ على شعلة هذا الحب، رغم أنها كانت عاطلة عن العمل أيضاً. ولجت إلى بيتهم المؤجر وقفز كلبي قبلي. كانت ميساء تتضايق منه، إلا أنها كانت تخفـي ذلك إكراماً لي، وأنا كنت أعلم ذلك، إلا أنني كنت أتغاضى عنه إكراماً لـ"جوي". كان البرد الشديد في الخارج يثقل بظله على البيت المعتم والخالي من أي وسـيلة تدفئة باستثناء المدفأة الكهربائية المتوقفة بسبب انقطاع التيـار الكهربـائي. قبّلـت ميساء ووائل وجلست:

- أححح برد. كيف تحتملون ذلك.

ردّت ميساء النحيلة كهيكل عظمي ذابت معه كل ملامح أنوثتها.

- ما الحل؟ على كلٍّ، الكهرباء ستأتي بعد قليل، أنت تعلمين بدأت سـاعات التقنين.

كانت الكهرباء قد بدأت تنقطع في دمشق بسبب استهداف الثـوار لمحطـات توليد الطاقة وخطوط النقل حسب رواية النظام. وكان القطع يستمر لساعات طويلة في الضواحي، ولبضع ساعات في قلب العاصمة، ولساحة واحدة أو دقـائق فـي الأحياء الراقية. هذا القطع المستمر أرغم الناس على الاعتماد على المدافئ العاملة على المازوت أو الغاز اللذين سيفقدان من الأسواق أيضاً. لم يكن في بيـت وائـل مدفأة مازوت ولا غاز، فاضطررنا للجلوس كمشرَّدي الطرق فـي بـرد كـانون. حضّرت ميساء الغداء لنا، وكان عبارة عن حساء عدس وبطاطا مقلية وبعض قطع

الخبز المقمّرة، وبعض حبات الفجل الصغيرة والطازجة. تناولنا الطعام على ضوء الشموع، لأن بيتهم كان قبواً بلا شمس.

ابتلعت لقمتي ونظرت في عيني وائل، وقلت:

- إي وائل، شو الأخبار؟؟

فأجابني بأن الثورة مستمرة، وأن حملة الاعتقالات والعنف مستمرة أيضاً دون توقف. وحدثني عن اعتقال مجموعة من الشبان العلمانيين المشاركين في مظاهرات دوما (منطقة في ريف دمشق)، والقادمين اليها من خارج البلدة، وكان بينهم علويون ومسيحيون ودروز يتوجهون في السرّ مدّعين الصلاة في الجوامع ثم الخروج منها برفقة المصلين، لأن الجوامع هي المكان الوحيد المتاح للتجمع في سوريا. وهذا ما دفع بالنظام إلى تكثيف تعزيزاته الأمنية أمام الجوامع التي تترك بعضها مفتوحة ولا سيما بعد صلاة الجمعة.

- هل كنت معهم؟

ابتسم وقال:

- كنت معهم، وتمكنت من الهرب.

ثم ضحك:

- أحد المتظاهرين المسيحيين كان بجانبي قبل أن يعتقله عناصر الأمن بتهمة الإرهاب والتطرف.

قلت له ببلاهة:

- أنت تمزح؟؟

فأجابني مؤكداً:

- لا، اسمه جورج وهو من حمص.

صمتّ ثم بلعت لقمة عالقة في حلقي:

- وهل ستعتقد أنهم سيتمكنون من الانتصار على النظام؟ النظام قوي ولديه دعم كبير من روسيا وايران والصين وحزب اللّه اللبناني؟؟

- النظام قوي، ولكنه ساقط لا محالة، الثورة لن تتوقف.

وشاركتنا ميساء الحديث، وأكدت كلامي:

- وائل متفائل دائماً، يا جماعة، النظام قوي ولن يتزحزح حتى لو دمر سوريا بأسرها.

سألت وائل إن كانت بقية المظاهرات في بقية الجوامع تضم متظاهرين علمانيين ومن كافة الطوائف، في إشارة مني إلى الاتهام الذي روّجه النظام عن تطرف المتظاهرين وطائفيتهم، فأكد لي أن عدد السنة هو الأكثر في المظاهرات إلا أنهم يرحبون بجميع المتظاهرين الآخرين.

دخل وائل إلى غرفته لأخذ قيلولة ما بعد الغداء وبقيت أنا وميساء وحدنا، فحدثتها عن علاقتي بصلاح وعن رغبتي بإنجاب طفل يرث ما أملك. وحدثتني هي عن المرض الذي لحق برحمها نتيجة طفولتها القاسية والفقيرة وكيف أنها مضطرة للخضوع لعمل جراحي لمعالجة رحمها إن كانت تريد أن تنجب طفلاً من حبيبها، إلاّ أنهم لا يملكون ليرة واحدة من أجور العملية.

خرجت من منزل وائل وأنا أفكر بمفارقات الحياة وعجائبيتها، فأنا كنت أملك ثلاثة بيوت ومحل تجاري وعملاً يدر دخلاً ممتازاً دون أن أملك زوجاً قادراً على الإنجاب، فيما كانت هي لا تملك المال لمعالجة رحمها. أليس من الغريب أن نملك كل شيء ولا نملك شيئاً في آن واحد. وتذكرت حكاية ذلك الصديق الثري ورجل الأعمال المعروف الذي باح لي بسر حرمانه من تذوق أي نوع حلوى أثناء طفولته بسبب فقر أهله ليكبر ويصبح من أغنى أغنياء دمشق، ويحرم من تناول الحلوى أيضاً بسبب إصابته بداء السكري.

*****

19

اتصل بي صلاح مجدداً. كان دمي يغلي بشهوة سوداء وقائية، ورغبة ملحة بالباء، إلا أنني تظاهرت بالصلابة ودعوته إلى العشاء، بيتي كان عالمي الخاص، وصممّته بطريقة تشبه تناقضاتي. تفتح الباب الخارجي وتدخل، فترى أمامك صالوناً فسيحاً هادئ الألوان، ومصمماً على الطريقة الكلاسيكية، الجدران لونها أبيض مائل إلى الصفرة قليلاً (بلان سال)، وتزينه لوحات فن تشكيلي من الطراز الحديث المخلوط بروح شرقية خفية وبألوان طبيعية غامقة وصاخبة كخريف مجنون، والفرش من الخشب والجلد البني المحروق والمخمل السكري اللون، تزينه وسائد قرميدية اللون تنسجم بشكل ظاهر مع روح اللوحات، ومن السقف تتدلى ثريا مصنوعة من الجلد والخشب ومن لمبات صغيرة معلقة على شكل شموع مقلوبة وغير متناسقة. في صدر الصالون يتربّع باب زجاجي كبير يطلّ على خضرة الحديقة والياسمينة الصفراء وشجرة المجنونة. على الحائط الممتد على يسار الباب ركن خاص فيه (شازلونة) شرقية، وفوقها تماماً لوحة شرقية فارسية، تضم مشهداً لامرأتين بملابس شرقية قديمة، واحدة شعرها أسود غزير، وتضجع على أريكة مترفة ويبدو أنها السيدة وأخرى واقفة وكأنها تحضر شيئاً ما. ويرافق المشهد حضور طائع لثلاثة رجال يقرؤون ويتحدثون كأنهم موجودون لتسلية السيدة القوية. على يمين الباب يطالعك على بعد امتار ركن أحمر الطلاء، ومستقل تماماً ومنعزل، وفيه فرش من الجلد الأسود والقماش الأسود المزين بورود وخطوط حمراء قانية. وفي زاويته (شومينيه) ناره متوهجة وحمراء، وجمره متقد إلا أنه لا يمنح الدفء، لأن ناره زائفة..

طرق صلاح على الباب، ففتحت له بثوب الدانتيلا الأحمر الضيق والطويل، والمكشوف الصدر، وبدأنا بطقس الشموع والويسكي والغناء وأشياء أخرى تشبه الموت، إلا أنها ممتعة ومؤقتة.

* * * * *

كانت عيادة طبيب التجميل الذي أتعامل معه تقع في وسط العاصمة دمشق في منطقة تعرف بالمزرعة قريبة من السبع بحرات. وللوصول إليها من منزلي في جرمانا، كان علي أن أتوجه إلى باب توما كي أعبر بعدها سوق القصاع الطويل والزاخر بالحركة والمحلات التجارية الفخمة والمارة ووجوه المسيحيين الطيبة من أبناء المنطقة، ثم أتوجه إلى ساحة التحرير ثم شارع بغداد، لأصل إلى السبع بحرات وألتف عبر طريق جانبي، لأصل إلى ساحة المزرعة. وهناك أترك سيارتي مع رجل استقبال يقف عادة أمام باب أحد المطاعم، وأوصيه أن يراقب كلبي السعيد بالنزهة، والمجبر على انتظاري ريثما أعود. كنت أترك النافذة مفتوحة بشكل جزئي كي لا يختنق "جوي"، ثم أمشي مسافة أربعين متراً تقريباً لأصل إلى العيادة. أنزل الدرج الحجري، وأدلف إلى غرفة الانتظار المكتظة، أحيي الممرضة الجالسة وأتامل الوجوه. الممرضة اسمها فاطمة، وهي شابة دمشقية نصرة، منفتحة، لطيفة، ومحجبة، ومتذمرة من الاضطرابات الأمنية والثورة. أما زائرات العيادة، فكن من الطبقة الغنية عموماً، نساء في مختلف الأعمار بعضهن محجبات. يومها رأيت ثلاث نساء، اثنتان محجبتان وواحدة سافرة، وكان واضحاً من الحديث أنهما أم وابنتاها، بدت على وجوههن آثار الراحة والبريق الذي يولده الغنى، وفي أصابعهن التمعت نصال حجارة ماسية، كانت وجوههن ودودة ولكنتهن حمصية، سألتهن:

- أنتن من حمص؟

فأجبن:

- نعم.

ثم ابتسمت الأم لي وقالت:

- جئنا إلى دمشق بعد بدء المشاكل في حمص، لم يعد العيش ممكناً.

ابتسمت بحزنٍ وسألتها:

- ما الذي يجري في حمص؟ هل حقاً أنها طائفية؟

ارتبكت وأجابتني:

- أولاد الحرام هم من يشعلون الفتنة، صدقيني نحن كنا نعيش مع العلـويين منذ سنين، ولم نكن نشعر بأي فرق بيننا وبينهم.

وصمتت ثم تابعت:

- اللّه يلعن من كان السبب في ذلك.

طبعاً في سوريا لم يكن ممكناً أن يجرؤ أحدنا ويسأل غرباء في عيادة طبيب وعلى الملأ: من هو السبب؟ لذلك صمتنا جميعاً.

تابعت ابنتها نيابة عنها:

- خربوا حمص، ولم تعد صالحة للعيش.

وتابعت وسألتني:

- أتيت لتضعي بوتوكس.

- لا، وأنتِ؟

قفزت الأم وأجابت عنها كعادة الأمهات في بلادي:

- تريد أن تعمل عملية تجميل لأنفها، وأنا أريد أن أضع بوتوكس.

نظرت إلى أنف الفتاة، فوجدته معتدل الحجم، ولا يحتاج إلى جراحـة، ثـم تأملت وجه الأم المحجبة والطيبة والتي تبدو في الستين مـن عمرهـا، وصـمتّ، وغرقت في التفكير بهذا الهوس لدينا نحن النساء بالجمال، فهؤلاء النـساء الـثلاث قادمات من بركان الموت، ومدينتهن تحترق، ولديهن أقرباء تحت الخطر، والأحوال الاقتصادية متردية في البلاد، وهناك عائلات جائعة ومهجّرة من بيوتها التي هدمت أو حوصرت، إلا أنهنّ يزرن طبيب التجميل، وأنا أفعل مثلهنّ بفارق وحيد هو أن الموت لم يطل مدينتي، لو كان طالها هل كنت سأفعل نفس الشيء؟ لا أعلم.

دخلت السيدات إلى غرفة الطبيب، ثم خرجن سـعيدات ومتفـائلات، كمـا خرجتُ، أنا بعد أن حقن الدكتور الفيتامينات المنشطة للكولاجين في وجهي. كـان الطبيب الشاب فراس من أميز أطباء الجراحة التجميلية في سوريا، وكانت تجمعـه علاقة ود مع الرئيس بشار أثناء دراستهما معاً، وكان يمتدحه دائماً، ويـرى أنـه شخص حضاري وطيب ومنفتح، كما كنـا نعتقـده جميعـاً قبـل أن يفـشل فـي الإصلاحات كلياً، ويلوث يديه بدماء شعبه.

*****

عندما توفي حافظ الأسد عام 2000، كنت أعمل محررة في أخبار الإذاعة، وكان معظم زملائي المقربين في العمل من علويي الساحل، كنت في البيت يومهـا حين سمعت النبأ. كانت أصوات صراخ فزع تخرج من البيوت المحيطة والسيارات العابرة والمرتبكة، وسماعات الهواتف الأرضـية، والجـدران الكتيمـة، والأرض والماء والهواء. أحاق بالمدينة شبح زلزال عظيم ومدمر، وتحوّل الزمن إلى هـوة سحيقة سوداء هاربة إلى العدم، تسمرت العيون، وعلا صوت صمتٍ قاس ومخيف وصادم.

هرعت إلى الإذاعة، وكانت كمقبرة ملأى بأشباح الموظفين. تجمعنا في البهو الخارجي للبناء القديم، ثم تدافعنا إلى الشوارع المكتظة بالحشود الذاهلة، علويـون وسنة ومسيحيون ودروز، رجال ونساء، سافرات ومحجبـات، شـباب وكهـول، متعلمون وجهلة، أغنياء وفقراء. وكان رجال الأمن يملأون الأمكنة وهواء المدينة، وينتشرون كالذباب. واصلت سيري مع القطعان البشرية، إلـى سـاحة الروضـة القريبة من القصر الجمهوري، وعجّت الأرصفة بأقدام عناصر الحرس المطـوقين للحشود، هتفت الحشود: بالروح بالدم نفديك يا بشار، وهتفت مثلهم. بكت الحـشود

وبكيت مثلهم، كنا نهتف ونبكي، ونهتف ونبكي، كما كنت أفعل أنا وجدتي في مقام جدي الشيخ المقدس.

كان الذعر يملأ عيون كل السوريين، إلا أن عيون العلويين كانت الأكثر ذعراً، وبدا أن أيديهم المرفوعة إلى السماء كانت تستعيد ذكريات بعيدة وخوفاً قديماً وأزلياً من مذبحة جديدة، تعيدهم إلى جحورهم المعتمة ملاحقين ومطرودين ومنفيين كحيوانات ضارية إلى أعالي الجبل البعيدة، وعلى ملابسهم دماء قتلاهم التي لم تجف ولم يجف خوفهم بعدها، يومها لم يفكر السوريون من الطوائف الأخرى بطائفة بشار، ولم يفكروا بانتخابات ديمقراطية، كنا نريد فقط ردم الهوة العميقة التي سقطنا بها جميعاً بعد سقوطنا عن حافة التوازن الوهمي الذي كنا نعيشه على مدى ثلاثين عاماً من القمع الأمني والاعتياد على العبودية، دون أن ندرك أننا كنا نتأهب للسقوط في هوة أكثر عمقاً.

حاسبت الممرضة، ودفعت مبلغاً يكفي لإطعام عائلة شهراً من الزمن، ثم مشيت إلى سيارتي، ودسست مبلغ مئة ليرة سورية في يد الرجل الواقف كتمثال سعيد على باب المطعم قبل أن اصعد في سيارتي، وأغازل كلبي اللاهث لرؤيتي كعاشق ولهان، وأدرت المحرك والأغاني الهابطة ومضيت.



20

صديقتي ساندي التي تعرفت إليها في المسبح في الأشهر الأولى لثورة، عندما كنت أتحدى الخوف والحزن بالسباحة والشمس، فتاة سمراء، ممشوقة القوام، كفرس عربية أصيلة، ولها عينان تغيبان عندما تبتسم قبل أن تطلق فراشات ضحكتها الصافية والعالية، تزوجت من شاب غني ومقيم في أمريكا عندما كانت في العشرين من عمرها، بناءً على رغبتها الشخصية بالسفر والثروة والهروب من جو عائلتها الفقيرة. تركت دراستها وسافرت إلى أحضان العريس المرتقب، لتفاجأ في ليلة عرسها بأنه مفصوم نفسياً ومدمن مخدرات، وعاجز جنسياً. كانت ساندي قد استعدت للقائه في المطار بملابس العروس البيضاء التي اختاراها معاً عندما سافر هو إلى دمشق لخطبتها، وإجراء مراسم الزواج في الكنيسة، وهو شرط ضروري للسماح بعلاقة جنسية معلنة في الأوساط المسيحية الشرقية. وصلت إلى المطار وهي جميلة وسعيدة وحالمة وعذراء، واستقبلها هو ووالدته التي تقيم معه. وفي المساء وبعد أن احتسيا الشراب، ورقصا على ضوء الشموع وصوت الموسيقا الخافتة، امتدت أصابعه وعرتها من ملابسها قطعة قطعة، وكشجرة تشلح الأوراق الذابلة، بدت ساندي أجمل، وتورد خداها على أثر الشراب والضوء الخافت، والخجل والرغبة، وفيما كانت تنتظر قبلته بلهفة، اختفى هو للحظات وعاد يحمل حزاماً جلدياً.

- لم أفهم لماذا كان يحمل الحزام، اعتقدت أنه يصلحه أو يلعب به ليتسلى.

قالت لي في إحدى جلساتنا المسائية في بيتي، وتابعت:

- صعقت تماماً حين بدأ بضربي، وأغمي عليّ.

حمل الرجل العاري الحزام وبدأ يجلد الفتاة به، وهي من هول الصدمة سقطت على الأرض، قبل أن تتمكن من الصراخ، فحملها كمن يحمل جثة هامدة

ومددها على السرير محاولاً مضاجعتها... صديقتي التي أفاقت على ثقل جسده فوق جسدها، استسلمت لذراعيه القويتين والمحكمتين بقوة على ذراعيها، لم تفعل شـيئاً ولم تقاوم، إلا أنها اكتفت بالبكاء بعد أن خرج وتركها وحيدة في الغرفـة دون أن يتمكن من ممارسة الجنس معها.

في اليوم التالي حاول الرجل إعادة الكرة، إلا أنه فـشل مجـدداً، فـضربها كالمجنون ودفعها إلى الجدار، استغاثت هذه المرة بوالدته المستلقية أمـام التلفـاز كمومس، إلا أنها لم تلق رداً أو مساعدة. وهكذا قررت ساندي العودة، وهربت من المنزل مع جواز سفرها، وتوجهت إلى السفارة السورية، وفعلاً تمكنت من العـودة بعد أن تأكدت أن الرجل مريض ومجنون.

عادت ساندي كما غادرت عذراء، وجميلة لكن مكسورة، وبدأت بمعـاملات الطلاق رغم معارضة أهلها، لأن الطلاق في الأوساط المسيحية كان بمثابة عـار وشبه مستحيل، إلا أنها صممت على موقفها، وتمكنت من الطلاق بعد الكثير مـن المعاملات والترجي والرشوة المقدمة إلى الكنيسة، لتفك أسرها من رجل تسبب لها بعاهة شبه دائمة في الرؤية في عينها اليمنى بعد الضربات العنيفة التي تلقتها.

ساندي العذراء المطلقة، لم تتزوج بعدها لأن أحداً من الشبان المسيحيين لـم يتقدم لخطبتها، فهي مطلقة و(من تزوج من مطلقـة فهـو زانٍ، حـسب الـنص الانجيلي)، إلا أنها وبعد هذه الحادثة بسنوات، فضت بكارتها بنفسها، مدت اصابعها الحاقدة كما روت لي إلى وكر الأفعى، ومزقت غشاء الشرف الشرقي المقدس:

- لا أندم أبداً، قالت لي.

وتابعت بعد أن ضحكت بألم:

- مجتمع تافه وكاذب، يمارسون الجنس في السر، ويخونون رباط الزواج، نساءً ورجالاً، ثم يحكمون عليّ بالإعدام لأني طلّقت من زوج مجرم "تفوه على هذا الشرف".

* * * * *

كان شرف بعض النساء الشرقيات أهم لديهن من الحرية والكرامة، وكان الكثير من النساء يتردّدن في التظاهر خوفاً من الاعتقال والتعذيب، ومن العار الذي يلحق بهن وبأهلهن بعد الاعتقال، لأن اعتقال الناشطات السياسيات اقترن بفكرة الاغتصاب، منذ حملة الاعتقالات الواسعة التي طالت الشيوعيات في عهد حافظ الأسد، وكان الناس يتحدثون بين بعضهم البعض عن السجينات السياسيات بصوت خفيض يشبه الهمس، ويستخدم عند الحديث عن قضايا تمس الشرف والحياء العام، وتشبه العار.

صديقتي داليا التي بقيت سبع سنين في السجن، ولم يتزوجها أحد بعدها، لأنها شيوعية، ولأنها سجنت، أكدت لي أنها لم تغتصب، ثم تابعت:

- أنا لم أغتصب، أما الأخريات فلا أعلم.

في الحقيقة كانت النساء إذا ما تعرّضن للاغتصاب في السجون أو خارج السجون، يتكتمن حول الموضوع بسبب وصمة العار التي ستلحق بهن بعدها. ولم يكن ممكناً إجراء مسح دقيق لهذه الظاهرة بسبب حرص الأهالي على اخفائها. وكنت ألمح في عيون السجينات السابقات نظرة حزن مشوب بالعار والكذب عندما كن يؤكدن أنهن لم يغتصبن.

لم يكن المجتمع متساهلاً مع بكارة المرأة حتى عندما كانت تقدِّم حياتها وشرفها الافتراضي ثمناً للحرية، وأثناء الثورة ضد بشار، وثَّقت المنظمات الحقوقية أكثر من 1500 حالة معلنة لنساء من مختلف الأعمار اغتصبن بعد اعتقالهن في السجون والمعتقلات السورية. ومن بين تلك الحالات ما قرأت عنه في موقع "الجزيرة نت"، عن قصة نور ذات الثلاثين عاماً – وهو اسم مستعار – والتي روت:

"... بدأت قصتي قبل نهاية عام 2012 بأيام عندما مررت أمام حاجز للأمن في باب الدريب، حيث كان هناك طفل عمره لا يتجاوز الـ 13 عاماً يستنجد بي وبفتاة أخرى كانت تمر بالمكان لتخليصه من الأمن.

وأضافت: حاولنا تخليص الطفل من أيديهم، ونحن نقول لهم: حرام عليكم، عندها أمر أحد الموجودين العناصر باعتقالنا. ثم نقلونا إلى شقة في حمص كان هناك شبان يحرسونها، وكان بداخلها 15 فتاة معتقلات، تشرف عليهن امرأة وظيفتها أن تهيئ الفتيات لتقديمهن كهدايا لشخصيات لا نعرفها، ولكن غالبيتها من ضباط الأمن".

وتتابع: "حال الدخول للشقة تم تمزيق ملابسنا. وتعرضت للاغتصاب في الشقة لأول مرة، بعدها كنت أقاوم هذه المرأة، وأدعو الفتيات لعدم الانصياع لها، لتطلب المرأة نقلي لمكان آخر واخراجي من الشقة".

نقلوني بعدها إلى فرع أمن، علمت بعد مغادرتي أنه "فرع فلسطين" التابع للمخابرات العسكرية السورية. وهناك عشت أهوالاً لا يمكن وصفها "جميع النساء المعتقلات في الفرع كن بالملابس الداخلية فقط رغم البرد الذي كان أحد أعدائنا طوال فترة الاعتقال".

وتتابع: كان الضرب والتعذيب وخاصة الصعق بالكهرباء والاغتصاب لي ولجميع المعتقلات شيئاً اعتيادياً، حيث يتم ضربنا بإبر تجعل أجسادنا مثل النار، ثم بإبر في الركب تشل أي مقاومة من قبلنا قبل أن يبدأ الاغتصاب. تعرضت للاغتصاب مرات كثيرة، وفي بعض المرات كان الضباط يجبرن المجندين على اغتصاب البنات. وكنت أسمع بعض المجندين يرد على أمره بالاغتصاب:

- أنا عندي أخوات وبنات.

لكن الضابط كان يقول له:

- هذا أمر عسكري.

استخدم الضباط وعناصر الأمن معنا أساليب سادية أخجل من ذكرها، استخدموا الجرذان والقطط في عمليات التعذيب وحتى الاغتصاب.

وأردفت: كانوا يحضرون لنا خبزاً يابساً، وعندما كنا نقول للمجندين أنــه لا يمكن أكله، يقومون بالبول عليه وإجبارنا على أكله.

ولم تكن معاناة المعتقلات المغتصبات تنتهي عند الخروج من السجن، بل تبدأ قائمة طويلة من رفض الأهل والمجتمع بقبول فتيات مغتصبات، إلى حمل بعــض الضحايا والإشكالات الشرعية في الإجهاض، وصولاً إلى اســتمرار الحمــل ثــم الولادة. والمشاكل في تقبل الأم لطفلها، ثم بقائها مدى الحياة تحت وطأة هذا العــار الذي يعني نهاية لحياة المرأة في المجتمعات الشرقية. "نور" و"ساندي" و"داليا"، نساءٌ لهنّ قصص مختلفة: الأولى فضت بكارتها بأصابعها الراجفة، والثانية فضت لهــا بكارتها المخابرات السورية، والثالثة فضت بكارتها مــع حبيبهــا، إلا أن عقوبــة المجتمع كانت واحدة، لأنهن جميعهن لن يتزوجن بعدها، وسيعاملن كمومسات من قبل مجتمع، لم يتوقف يوماً عن تقليد المستبد الذي ثار ضده.

درجت في مجتمعنا عادة استخدام بعض الشتائم التي تتناول شــرف الأم أو الأخت لإهانة ذكر ما، عبر القول: "ابن أو أخو العاهرة"، وطبعاً لم يكن شــائعاً أن يعير أحد ذكراً بشرفه الشخصي فيقول مثلاً: "أنت عاهر"، لأن شرف الرجال كــان مرتبطاً تماماً بأخواتهم وأمهاتهم وبناتهم، وهذا الإسقاط اعتبر مبرراً يتيح جــرائم الشرف، لأن القانون راعى الثورة النفسية العارمة التي تصيب الذكر الشرقي إذا ما شك بفقدان نسائه لعذريتهن أو ممارستهن الجنس بطريقة غير شرعية.

كان من السهل جداً استفزاز أكثر الرجال حكمة عبر عبارة "أمك عاهرة" أو عبارات من هذا النوع. ولطالما اندلعت المعارك بين شبان عابثين تعمــد بعــضهم استفزاز الآخر بهذه العبارة، وكانت تصل أحياناً إلى الضرب والقتل، فمن الممكــن في المناطق ذات الطبيعة الصارمة أن تتسبب هكذا عبارة بالموت. أما في الأوساط ذات الطبيعة المنفتحة نسبياً، فكان ممكناً استخدام هذه العبارات للدعابــة والمــزاح والتحبب بين الأصدقاء، وهو أمر شائع في بعض الأوساط اللبنانية أيضاً.

وأذكر جيداً تلك الحادثة التي وقعت في بداية الثورة والتي كادت أن تتسبب بفتنة ومعركة ضارية بين الثوار في درعا وبين الدروز في محافظة السويداء المتاخمة لها تماماً، وهي فتنة خطّط لها النظام ببراعة قبل أن يفشلها وعي أبناء المنطقة ووعي رجال الدين: كنت في بيتي في ضاحية جرمانا المليئة بالدروز، حين اتصلت بي صديقتي الدرزية المعارضة لتخبرني عن ثورة جنون وغضب عارمة أصابت دروز سوريا بعد أن انتشر على الفيسبوك واليوتيوب شريط فيديو يظهر أحد أئمة الجوامع في مدينة درعا وهو يتحدث عن النساء الدرزيات ويصفهن بالعاهرات، لأنهن لا يضعن الحجاب. وطبعاً كانت هذه العبارة المدسوسة كفيلة لإشعال حرب طائفية بين أبناء الطائفتين، لولا الفتاوى التي أطلقها شيوخ الدين الدروز المعروفون باسم "شيوخ العقل"، ليهدؤوا روع الأهالي والذكور المطعونين في شرفهم وعقيدتهم، وبعد أن تبين بالبرهان القاطع أن الشيخ السلفي هو "شيخ مخابراتي" سابق، وأنه قام بتسليم بعض شباب درعا الثائرين إلى أجهزة المخابرات وذلك من خلال دفعهم إلى كمائن رجال الأمن بعد الاتفاق المسبق معهم.

كان هذا واحداً من أساليب النظام في إشعال الفتنة بين الطوائف، وفي إخافة الناس نم الثورة عبر منحها صفة السلفية والتشدد، كما حدث مثلاً في مدينة حمص حين بدأ بعض أئمة الجوامع بالنداء على الجهاد ليظهروا صورة الشباب الثائر وكأنهم سلفيون، وبذلك تكون الذريعة حاضرة لرجال الأمن، لكي يبطشوا بالمتظاهرين. وقد صدر بيان من أهالي حمص أنفسهم يوضح حقيقة أحد هؤلاء الشيوخ، دون أن ننكر ظهور بعض الشخصيات السلفيَة التي سعت إلى بث الفرقة والتي كانت غريبة عن نسيج المجتمع السوري ذي الطابع الإسلامي المعتدل.

وأذكر جيداً كيف تمكنت هذه الفتنة المقصودة في درعا من زعزعة ثقة الدروز في جرمانا بالثورة وإبعادهم عنها، إذا ما استثنينا منهم المثقفين والواعين لحيل النظام، كصديقتي تلك التي قالت لي يومها بعد أن التقينا في بيتها لمتابعة الحديث الذي لم نجرؤ على متابعته عبر الهاتف:

- مكشوفة، هذه ألاعيب مكشوفة، ولكن للأسف أن معظم أبناء طائفتي صدقوها، رغم أنهم تجاوزوها.

الدروز طائفة موحدة (تؤمن بالله الواحد)، ويشكلون نسبة 3 % في سوريا، وكتابهم المقدس اسمه الحكمة، ويقال إنه تفسير للقرآن، وغير متاح الاطلاع عليه إلا من قبل شيوخ الباطنية. ولم أره أبداً في بيوتهم رغم سكني بينهم طويلاً، ورغم علاقات الصداقة المتينة التي جمعتني ببعضهم. ويؤمن الدروز بما يسمى الخمس حدود وهي نجمة خماسية من خمسة ألوان. كل لون فيها يرمز إلى شيء محدد، الأخضر يرمز إلى العقل، والأحمر يرمز إلى القلب، والأصفر يرمز إلى الكلمة، والأزرق يرمز إلى السابق، والأبيض يرمز إلى اللاحق. لطالما فتنتني فكرة النجمة وفلسفتها العميقة، ولطالما أسرني نقشها المنتشر في فن العمارة الدرزي، حيث كانت تنتشر ألوانها المبهجة على أبواب المنازل وواجهات الأبنية الضخمة في جرمانا. كان أمراً ساحراً كيف أن البشر يستطيعون اختصار فلسفات وحضارات سنين في نجمة وألوان.

للدروز طبيعة اجتماعية خارجية منفتحة، فنساؤهم لا ترتدي الحجاب إلا بعد عمر محدد، عندما تقرر المرأة تعلم دينها، فتضع منديلاً أبيض جميلاً يغطي قسماً من شعرها التي اشتهرت النساء الدرزيات بجماله. ولا يصلّون الصلاة الإسلامية التقليدية، ولا يصومون في رمضان، مثلهم مثل العلويين في ذلك، وعرف لديهم ما سمي بالموقف وهو مكان العزاء التقليدي الخاص بهم. ومرة ذهبت مع صديقتي للعزاء بوالدها، فسمعتهم يرددون عبارات دعاء وتقرب من الأولياء الصالحين من رموز الطائفة. وكان الطقس مليئاً بالبكاء، وأسماء غريبة لم أسمع بها من قبل.

يتزوج الدروز في طقوس إسلامية، إلا أن الطلاق لديهم أمر غير شائع إلا في حالات نادرة، كما يمنعون تعدّد الزوجات الشائع في الإسلام. وترث المرأة لديهم كما يرث الذكر، عكس الطائفة العلوية التي تحرم المرأة من الإرث كاملاً بحجة أن أخيها الشاب أحق به، واعتبارات أخرى تؤكد دونية المرأة لديهم، ورغم

أني ورثت عن أبي كوني وحيدة وبلا أخ شاب، إلا أني ما زلت أحقد على هذه العادة.

ويسمح بين الدروز باختلاط النساء بالرجال منذ الطفولة وفق الأعراف الاجتماعية التي تمنع الزنى، إلا أنهم لا يتزوجون من خارج الطائفة، ويتعرض من يغامر بذلك للإقصاء والنفي والازدراء، بعد أن كانت النساء تتعرض للقتل في سنوات سابقة قبل أن يصدر شيوخ الطائفة فتوى تحرم ذلك. وكنا نسمع الكثير من الحالات التي قتل فيها الأهل ابنتهم لزواجها من خارج الطائفة.

أثناء إقامتي في المدينة الجامعية، ما بين الأعوام 1991 – 1994 انتشرت أخبار حادثة فظيعة، عن زميلة لنا أحبّت شاباً من الطائفة السنية، وتحدت العادات والتقاليد، وتزوجته رغماً عن أهلها. وبعد أيام من زواجها، اتصل بها أخوها وأكد لها أنهم صفحوا عنها ويريدون رؤيتها، صدّقت الفتاة المسكينة النبأ، وذهبت لزيارة أهلها في محافظة السويداء، وبعض أن وصلت إلى منزل العائلة، ذبحها الأب والأخ المتواطئ على قتلها، وعلى مرأى من الأم التي لم تستطع حماية طفلة قلبها من رصاص المجتمع والتقاليد والطائفة.

في لحظةٍ ذبحها كنعجة خائفة، محا أهلها العار الذي اقترفته بزواجها من غريب، وفتحوا في ذاكرتنا مساحاتٍ شاسعة لخوف وحزن عميقين كالموت ولا تمحى.



21

يومٌ جديد وشيزوفرينيا جديدة، ورأسي مثقل بضجيجه الـداخلي. أمـضيت النهار وأنا احاول طرد الدوار وحالة الاختناق التي رافقتني منـذ الـصباح دون جدوى، فاتصلت بصديقتي مروى، واقترحت عليها أن نخرج للسهر وتناول كأس، ولم يكن هذا ممكناً دون رفقة رجل.

كانت شائعاً أن تذهب النساء إلى المطاعم دون رجال، أمـا إلـى البـارات وأماكن السهر فكان أمراً منبوذاً. وكانت هناك فكرة شائعة بأن الفتيـات اللـواتي يذهبن وحدهن إلى هذه الأماكن هن فتيات سيئات السمعة والسلوك، وبقيـت رغـم ثوراتي ضد المجتمع أحياناً، أجبن من أن أفعل ذلك، كنا إذا ما رغبنا بالسهر أنـا وصديقاتي نضطر لاصطحاب أحد أصدقائنا الذكور. وفي إحدى المرات اصطحبنا معنا ابن صديقة لنا، فتى يافع في العشرين من عمره، فثمل بعد أول كـأس، وبـدأ يرقص بين الطاولات كطائر ثمل ومنتوف الريش، واضطررنا إلى إنهاء سـهرتنا وإعادته إلى حضن والدته ونحن نضحك، ونلعن هذه العادات التـي تمنعنـا مـن احتساء كأس شراب دون ذكر مرافق.

اتصلت بكمال، واقترحت عليه مرافقتنا، فرحب بالفكرة. كمال ضـابط فـي الأمن، يتبوأ قسماً حساساً. وكان متزوجاً من فتاة من عائلة الأسد قبل أن ينفـصلا نهائياً، وفي إحدى المرات النادرة التي تجرأ فيها على الكلام أخبرني أن طباع نساء عائلة الأسد صعبة جداً، وأنهن متسلطات وينظرن إلى الآخرين بفوقية، بمن فـيهم الزوج أو الحبيب.

كمال كان حذراً جداً في الحديث عن أي تفصيل يتعلق بهذه الزوجة السابقة، حتى بعد الويسكي الذي هو قادر في العادة على كسر صمت أعتى الرجال.

لم أفكر يوماً في التقرب أو الزواج من رجال هذه العائلة، لأني كنت أخشى جنونهم وسلطتهم والمشاكل التي يثيرونها دائماً في اللاذقية، مكان تواجدهم الكثيف. وأثناء السنوات الأولى لعملي كمذيعة تقرَّب مني أحدهم، فتهربت منه، وتذرعت بأنني مرتبطة.

كنا نسمي رجال عائلة الأسد المقيمين في القرداحة والمدن الكبرى "شبيحة". وهو لقب اشتهروا به منذ أيام حافظ، عندما كانوا يثيرون المشاكل ويعملون في تهريب السلاح والمخدرات، ويجبرون الفتيات على الخروج معهم، تماماً، كمافيات الأفلام الايطالية. ومن أشهرهم شيخ الجبل الذي عرف ببطشه وجنونه وطيبته وكرمه، وفواز الأسد، وهارون الأسد. التقيت هارون مرة وحيدة أثناء تغطيتي الاذاعية لحفلة غنائية، أقيمت بمناسبة تسلم بشار الأسد لولايته الرئاسية الثانية، عام 2007. ويومها عمّت الأفراح والحفلات كل المحافظات السورية، واستمر هذا الاحتفاء لمدة اسبوعين لم نتوقف فيهما عن نقل الفعاليات الشعبية والفنية المؤيدة.

كنت أنقل حفلة مقامة في ميريديان مدينة اللاذقية، في "الترّاس" المطل على البحر. كان الوقت مساءً حين تجمع معظم رجال ونساء عائلة الأسد في المكان، بالإضافة إلى ضباط وتجار كبار وزوجاتهم. توزعوا على طاولات محاطة بخدم أنيقي اللباس ومطيعين ككلاب الأغنياء. نساء عائلة الأسد، ارتدين أثواب مميزة وفاتنة، ومن الواضح أنها مصممة عند أمهر خياطي العرب، وزاد في ألقها الخواتم الماسيّة الكبيرة التي زينت أصابعهن المترفة. كن جميلات كأميرات اسبانيات بشعرهن البني الغامق، وأكتافهن السمراء اللامعة من تأثير السباحة والشمس والغنى. أمّا الرجال، فكانوا يرتدون بذلات السموكينغ الفخمة ويتبادلون الأحاديث ويحتسون الشمبانيا، ويمرّرون الصفقات التجارية.

بدأ المغنون النجوم المشاركون من سوريا ولبنان بترديد الأغاني الممجدة لبشار. يومها أجريت لقاءات مع الحضور، ولم أكن أعرف أنهم من عائلة الأسد إلى أن ذكروا أسماءهم على هواء الإذاعة مباشرة، وهو أمرٌ لم نكن نحبذه، لأن

عائلة الأسد أحيطت بقداسة وخصوصية تمنع ذكر أسماء أفرادها في الإعلام، حيث كانوا يتحكمون بكل شيء في البلد، ويسيئون إلى كل شيء في البلد، دون أن تذكر أسماؤهم علناً في المحافل الرسمية. كانت الأسماء الوحيدة التي ترددت رسمياً في الإعلام على مدى أربعين عاماً، حافظ وباسل قبل وفاته، حيث كانوا يرتّبون لاستلامه السلطة بعد أبيه، وبشار بعد وفاة أبيه، أما ماهر الأسد، فلم نكن نردد اسمه في الإعلام، رغم أنه كان الشخصية الفذة والمؤثِّرة في القرار أكثر من بشار، وعرف عن بطشه وقوة شخصيته وديكتاتوريته.

كان ذاك الحفل أشبه بحفلة بلاط ملكي، حيث العائلة المالكة تحتفي بتنصيب وريثها على العرش، وتمنح الهبات والصدقات والبركات لعموم الشعب البائس والفقير والمستسلم الذي كان متجمعاً في تلك اللحظة في الساحات العامة والشوارع لعقد الدبكات ومسيرات التأييد.

أنهيت التغطية، وتوجّهت إلى باب الخروج. على الباب صادفت نجماً غنائياً كنت أعرفه جيداً من خلال عدة لقاءات أجريتها معه في الإذاعة، تبادلنا التحية قبل أن ينضمّ إلينا رجل أسمر البشرة، محاط بكوكبة من المرافقة المافيوية، قدمني المغني للرجل الغامض والثمل:

- هذه علا عباس مذيعة في إذاعة صوت الشباب.

صافحني الرجل الذي عرفت فيما بعد أنه هارون الأسد، وابتسم متوجّهاً بالحديث إلى المغني:

- دعها تتصل بي لأرسل لها مسدس هدية.

لم أفهم لماذا رغب بإهدائي مسدس، إلا أني علمت فيما بعد أنه نوع من التكريم، فشبيحة الأسد عندما يرغبون بمكافأة أحدهم، يهدونه سلاحاً. لم أحاول الاتصال بهارون بعدها خوفاً من السمعة الشريرة التي رافقت هذه العائلة، رغم أني لمحت في عينيه في ذاك اللقاء اليتيم الطيبة نفسها، التي كنت أراها في وجوه

الضباط بعد الكأس الثالث من الويسكي، حين كنت أذهب إلى المطعم أنا وزوجي السري.

بعد يومين، غطيت حفلاً ثانياً: في ساحة الأمويين. نصب رجال رامي مخلوف خيمة كبيرة عُرفت باسمه، وامتلأت بحشود العاملين لديه في شركة سيرياتل، وكان رامي يتجوّل بينهم. بدأت الهتافات والأغاني المؤيدة لبشار، واشتدّ الحماس، فاعتلى رامي إحدى الطاولات، وبدا كقائد أوركسترا بتحميس فريق الببغاءات:

منحبك منحبك

نحنا أهلك، نحنا شعبك،

عالحلوة والمرة جنبك

منحبك منحبك يا كبير

يا رمز الوطن

منحبك يا كبير بحجم الوطن منحبك.

هنا في فرنسا لا يؤلف الشعراء والملحنون أغاني خاصة لمديح الرؤساء، أما في بلادي فكان الماء والهواء والشجر والشعر، والغناء والموسيقا والرقص والمقالات الصحفية، والثقافة والسينما موظفة لتأليه الخالق الوحيد والسيد الوحيد، والرئيس الوحيد للبلاد والعباد.

خارج الخيمة، بدت ساحة الأمويين كساحة كرنفال، الألعاب النارية تنطلق في السماء لترسم أشكالاً وألواناً رائعة وغريبة وجديدة لم نرها من قبل إلا في الأفلام وعلى شاشات الفضائيات. رجال رامي مخلوف يوزعون سندويشات الشاورما المليئة باللحم والغالية بالنسبة لطبقات الشعب الفقيرة، في طقس احتفائي مسروق من الممالك الفرنسية في العصور الوسطى، حين كان الملوك يقيمون الأفراح في مناسباتهم السعيدة، ويدعون عامة الشعب إلى موائد الطعام.

الساعة الآن حوالي الحادية عشرة مساء، توجهت أنا ومروى وكمال وصديق له ضابط في القصر الجمهوري، إلى المطعم الذي اعتدت الذهاب إليه أنا وصلاح. وصلنا، فطلبت الجلوس إلى مائدتي المعتادة، شربنا الويسكي، وتناولنا السمك المشوي، واستمعنا إلى الغناء. دعا صديق كمال مروى للرقص فوافقت، ورقصت أنا وكمال بعد أن أرغمه الويسكي والأغاني المؤيدة لبشار على خلع "برستيجه" وهيبته وخوفه من أن يراه أحد، وهو يرقص في هذه الظروف الأمنية الحساسة التي يمر بها الرئيس، وبدا كطفل صغير ووديع وخائف.

كان المتظاهرون في المناطق الثائرة يقتلون، وأنا كنت أرقص وأشعر بالدوار والرغبة وقليل من الذنب.

بعد هذه السهرة، لم أر كمال أبداً، لأن كل ضباط الأمن كانوا في حالة استنفار مطلق، ولم يكونوا يتمكنون حتى من زيارة عائلاتهم، اتصل بي مرتين بعدها، لم أرغب فيهما بالحديث معه، لأني كنت قد قررت الرحيل.



22

عدت بعد السهرة إلى البيت، ولم أتمكن من النوم، تذكرت صلاح، وشعرت بشوق عارم إليه. كان صلاح يقيم في حلب أربع أيام مع زوجته العلنية، ويقضي معي في دمشق ثلاثة أيام بحجة العمل، ولم أكن أسمح له بالاقامة معي بحجة أني لا أريد أن ينتبه الجيران الفضوليون لعلاقتنا، وأرغمه موقفي المتعنت على استئجار بيت يستخدمه للنوم.

في الحقيقة، لم أكن أستطيع النوم إلى جانب رجل، وفي المرات التي حاولت فيها تجربة ذلك مع صلاح، بقيت قلقة طوال الليل، ولم يغمض لي جفن، حتى بزوغ الفجر، فيما كان هو يشخر بعمق.

في تلك الليلة البيضاء، قرأت مقطعاً من رواية باولو كويلو "الرابح يبقى وحيداً"، وتصفحت الفيسبوك طويلاً، وقرأت الأنباء الجديدة عن الإضرابات في المناطق الثائرة، وعن مجازر جديدة في حماه وحمص وادلب ودرعا، وعن الاعتقالات وعمليات التعذيب الوحشية لرجال المخابرات بحق المعتقلين، ثم غفوت إلى جانب كلبي السعيد كطفل.



23

استيقظت وأنا أعاني من صداع حاد تسببه المشروب، والنوم المتقطع. أهملت "جوي" كأنني لا أراه، حضرت النسكافيه والحليب، واتصلت بوائل عبر الخليوي، فلم يرد، اتصلت بميساء، فردّت بصوت متهدج وضعيف وباكٍ:

- علا اعتقلوا وائل منذ البارحة مساءً.

- أين أنتِ؟

- في المنزل.

- أنا قادمة.

ارتديت ملابسي وخرجت كالمجنونة، ولم أصطحب معي "جوي". وصلت إلى منزل ميساء، فوجدتها بصحبة أختها، وكانت تبدو كمومياء خارجة من بين الأموات للتو:

- هل علمتم أين هو؟

- لا حتى الآن لم نعلم، إلا أن مجد يحاول أن يعرف.

مجد كان صديقاً مشتركاً بيننا، وتجمعه بوائل صداقة قديمة، تتجاوز في عمرها صداقتي بهما هما الاثنين. سألتها:

- ما التهمة؟

- التظاهر.

- وكيف اعتقلوه؟

- جاء أربعة رجال واعتقلوه من البيت دون أن يقولوا شيئاً، سألوه هل أنت وائل؟ فأجاب: نعم، فأخذوه ووضعوه في سيارة سوداء كبيرة.

بدت ميساء كأرملة فقدت زوجها، لأن الاعتقال في سوريا يُشبه الموت، فمصير المعتقلين مجهول، بالإضافة إلى التعذيب الجسدي والجنسي الذي يتعرضون له، فقدت مقدرتي على الكلام، وأنا أستمع إلى صوتها المبحوح، لم أتمكن من تخفيف قلقها، لأنني كنت أنا نفسي خائفة على مصير وائل. كانت تجلس ثم تنتفض، تقف، تمشي، وتعود بحركة عُصابية متوترة، تجلس مجدداً، وتقف وتمشي بعد لحظات.

لم يتوقف رنين الهاتف الأرضي أو الموبايل، كان أفراد عائلتها وعائلة وائل يتصلون للإطمئنان عليهما بعد أن شاع النبأ، وكانت في كل مرة تعيد نفس القصة وتبكي إلى أن اختفى صوتها، وصار أشبه بالفحيح. اصفرّ وجهها إلى درجة بدت فيها مصابة بداء الريقان، غارت عيناها حتى أصبحتا مغارتين غارقتين في وجهها، وشعرتُ أنها نقصت عشر كيلوغرامات في هذه الساعات القليلة. لم تأكل شيئاً، فقط كانت تدخن، وتدخن، وتدخن إلى أن بدت أصابعها النحيلة أشبه بمداخن البيوت في الشتاء. لم تنم ميساء يومها، واستمرت في البكاء والنشيج، إلى أن تحولت أوداج رقبتها إلى حبال غليظة، ولم تهدأ قليلاً إلى أن علمت أنه في فرع الأمن السياسي وأنه كان بخير مقارنة بغيره من المعتقلين السابقين.

كان خوف ميساء مبرراً، فمعظم المعتقلين كانوا قد تعرضوا لعمليات تعذيب وحشية، رأينا آثارها على أجساد المعتقلين الذين تمكنوا من الخروج أحياء عبر أشرطة فيديو، كان يتناقلها اليوتيوب والفيسبوك والفضائيات والناشطون بكثرة.

بعد حوالي أسبوعين خرج وائل، وأعتقد أن سرعة خروجه تعود إلى كونه درزي، كان النظام في البدايات يتجنب إثارة استياء الطائفتين الدرزية والمسيحية، ويتعامل مع ناشطيها بطريقة أفضل من غيرهم، متعمداً خلق النعرات الطائفية.

بكت ميساء كثيراً عند رؤيته، أما هو فكان هادئاً وشامخاً كجبلٍ، وبدا غير خائف ولا نادم. سألته عما حدث معه فأجابني:

- وضعوني في السيارة مع مجموعة من المعتقلين، وضربونا على ظهورنا، ضربني أحدهم بعقب بندقيته على ظهري فصرخت من الألم. المعتقل الآخر الذي كان إلى جانبي أكل ضربة على رأسه وسقط مغمياً عليه. بعدها، وضعوا عصبات على عيوننا ولم نعرف وجهتنا، عندما فكوا العصبات عن عيوننا وجدنا أنفسنا في ساحة واسعة مليئة بعناصر الأمن. ألقى بنا العناصر على الأرض، ورفسني أحدهم بقدمه على ظهري، وقال:

- قول اللّه سوريا بشار وبس.

لم أجب، فضربني ضربة أقوى وكرر:

- قول: اللّه سوريا بشار وبس.

أيضاً لم أجب، إلى أن ضربني ضربة كادت تكسر عظامي فقلت بصوت صاغر وضعيف:

- اللّه سوريا بشار وبس، فتركني بعدها وتوقف عن ضربي. أحد المعتقلين رفض أن يقول العبارة، فاستمروا في ضربه إلى نزل الدم من رأسه وأغمي عليه. ساقونا بعدها إلى غرفة كبيرة. كدّسونا فيها نحن وبقية المعتقلين، كنا حوالي ثلاثمئة ناشط في هذه الغرفة. كنا ننام على الواقف ونجلس القرفصاء أحياناً من شدة التعب، إلا أننا لم نكن نستطيع الجلوس دفعة واحدة لضيق المكان، فنتناوب على ذلك. كنا نتبول في علب بلاستيكية حصلنا عليها عن طريق أحد الجنود الطيبين، ونضطر لشرب الماء بها نفسها. في إحدى المرات بدأ المعتقلون بترديد شعارات مناوئة للنظام بصوت خفيض علت وتيرته شيئاً فشيئاً، فجاء عناصر الأمن للتحقق مما يجري. ابتسم وائل وتابع:

- أنا وبعض الشباب أقنعنا عناصر الأمن بأن الصوت قادم من التلفاز في غرفة الضابط المناوب فصدقوا، لأنهم ببساطة لم يتوقعوا أن يمتلك المعتقلين هذه الجرأة الأسطورية على تحدي النظام في داخل السجن ذاته.

توقف عن الحديث، وتأمل زوجته المنهارة شوقاً وخوفاً عليه، سألته:

- هل كان هناك متدينون؟

- معظمهم سنّة من دوما، ولم المح فيهم متطرفين، كان بينهم إمام جامع وكان لطيفاً جداً، كنا نحن حوالي عشر معتقلين من الطوائف الأخرى.

وائل أخبرنا أنه لم يتظاهر بعدها، مستسلماً لتوسلات ودموع زوجته المرعوبة من فقدانه. كان التظاهر في تلك الفترة محصوراً فقط في بعض ضواحي الريف الدمشقي والأحياء الدمشقية، التي تمكّن سكانها من تشكيل طوق بشري حولها لحماية المتظاهرين من قوات الأمن، مثل دوما والمعضمية والقابون وركن الدين وداريا وبرزة. وكان الوصول إلى تلك المناطق للتظاهر ضرباً من الجنون، بسبب الانتشار الكثيف للحواجز المدجّجة بالسلاح، وعناصر الجيش والأمن، التي كانت تفتش وتدقق في أسماء وهويات ووجوه وحقائب وسيارات وعيون وأنفاس المارة، وكان مرور معتقل سابق عبر تلك الحواجز ضرباً من الجنون.

أنا كنت لا أصدق وائل، وأعتقد أنه لم يتوقف يوماً عن التظاهر.

اليوم، عندما أتذكر وائل وعينيه القويتين والصاخبتين كشمس في يوم صيفي قائظ، أدرك تماماً أنهما كانا سبيلي كي أرى الحقيقة التي هربت منها كي لا أرحل، وكي لا اضطر إلى مفارقة بيتي وسرير كمال، وأصدقائي وأمي وقبلات كلبي وشجرتي الليمون الصغيرتين، وعالمي الصغير الذي نسجته قطعة قطعة، كما تحيك الأمهات أثواب الغائبين.

هربت من متابعة الأخبار وفيديوهات تعذيب المعتقلين المنشورة على صفحات الفيسبوك واليوتيوب، هربت من رؤية المظاهرات وجهاً لوجه، وحين عرض عليّ "مجد" مرافقته لرؤية المظاهرات من بعيد رفضت، لأني في أعماقي كنت خائفة من المواجهة، من رؤية الحقيقة عارية من أثوابها، ولو أنني فعلت لكنت تظاهرت وسجنت بالتأكيد.

هي مرة وحيدة تلك التي قررت فيها التظاهر ففشلت. كنت أرغب بالهتاف: الشعب يريد إسقاط النظام، والعودة بعدها إلى ذراعيّ صلاح كي أقول له إن الحب والثورة صنوان توأمان، وأني لا يمكن أن أحبه وأنا عبدة، كنت أرغب بالتظاهر دون أن أعتقل وأغتصب وتمتد أيادي الشبيحة إلى جسدي، كنت أريد الصراخ في وجه قتلة الأطفال، دون أن يقتلعوا لساني وصوتي وعذرية روحي. لكن ذلك مستحيلاً، فاخترت أن أبقى وأن أغمض عيني عن الحقيقة، دون أن أعلم أن قدراً قادماً أبيض وناصعاً وبريئاً كالأطفال سيرغمني على التمرّد، وسيُقضي على آلاف السنين من الخوف الجماعي. كنت امرأة من عالمين من وجهين وشخصيتين، خائفة وجبانة تريد أن تصمت لأنها اعتادت على الموت، وأخرى قوية وشجاعة وتريد أن تتمرّد لأنها تعشق الحياة. وبين هذين العالمين عشت قمة الجنون.

في تلك الليلة، وبعد عودتي من بيت وائل، لم أتمكن من النوم رغم تناولي حبّتي مهدئ، واجتاحتني صور المعتقلين وصرخات تعذيبهم في السجون، ولم أتمكن من منع نفسي من التلصص على الفيسبوك ومتابعة القصص التي حدثني عنها وائل والتي رأى هو بنفسه جزءاً منها. رأيت صوراً لأطفال تعرضوا للضرب والتعذيب والتجويع والاغتصاب من قبل قوات الأمن، وقرأت شهادات لمعتقلين تؤكد ذلك، ومما قرأته:

"قابلت "هيومن رايتس ووتش" عداً من المعتقلين البالغين وعناصر منشقة من قوات الأمن أكدوا وجود وتعذيب الأطفال في مراكز الاحتجاز في شتى أنحاء سوريا. "سامح" معتقل بالغ مفرج عنه، تمّ احتجازه في منشأة للأمن السياسي في اللاذقية، قال لـ"هيومن رايتس ووتش" إن الأطفال تعرضوا لمعاملة أسوأ من البالغين، بما في ذلك الانتهاكات الجنسية، لأنهم أطفال.

كنا نحو 70 إلى 75 شخصاً في زنزانة جماعية مساحتها 3×3 أمتار. كنا ننام وركبنا مضمومة إلى صدورنا. بعض الناس كسرت أيديهم وارجلهم أو تورمت رؤوسهم. كان هناك صبية في سن 15 و16 عاماً في الزنزانة معنا، ستة أو سبعة

منهم تمَّ خلع أظافرهم وتورمت وجوههم من الضرب. كانوا يعاملون الصبية معاملة أسوأ من البالغين. كان هناك تعذيب، لكن الاغتصاب أيضاً للصبية. كنا نراهم عندما يعيدهم الحرس إلى الزنزانة، مشهد مروع، لا يمكنك الحديث عنه. عاد صبي إلى الزنزانة وهو ينزف من الخلف. لم يكن قادراً على السير. كان شيئاً يفعلونه مع الصبية ببساطة. كنا نبكي على حالهم.

كيف لكائن بشري أن ينام بعد هذه القصص؟؟ في الحقيقة غفوت كدابّة!!

✯✯✯✯✯

الحب كالموت يأتي فجأة، وفي سوريا أصبحت القنابل أقرب بكثير من الحب. بدأ مسلسل التفجيرات في دمشق في 23 كانون الأول 2011 قبل عيد الميلاد بيومين، وكان هذا أول اضطراب حقيقي يزلزل سبات سكان المدينة الغارقين في النوم واللامبالاة.

كان يوم جمعة، قلقاً مضطرباً، ومشحوناً بالتوتر كعادته في مثل هذا اليوم، الذي أصبح يوماً رسمياً للتظاهر ضد الأسد، بعد أن اختاره الثوار منذ بدايات الثورة للتجمع في الجوامع أثناء الصلاة. وهو طقس يواظب عليه المسلمون والمعتدلون للدلالة الدينية والاجتماعية التي حملها عبر الزمن، وكنت أعرف سوريين يشربون الكحول في الأيام العادية، ولا يحجبون زوجاتهم، ولا يصلون، إلا أنهم يتوجهون إلى الجوامع يوم الجمعة، لأداء الصلاة في طقس أصبح اجتماعياً أكثر منه دينياً.

في سوريا كانت التجمعات ممنوعة منذ أيام حافظ الأسد حسب قانون الطوارئ الشهير، مما جعل الجوامع أيام الجمع المكان الوحيد المتاح أمام الثوار

للتجمع قبل الخروج في المظاهرات، وذلك قبل أن يحاصر النظام فيما بعد معظم الجوامع ويقصف بعضها.

كان المعارضون من العلمانيين والأقليات الدينية يندسون بين حشود المصلين ويدّعون الصلاة كي لا يلفتوا نظر عناصر الأمن المنتشرين بكثرة في الجوامع، ثم يخرجون مع حشود المصلين للتظاهر. أخبرني أحد المتظاهرين المسيحيين مرة، أنه ارتبك في الجامع أثناء أداء الصلاة، لأنه لم يكن يعرف كيف يصلي، ولولا انشغال عناصر الأمن بغيره من المصلين، لكان افتضح أمره، وأضحكني كثيراً عندما قال لي إنه ارتبك ارتباكاً شديداً واحمرّ وجهه وأذناه من الخوف، لولا أن أحد المصلين الواقفين إلى جانبه أنقذه وعلّمه ماذا يفعل، في ابتسامة تشير إلى أنه كان من الثوار أيضاً.

كان يوم الجمعة هو الأكثر قلقاً وعملاً بالنسبة لأجهزة الأمن والمخابرات التي كانت تغطي كل شوارع المدينة والساحات ونقاط التظاهر المحتملة أمام الجوامع والطرقات القادمة من ريف دمشق والأوتوسترادات القادمة من باقي المحافظات. وكانوا ينتشرون كالخفافيش بين البيوت وفي الأزقة وفي الأسواق، ويتلفتون حولهم كصيادين يترقبون ظهور الفريسة في أي لحظة. وعلى حواجز التفتيش المعلنة كانت أيادي عناصر الجيش على الزناد، وفي عيونهم خوف وحزن.

كنت أستعد لعملي في الإذاعة في فترة ما بعد الظهر، حين بثّت قناة الجزيرة نبأ انفجار وقع في دمشق. تابعت الفضائية السورية، وبدا الاضطراب والذعر واضحاً على وجوه المذيعين وضيوف البرامج، فوصول التفجيرات إلى دمشق سرق راحة وهدوء المتجاهلين لوجود أي اضطرابات أخرى في سوريا حتى تلك اللحظة. ولم يكن ممكناً بعدها الادعاء بأن الأمور بخير وأن سوريا بخير كما قال الأسد في خطابه الهزلي الأخير، مكرساً فيه فكرة المؤامرة ومقدرته على السيطرة عليها. بدا واضحاً يومها أن سوريا ليست بخير، وأن الموت أصبح قريباً من

المؤيدين والحياديين أيضاً، وهو أمر لم يكن بجديد على الثوار الذين كانوا يقتلون منذ أول الثورة.

تسمرت أمام التلفاز وراقبت بهلع وذهول الصور التي كانت تبثها القضائية السورية، أجساد متفحمة، ووجوه مشوهة ملامحها مختفية بالكامل، ولا يوجد فيها إلا حفر سوداء وغائرة لما كان عيوناً وأنوفاً وشفاه، رؤوس على شكل جماجم عظمية مشوية وسوداء، أشلاء مبعثرة هنا وهناك، قطع لحم بشري متفحم وساخن وكأنه خارج للتو من حفلة شواء مجنونة، أمعاء متطايرة، أقدام وأذرع مرمية هنا وهناك. وعلى مقاعد السيارات وباصات نقل الركاب بقع من دم مشوي، ودم مستمر في التبخر، وآثار لأجساد بشرية كانت قبل دقائق من الانفجار تمتلك أحلاماً وماضياً وعائلات وأطفال وأحبة وألبومات صور وذكريات وملابس معلقة على حبل غسيل معطر، وأسرة دافئة تؤمن لها السكينة بعد نهار مليء بالشقاء والعمل والأفراح والحب والخيبات. مشهد الرعب الحقيقي هذا لم يكن يحتاج إلى كومبارس وممثلين ومؤثرات بصرية وأكياس دماء مزيفة. كان حقيقياً إلى حدّ الكذب، وسيرافقنا طويلاً في سلسلة التفجيرات التي بدأت يومها ولم تتوقف.

لم نكن معتادين على التفجيرات، ولا على رؤية مشاهد من هذا النوع إلا عبر شاشات التلفزة التي كانت تنقل ما يجري في فلسطين العراق ولبنان سابقاً. وبدا الوضع مختلفاً حين اقترب الرعب إلى هذا الحد، فمراقبة الموت والجثث عبر الشاشات أمر مختلف كليّاً عن رائحة اللحم المحروق التي كانت تملأ الهواء قادمة من المناطق الثائرة وأماكن التفجيرات، هنا يصبح من الصعب جداً الحديث بحيادية، لأن الموت يصبح في متناول اليد.

أعلن الاعلام السوري أن التفجيرين حدثا ما بين التاسعة والحادية عشرة صباحاً بجانب مقرّين أمنيين ضخمين وشهيرين في حيّي كفرسوسة والجمارك القريبين من ساحة الأمويين، وأوديا بحياة أربعة وعشرين شخصاً، وجرح 150 معظمهم من المدنيين. وانشغل بالحديث عن المؤامرة على سوريا وعلى شخص

الرئيس دون أن تشرح أية تفاصيل عن كيفية وقوع الحادث أو عن هوية واضحة للمنفذين.

فيما بعد، اتّهم النظام جبهة أسماها "جبهة النصرة"، ووصفها بالتكفيرية، وأعلن أنها أصدرت بياناً يتبنى العملية دون أن يأتي بأي دليل على ذلك، سوى ورقة مطبوعة تعلن فيها الجبهة مسؤوليتها عن ذلك. وحمّل المعارضة مسؤولية الفوضى في سوريا. المعارضة بدورها اتّهمت النظام أنه هو من قام بالعملية، وأن جبهة النصرة هي تنظيم صنعته المخابرات السورية لينفذ عمليات محددة تتهم من خلالها المعارضة بالإرهاب والتطرف، وبأن الجثث المتفحمة هي جثث عناصر من الجيش ميتين أصلاً قتلهم النظام لمحاولتهم الانشقاق، ثم استخدمهم ككومبارس في مسلسل الرعب الحي، أما نحن الاعلاميين فكنا صامتين كأصنام ومستغربين تماماً كيف تمكنت سيارتان مفخختان من عبور كل هذه الحواجز الأمنية والوصول إلى هذين الحيين المدّججين أصلاً بترسانة عسكرية ودرع بشري هائل من قوى الأمن التي لا يمكن اختراقها.

وفي قائمة الاحتمالات المفتوحة بدا المواطن العادي غير حافل بالتأويلات بقدر اهتمامه أن يعود حياً إلى أسرته، بدل أن يعود معبأ في تابوت أو في كيس لحم مشوي.

سيستمر النظام في نسب التفجيرات التي ستحدث فيما بعد في مواقع ملأى بالتعزيزات الأمنية في دمشق إلى جبهة النصرة، وسيكون هناك احتمالان برأيي: الأول أنها مدبّرة من قبل النظام الذي اعتاد على فعل ذلك في أحداث الثمانينات ليتّهم المعارضة بأنها إرهابية، والثاني أن النظام مخترق أمنياً من قبل عناصره أنفسهم، كي تتمكن المعارضة أن تجتاز كل هذه الترسانة الأمنية والعسكرية. وستبدو الاحتمالات غير مهمة أمام الرعب الذي سيحيق بوجوه الناس الذين لن يخرجوا من بيوتهم في أيام كثيرة قادمة بعد أن يصبح مشهد الأشلاء المتناثرة والطازجة جزءاً من طقوسهم اليومية.

اضطررت يومها للخروج من المنزل والتوجه إلى الإذاعة، وسلكت طريق المحلَّق الجنوبي الذي إعتدت على استخدامه للوصول إلى كفرسوسة ثم الجمارك ثم ساحة الأمويين. وكان الطريق الفرعي المؤدي إلى كفرسوسة مغلقاً لمحاذاته لمبنى أمن الدولة حيث وقع التفجير، وكان رجال الأمن والجيش قد أغلقوا كل الطرقات المؤدية إلى مكان الحادث، وطوقوها كلياً عبر عشرات الحواجز، فاضطررت إلى سلوك طريق أطول إلا أنه لم يستغرق معي وقتاً طويلاً. لأن الشوارع كانت مقفرة تماماً، إلا من سيارات رجال الأمن المسرعة كالبرق أو السيارات الأمنية المتباطئة لمراقبة حركة المارة.

اعتادت شوارع دمشق أن تخلو من المارة والسيارات في فترات الصباح والظهيرة في أيام الجمع منذ بدء الثورة، ثم تبدأ الحركة بالسريان في أوصال المدينة عند الساعة الرابعة، وقت توجهي إلى الإذاعة، إلا أن الشوارع بقيت مقفرة في ذاك اليوم كما ستبقى عموماً في أيام الجمع وتحديداً في أيام الانفجارات التي بدأت في ذلك اليوم، ولن تتوقف لاحقاً.



24

لا أستطيع القول إن الأعوام التي قضيتها في الإذاعة والتلفزيون كانت خالية من اللحظات الجميلة، فمنذ عملي كمذيعة انفتحت أمامي رؤية سحرية، عالم كامل من المعرفة والتجدّد. تمكنت عبر عملي من اللقاء بأبرز الشخصيات الفنية والثقافية والأدبية السورية والعربية، ومع كبار المسؤولين من وزراء ومدراء عاميِّن، ومع كبار الكتاب السوريين، ومنهم الشاعر محمد الماغوط، الكاتب ممدوح عدوان، الشاعر سليمان العيسى، الأديبة كوليت خوري التي كانت صديقة والدتي أصلاً، الروائية نادية خوست، القاص خطيب بدلة، والروائية المصرية المعروفة بجرأتها نوال السعداوي. كما التقيت كبار النجوم من المغنين والممثلين العرب والسوريين مثل لطيفة التونسية، وديع الصافي، سعدون جابر، صباح فخري، ميادة الحناوي، عاصي الحلاني، فارس كرم، نجوى كرم، كاظم الساهر، الهام شاهين، ميرفت أمين، صلاح السعدني وغيرهم كثر.

وفي برنامجي الاقتصادي "ملفات" الذي كنت أقدمه قبل الثورة بسنتين، ثم غيّرت طبيعته من الحوار مع المسؤولين في قضايا اقتصادية محدّدة، وطرح ملف اقتصادي واحد، إلى قراءة في الصحافة الاقتصادية. أجريت حوارات مختلفة حول الفقر والبطالة وغلاء الأسعار وكلها كانت مواضيع حساسة، إلا أن مناقشتها كانت تتم بطريقة تافهة لا تضع اليد على الحقيقة وجوهر المشكلة.

أعترف أننا في سورية كصحفيين عشنا مرحلة من البهجة والحلم عند تولي بشار الأسد الرئاسة، وطرحه جملة من الملفات الإصلاحية في خطابه الأول، وعلى رأسها الإعلام. وعاش المثقفون السوريون يومها ما عرف بربيع دمشق، وعشناه معهم نحن كصحفيين حالمين بأن تتحرر أقلامنا من خوفه، إلا أن هذا الربيع لم يستمر إلا لعام واحد، بدا واضحاً أن الحاشية التي تحيط ببشار الأسد من مسؤولين

وضباط كبار ملوثين بالفساد ومنتفعين لا يرغبون بالإصلاح، فعدنا مجدداً إلى خوفنا ووقوفنا على عتبة الممنوعات الثلاثة: الجنس والدين والسياسة.

كانت الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون وكراً للفساد والسرقات ووأد الإبداع لمدة سنوات. ولم نكن كموظفين نملك أي حافز لتطوير أنفسنا إعلامياً ومهنياً بسبب شعورنا أن ذلك غير مجدٍ، فترهّلت الكوادر المهنية بأسرها، وتحولت إلى موظفين يؤدون عملهم بإهمال وبلادة، وينتظرون الراتب مطلع كل شهر، والمبلغ الإضافي في منتصف الشهر. كان الدخل في الإذاعة والتلفزيون من أعلى المداخيل في سوريا بسبب الحوافز المالية الكبيرة، مما جعل العمل فيه مرغوباً من الجميع، وحلماً لا يتحقق إلا بمعجزة أو واسطة. هذه الحوافز المالية الكبيرة أو الصغيرة كانت توضع حسب فرص العمل الممنوحة والمتوافقة مع مزاج ورغبة المدراء، وبرقابة مالية تغض الطرف عن التجاوزات أحياناً، مما جعلنا نسمع في الكثير من الأحيان عن سرقات مالية، يحال مرتكبوها إلى التحقيق، ثم يخرج معظمهم منها بريئين بقدرة قادر.

الفساد كان متفشياً في معظم المفاصل الإدارية، لذلك كان ممكن إجراء صفقات تراضٍ بين الأطراف المتنازعة. ولم تكن رشوة اللجان المسؤولة عن الرقابة المالية أو لجان التحقيق أمراً صعباً، بل كانت أمراً شائعاً، وفي كل الأحوال كان اتصال من أحد كبار الضباط والمتنفذين على المستوى الرفيع كفيلاً بإخراج أي شخص من أي ورطة. وكان جميع الفاسدين يتواطؤون معاً لإخفاء أي أثر للفساد، فلم يكن يتمكن أحد من إثباته، قال لي أحد ضباط المخابرات الكبار المطلعين على الملف الإعلامي أثناء زيارتي لزوجته في مناسبة سعيدة، في رد على سؤالي: كيف يختارون المدراء والوزراء؟

نحن منذ أيام الرئيس حافظ الأسد اعتدنا على منهجية معينة، نختار أحد الأشخاص المقترحين من قبل جواسيسنا بعد أن نراقبه لفترة من الزمن، ونجمع عنه الكثير من المعلومات الأمنية حول وضعه وطريقة تفكيره، وبعد أن نتأكد من ولائه

للرئيس وحزب البعث، نعينه في موقع ما، ونستمر في مراقبته بعدها، ثم نحاول توريطه في الفساد، كي نتمكن من السيطرة عليه والتحكم به، فإذا قبل وتورط، نفتح له ملفاً حول فساده ونخبئه في دروجنا السرية، نوجه له الأوامر والتعليمات، فيطيع ويستمر في منصبه مكرماً، وإذا خالفنا، هددناه بملفات الفساد، وفضحناه وأقلناه من منصبه.

- وإذا لم يقبل التورط؟ سألته.

- "إذا لم يقبل التورط، وتمرد علينا، لفقنا له تهمة أو ملف فساد نتمكن من خلاله من فصله من عمله حين نشاء.

هذه القواعد لا تخلو من الاستثناءات، فرغم كل الفساد في سوريا، كنت تجد هنا أو هناك ضابطاً شريفاً أو مديراً نزيهاً أو مواطناً صالحاً. في إحدى المرات اشتهرت حادثة في الإذاعة والتلفزيون عن مذيعة جميلة ومتزوجة كانت مقرّبة من أحد أبرز ضباط المخابرات في ذاك الوقت. وكان زوجها مديراً لأحد الأقسام في التلفزيون، متميزاً ومثقفاً وبارعاً في عمله على غير عادة المدراء الذين عرفوا غالباً بغبائهم وسطحيتهم. أقيل زوجها من منصبه، وانتشر نبأ إقالته، فعلمت هي بذلك وقالت جملة شهيرة أرفقتها بإيماءة من يدها، عمت أرجاء الإذاعة.. "أراهنكم أني سأعيده"..

وفعلاً وبعد أسبوع من هذه العبارة الشهيرة عاد زوجها إلى منصبه معززاً مكرماً، بعد الوصفة السحرية التي استخدمتها زوجته الحسناء.

كان الفساد مستشرياً أيام حافظ الأسد، إلا أن ثباتاً وحسماً في القرار كان واضحاً حينها، ومع تسلم بشار الأسد السلطة بدا أنه يحاول الاصلاح في البداية، إلا أن تخبطاً وضعفاً في القرارات أصاب جسد الدولة، فكانوا يعينون المدراء العامين ويقيلونهم بعد أشهر، ثم يُعيّنون غيرهم ويقيلونهم بعد أشهر، وهذا شاع كثيراً في وزارة الإعلام في الفترات الأخيرة. وكان المبرر لذلك على حد قول المسؤولين

وصناع القرار الرغبة في البحث عن بدائل أفضل، وسمعت من أحد المقربين من بشار الأسد حديثاً نقله عنه شخصياً قبل الثورة: "يقترحون عليّ شخصاً لموقع ما، ويقولون إنه نظيف اليد. وبعد أن نعينه في منصب ما يصبح لصاً، أو يكون ضعيف الشخصية، وغير مناسب، وهكذا دواليك".

أنا أعتقد أن بشار حاول الإصلاح جدياً، إلا أنه لم يستطع إليه سبيلاً بسبب حلقات ومافيات الفساد المنتشرة والمتغلغلة بقوة في مفاصل الدولة كلها منذ عهد والده، الأمر الذي جعل رغبته بالإصلاح حلماً بعيداً، طبعاً قبل أن تتلوث يديه بالدماء بعد الثورة، والتي أعتقد أيضاً أنه ليس صاحب قرار مطلق فيها كما يظن البعض.

أثناء سكني في المدينة الجامعية، توفي باسل الأسد الشقيق الأكبر لبشار والذي كان مهيأ لتسلم السلطة. جمعتنا إدارة المدينة الجامعية حينها في باصات كبيرة للسفر إلى القرداحة مسقط رأس حافظ من أجل المشاركة في تأبين ابنه. ركبنا في الحافلات المدفوعة الأجر من قبل الحكومة، وتوجهنا إلى هناك، وتغاضى أساتذتنا في الجامعة عن ذلك اليوم الذي اعتبر بمثابة عطلة رسمية. وصلنا إلى مشارف القرداحة، وفاجأني المشهد. كانت القرداحة عبارة عن شكلين معماريين متناقضين تماماً، طرقات ترابية غير معبدة، وبيوت فقيرة، لكنها كانت حالاً من بيوت الريف العلوي الفقير المحيط بمصياف، وفي الجانب الآخر قصر الرئيس وقصر آخر قيل لي إنه قصر رفعت الأسد، وبعض البيوت الفخمة لأقربائه والعائلات المقربة الغنية. كانت البلدة فقيرة ومزرية استثناء حي أو حيين مترفين، ولا أخفيكم أني صدمت حينها، لأننا نحن أبناء ريف مصياف كنا نعتقد أن كل علويي الساحل كانوا منتفعين ومستفيدين، وهذا لم يكن حقيقياً.

نزلنا من الباصات، ومشينا في صفوف منظمة تشبه مسيرات التأييد التي كنا معتادين عليها بكثرة أيام حافظ، حيث يبدأ المواطن السوري بتعلم رياضة المسيرات المؤيدة منذ الصف الأول الابتدائي عبر الانتساب الأوتوماتيكي والقسري إلى منظمة

طلائع حزب البعث، مروراً بمرحلة الدراسة الاعدادية حيث يتم التنسيب بشكل قسري أيضاً إلى منظمة الشبيبة وإلى صفوف حزب البعث العربي الاشتراكي، دون أي خيارات أخرى. وفي الجامعة يتم تنسيبنا بشكل تلقائي إلى اتحاد الطلبة التابع لحزب البعث أيضاً، ثم في المؤسسات الحكومية التي كانت حكراً على البعثيين، وهذا تغير قليلاً في عهد بشار إلا أن التغيير كان خجولاً. ولا يحتسب رغم جديّته.

اكتظّت شوارع القرداحة الحزينة بحشود المشيعين، جدران البيوت الفقيرة طليت باللون الأسود، أقمشة سوداء كبيرة غطت الشرفات والمشهد. كان باسل الأسد شاباً وسيماً ومحبوباً من قبل الكثيرين، وعرف عنه وعن بقية أشقائه التهذيب والسمعة الحسنة، على خلاف معظم أبناء عمومتهم وأقربائهم من الشبيحة والمرتزقة.

ملأت عناصر الحراسة والأمن المكان، واحتشدت النساء أمام أبواب البيوت وعلى الشرفات، وعلا صوت البكاء. حملنا صور باسل المعلقة إلى عصيّ متوسطة الطول، ومشينا، وفجأة أطل الرئيس حافظ الأسد بمشيته الوئيدة وخطاه المكسورة، وخلف وجهه المفجوع كوجه أب أطلت وجوه المرافقة الرئاسية، ثم أطل بشار. استمر حافظ في السير فيما تحلق المعزون حول بشار لتحيته وعزائه. بعد أن اختلطت الجموع، وجدت نفسي وجهاً لوجه أمامه، حييته وقبلته على وجنتيه وقلت له: "العمر إلك، انتبه عحالك، مالنا غيركن"، وكنت أبكي حينها.

فاجأني الأخ المفجوع، بعفوية وبساطة وابتسامة طيبة لا تنم عن الذكاء: "تماسكي وتشجعي وكوني قوية".

في الحقيقة لا أعلم لماذا قلت له تلك العبارة. إلا أنني الآن أدرك بوضوح حجم التجييش الطائفي الذي كان منتشراً في صفوف البعث، وفي السكن الجامعي حيث كنت أقيم، وحيث تميزت المدينة الجامعية بحضور كبير للطلاب القادمين من الأرياف للدراسة، واذلين لا يستطيعون السكن خارجها بسبب فقرهم، وأذكر جيداً

أن هلعاً وذعراً يشبه ذعر غالبية العلويين أثناء الثورة ضد بشار، قد أصابهم يـوم وفاة باسل، وظهرت بين معظمهم تكتلات طائفية عفوية وغير معلنة.

كانوا خائفين ومذعورين ويتحدثون عن مجزرة جديدة قد ترتكب بحقهم بعـد وفاة حافظ، لأن باسل بشخصيته القوية كان بديلاً مطمئناً لرعبهم التاريخي، ووريثاً مقنعاً للعرش، ولم يكن بشار موجوداً في الصورة، لم يكن أحد يتحدث عنه، كـان الناس يتحدثون عن باسل وماهر فقط. هو كان يدرس طب العيون في لندن، وبـدا كأنه ظلّ متوارٍ وخفيّ في هذه العائلة الجالسة في مسقط الأضواء.

أذكر جيداً أني خرجت بعد تشييع باسل وبعد التأمل عبر دقائق سريعة فـي ملامح وحركات بشار، وأنا مقتنعة أن بشار طيب جداً وغير ذكي ومرتبك وضعيف الشخصية، ولا يمكن أن يكون صاحب قرار.

أثناء الثورة فيما بعد، روي لي أحد الأصدقاء القصة التالية:

دخل أحد المسؤولين الأجانب لمقابلة بشار في جناح الاستقبالات في القـصر الجمهوري، والحديث معه حول الاحتجاجات والاضطرابات في سوريا، فاسـتقبله الرئيس أحسن استقبال، وكان ماهر الأسد موجوداً أيضاً. وقال المسؤول الغربـي: "تحدثت أنا وبشار الأسد لمدة ساعتين متتاليتين، وكان ودوداً وهادئاً ويبدي تعاوناً، ويستمع إلى كل ما أقوله. وفي أثناء حديثي معه، كان ماهر جالساً قريباً منـا فـي كرسيه، وعلى وجهه ملامح نزق وعصبية، وحين انزلقت عيناي إلى يديه رأيـت فيهما شيئاً حاداً يشبه السكين، وكان ماهر يحزّ به جلد يده اليسرى بعصبية تسببت بنزول الدم، مما راعني وأخافني حقاً، إلا أني لم أجرؤ على التفوه بكلمة.

ويتابع: "طبعاً كان ماهر صامتاً طيلة الحديث، ولم يقل شيئاً"

بالعودة إلى حديث الفساد في الإذاعة والتلفزيون أقول: حاولت مرات عدة أن أتمرد على هذا الواقع دون جدوى. وفي إحدى المرات توجهت ودون أي توجيه من أحد إلى مكتب آصف شوكت، زوج أخت الرئيس، والمسؤول عـن الكثيـر مـن

الملفات الأمنية حينها، وقابلته لدقائق قليلة ومقتضبة، حدثته فيها عن الفساد. وبـــدا مستمعاً جيداً وذا شخصية قوية، وطيباً ومثقفاً، وأرسلني إلى مدير مكتبه الذي طلب مني أن أعد ملفاً كاملاً عن الفساد في الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون، ووعـــدني أنهم سيتعاملون معه بجدية. فكرت في إنجاز الملف أنا وبعض الزملاء النـــزيهين والشرفاء، إلا أني أقلعت عن الفكرة بعدها، ليقيني بأن شيئاً لن يتغير، وبأنني إذا ما فعلت ذلك قد أتعرض للأذى من قبل مافيات الفساد القوية والمرعبة في ذلك الوقت والتي عادت وظهرت بشدة أثناء الثورة.



25

الحب انفجارٌ مباغت، لكنه متقن التنفيذ، يصيب روحك بشظايا إذا لم يقتلك، أو يتركك أشلاء مبعثرة. كانت روحي ممزقة ومتعبة كأشلاء تفجيــر كفرسوســة، وكنت أتعكّز على الحب كي أواصل السير في هذا العالم المحفوف بانفجارات الحب والموت، إلا أنني كنت أفضل الموت حبّاً على الموت بمواد متفجرة لا أعرف حتى ما هو تركيبها الكيميائي. كان صلاح معي خطوة بخطوة في عالمي المجنون هذا، يحتمل نزواتي وثوراتي المستمرة، ويقابل انفجاراتي بالحب. قدم صلاح من حلــب ليطمئن علي، وبدا قلقاً كطفل صغير خائف على لعبته من التمــزق تحــت عجلــة سيارة طائشة. قلت له:

- رئيسك السبب.

فصمم على موقفه كعادته، وقال:

- البلد سوف يتمزق وينهار إذا لم نقف معه.

- كم يجب أن يموت من السوريين حتى يرحل؟ الثورة لن تتوقف.

يجيبني برعب:

- اللّه يستر.

غابت عيناه الخضراوان قليلاً، ثم ضمني بين ذراعيه المنتشيين مــن تــأثير الخمر، وبدا وكأنه يحميني من شيء ما، أنا رغم شوقي الشديد لجسده، كنت كجثة هامدة تغرق شيئاً فشيئاً في بحر لا لجة له. غرقت بين يديه، واستــسلمت كموجــة دون مقاومة، كنت أشعر بالماء يحيط بي من كل جانب، كانــت أنفاســه الحارقــة تنطفئ عند البرودة التي أحاطت بروحي. وكنت أغرق، أغمضت عيني وتخيلــت جثث عناصر الأمن والجيش التي ألقيت في نهر العاصي في آب الفائت. أجسادهم الممثل بها مكدسة فوق بعضها كأنها أكياس تبن رخيص وموضوعة في صــندوق

سيارة بيك آب. بعض الأشخاص بدؤوا برميهم واحداً واحداً في الماء، كأنهم حجارة، كأنهم أكياس قمامة، كأنهم بهائم نافقة، كأنهم لا شيء. شيء ما أعاد صورتهم إلى ذاكرتي، وجعلها تحضر بقوة. هي الأشياء التي نحاول إنكارها وتجاهلها تعود إلينا بشكل أقوى وأخبث، ولا أعلم لماذا اختارت ذاكرتي هذا التوقيت الدقيق، وداهمتني كانفجار مباغت وأنا بين ذراعيّ صلاح الحزين من أجلي ومن أجل سوريا، دفعته بعيداً عني، وقلت له بحزم:

- آسفة.

مضيت إلى المطبخ، وأعددت كأساً من الحليب والنسكافيه، وجلست أنتظر مغادرة صلاح، كي اتصل بمنى. كانت منى بانتظار زوجها الذي سافر إلى لبنان قبل يومين ومتشنجة الأعصاب كلياً. كانت منى قد بدأت تشك بأن زوجها لديه عشيقة في لبنان. وعندما سألتها عن سبب الأدلة، أستشهدت بتصميمه على السفر في هذه الاضطرابات الأمنية. أنا لم أجده دليلاً مقنعاً، إلا أنها كانت مقتنعة بذلك، ولا سيما أنها وجدت حبوب فياجرا في حقيبته الجلدية مما أثار جنونها.

كانت منى كلما عاد زوجها من لبنان تنتظر خلوده إلى النوم، تغمض عينيها وتتظاهر بالنوم مثله، وحين تتأكد من نومه تنهض من سريرها كمجنونة وتشم ملابسه قطعة قطعة ككلب بوليسي، ثم تفتشها جيباً جيباً، تبحث في الحقيبة والموبايل وفي دروج الخزانة حيث اعتاد أن يضع أشياءه الغالية، تبحث عن أي أثر لخيانة محتملة.

كانت منى تكرر وتعيد أمامي أنها لا تحب زوجها، وأنها تعيش معه رغماً عنها بسبب عدم مقدرتها على الطلاق. وعندما كنت اسألها: لماذا تغار عليه إذا كانت لا تحبه، كانت تجيب أن القضية قضية كرامة.

أنا لم أفهم يوماً لماذا تجرح كرامتنا، إذا خاننا شخص لا نحبه. وكنت ضمنياً أعتقد أنها تحبه، لكنها تدعي العكس كوسيلة دفاعية نفسية نستخدمها نحن البشر

لتتأقلم مع واقع سيئ، فأن نُقنع أنفسنا أننا لا نحب زوجاً خائناً أسهل بكثير من مكابدة مشاعر الخيانة.

مرة أكدت لي منى أنها وجدت أثراً لامرأة أخرى في فراشها، ونصحتها أن تضع كاميرا تجسس لتتأكد من ذلك.

لم تكن كاميرات التجسس فقط من تخص الزوجات الغيورات، بل كانت ظاهرة عامة ملأت أركان الهيئة العامة للتلفزيون بعد الثورة. وبعد الانفجار الأول الذي شهدته دمشق، لم يعد ممكناً أن تتجول في أي ممر من ممرات الإذاعة دون رفقة أجهزة تنصت صوتية أو كاميرات.

بعد أن أنهت منى حديثها المضطرب عن زوجها، تحدثنا عن الأوضاع في سوريا، وأخبرتني عن صديقة لها اضطرت للنزوح عن المعضمية (ضاحية في ريف دمشق) والسكن في بيت أقربائها، وكيف أن الجيش طوق المكان منذ أشهر، منذ انطلاق أول مظاهرة سلمية. سألتها كعادتي دائماً للتوثق والتأكد مما تتناقله وكالات الأنباء العربية:

- هل يقتلون المتظاهرين حقاً؟؟؟

فأجابتني منى بحذر:

- دعينا نغير الموضوع.

وهنا أنهينا المكالمة.

* * * * *

وصلت إلى عملي، وكان الوقت ظهراً، وكان مرآب الإذاعة والتلفزيون مكتظّاً بشكل لافت، وفيه الكثير من سيارات أبناء ضباط المخابرات والمسؤولين. وهو أمر سيستمر فيما بعد، بسبب حالة الاستنفار الأمني التي انفرضت على

المبنى، ولأن معظم الموظفين كانوا أصلاً من هذه الشريحة ولم أجد مكاناً أركن فيه سيارتي، فاضطررت إلى ركنها خارج المبنى بمحاذاة سور الحراسة بالقرب من باب الدخول المخصص لوزير الاعلام، حيث اعتادت سيارات الضيوف القادمين للمشاركة في البرامج التوقف. وهذا سيمنع كلياً فيما بعد، حيث سيخشى المسؤولون عن امن التلفزيون من تفخيخ سيارة قريبة من السور الذي أصبح شيئاً فشيئاً قلعة أمنية هو أيضاً.

كان المكان كخلية نحل أو بالأحرى عش دبابير مجنونة، مررت في طريقي إلى الإذاعة بأحد الأصدقاء في التلفزيون، وكان يعمل محرراً، شربنا القهوة وسألته عن رأيه بطريقة التعاطي الاعلامي، فأكد امتعاضه وغضبه الشديد، وأخبرني القصة التالية التي حدثت معه بعد اشهر من الثورة:

"أخذت معي مصوراً وكاميرا تصوير وتوجهت إلى ....، وبما أني ابن المنطقة، تمكنت من الدخول أنا وفريق العمل بعد عدة وساطات مع أهل المنطقة الذين يعرفون أهلي جيداً، والذين وعدوا بحمايتي من غضب الشارع المستفز ضد الاعلام. كان السكان حاقدين على الاعلام السوري، ويعتبرونه شريكاً في القتل والكذب، واشترط عليّ الأهالي في حال رغبت بإجراء مقابلات أن تبث كما هي دون مونتاج.

أجريت عدة لقاءات تحدث فيها السكان عن الفساد وعن ممارسات عناصر الأمن وإطلاقهم النار على المتظاهرين السلميين. أحدهم تحدث عن سرقات رئيس بلدية القرية وعن الشباب العاطلين عن العمل. إحدى النساء بكت أثناء التسجيل، وناشدت الرئيس بالتدخل لحمايتهم من قطعان الأمن والشبيحة المتربصة بقريتهم وأبنائهم. رجل آخر تحدث عن ابنه الوحيد الذي أصابته رصاصة طائشة جاءت بعيداً بقليل عن قلبه، فلم يمت، إلا أن رصاصة أخرى قتلت رجلاً عجوزاً كان يعبر الشارع برفقته لشراء الخبز. كان الأهالي هائجون من الخوف والغضب، ولم يرغب معظمهم في الحديث إلينا، وفجأة وقبل أن نهم بالمغادرة، وصلت مظاهرة

قادمة من الطرف الآخر للقرية، وما هي إلا لحظات حتى بدأ الرصاص بالانهمار بشكل عشوائي، فاختبأنا في أحد البيوت إلى أن توقف القصف وخرجنا من جديد.

طبعاً هذه القصة التي حدثني بها صديقي واحدة من حالات كثيرة، استخدم فيها الأمن الرصاص الحي. ورغم أن بشار الأسد في خطاباته كان يؤكد أنه لم يعط الاذن بإطلاق الرصاص إلا أن العكس بدا واضحاً.

المظاهرات المناوئة الوحيدة التي لم يقترب منها أحد هي مظاهرات الأكراد في القامشلي وعامودة والحسكة، والتي كانت تخرج بشكل منظم كبير منذ بداية الأحداث، إلا أنها بقيت هادئة.

تابع صديقي حديثه، وأكّد لي أن المدراء لم يسمحوا له بعرض اللقاءات في التلفزيون، رغم أنها لم تكن تتناول شخص الرئيس بشكل مباشر، إلا أن التعليمات كانت تلح على عدم تناول ممارسات الأمن الهمجية أيضاً. وأكد لي كما سيؤكد آخرون فيما بعد أن الكثير من المقابلات مع المواطنين لم تعرض.

سألته، إن كان يرى تطوراً في عمل الاعلام فيما يتعلق بالتعاطي مع الثورة. فأجابني: أن الأداء يسوء يوماً بعد يوم .

بعد هذه الحادثة بشهرين سيحاول صديقي الدخول إلى نفس المنطقة، إلا أن مجموعة من الأهالي الغاضبين ستحمل سكاكين كبيرة (سواطير)، وتحاول الهجوم على السيارة التي تقل الكاميرا الخاصة بالتلفزيون السوري، وسيهرب صديقي بمساعدة بعض أهالي المنطقة نفسها.

أنهيت جلستي مع صديقي، وصعدت الدرج إلى طابق الإذاعة، ومررت على مديرتي لأطلع منها على التوجيهات الجديدة، ووجدت عندها رئيس منظومة (غرفة) الأخبار، أخبرني أنني ساكون في الاستديو برفقة أحد المحللين السياسيين للحديث عن هذا الانفجار الذي نسب إلى جبهة النصرة. وكالمعتاد ركز الحوار على

الارهاب والتطرف الديني، ثم اتصلنا على الهواء برجل دين سوري من الطائفة السنية، وأكد هو بدوره نظرية المؤامرة.

بعد انتهاء الحوار ومغادرة الضيف، فتحت صفحتي على الفيسبوك، وقرأت على الصفحة ناشطة اسمها "خولة حديد" نبأ عن مجزرة مريعة حدثت في قريتَي كنصفرة وتل عويد في إدلب، وإليكم تفاصيل ما كتبته:

"كان الضباب يلف هذه المنطقة الجبلية الوعرة والباردة جداً في هذا الوقت من العام، والتي اختبأ في أحراجها البعيدة المنشقون عن الجيش النظامي، والهاربون من المشاركة في أعمال القتل، عندما طوقت قوات النظام المدججة بالسلاح والموت المكان، وحاولت اقتحام قرية كنصفرة، إلا أن المنشقين حاولوا منعهم من الدخول اليها، وتصدوا لهم مستخدمين الذخيرة التي كانت بحوزتهم قبل انشقاقهم، وبقي القتال مستمراً ليومين متتاليين. وبعد أن نفذت ذخيرة المنشقين أمام الآلة العسكرية الضخمة المزود بها أفراد الجيش النظامي، انسحبوا إلى أماكنهم البعيدة عن السكان، مما مكّن قوات النظام من اقتحام البلدة.

في ساعات الصباح الأولى، يكون الضباب كثيفاً في تلك المناطق، ويغطي كل الطرقات والوجوه والتحركات، وهذا الطقس كان مواتياً تماماً للجنود الراغبين في الانشقاق والانضمام إلى رفاقهم. هرب سبعة وعشرين جندياً كانوا يسيرون في الطريق بين بلدتي "كفرعويد" و"كنصفرة"، ولجأوا إلى منطقة مهجورة تدعى الخراب، ومع ملاحقة الجيش لهم التجأوا إلى بناء قديم مخصص لتربية الدجاج، وهناك تمت محاصرتهم وقصف البناء الذي هم فيه فوق رؤوسهم مما أدى إلى استشهادهم جميعاً، وجمعت جثثهم في سيارات عسكرية، وأخذت إلى جهة مجهولة.

وفي ساعات الفجر الأولى، دخل الجيش البلدة تحت وابل من الرصاص الكثيف والقصف المدفعي الذي طال البيوت الآمنة ومستشفى القرية. وأكد السكان

بأن المشفى تعرض لأضرار بسبب القصف، وتم الاعتداء على المرضى، إلا أن مالك المشفى والقائمين عليه أنكروا ذلك كما منع التصوير والحديث عن الموضوع.

وهذا ما تم سابقاً عندما حدثت مجزرة في قرية "المسطومة"، ونقل جرحى وضحايا المجزرة إلى ذات المستشفى. وحينها منع التصوير وشكك في رواية الأهالي، وتم منعهم من الحديث عما جرى في المشفى.

ويذكر أبناء كنصفرة أن البلدة حين اقتحامها كانت شبه خالية من الرجال والشباب الناشطين، الذين غادروا البلدة باتجاه سهل الغاب كما اعتادوا حيث يملك بعضهم هناك أراضي زراعية. وفي طريقهم إلى سهل الغاب، اختبأوا في وادي "بداما" الواقع بين المنطقة وسهل الغاب، وتفرقوا بين أشجار التين البري. وفي تلك الأثناء كانت حالة من الرعب تسود سكان البلدة من نساء وأطفال وشباب حاولوا الهروب عبر أكثر من مدخل من مداخل البلدة، ولكن الجيش لاحق الهاربين، وحاصر وادي بداما الذي يضم عشرات من الناشطين والرجال الذين كانوا ينظمون التظاهرات في المنطقة وغيرهم من أبناء المنطقة المسالمين، وتمت تصفية عدد كبير منهم. وخلال تلك الفترة وصل عدد من رجال قرية "كفر عويد" إلى حيث الجيش السوري يقصف الوادي، ليتوسّلوا إلى أفراد الجيش بأن يكفّوا عن قصف الوادي، ويقنعوهم بأن من فيه هم من المدنيين، ولا يوجد أي عسكري بينهم. كان أهالي "كفر عويد" وقرية "الموزرة" حوالي 200 شخص تم استهدافهم من قبل الجيش وقذفهم في وادي بداما فوق من هم فيه لترتكب مجزرة من أبشع المجازر التي شهدتها المناطق السورية منذ انطلاقها.

جاء الجيش بشاحناته ونقل غالبية الشهداء إلى جهة مجهولة، وتم نقل عدد قليل منهم فقط إلى مساجد كنصفرة مع حراسة هذه المساجد، ولم تسلم أي جثة للأهالي إلا بشرط أن يستلمها أربعة أشخاص فقط، وتدفن بدون تشييع وبرفقة عنصر أمن، هؤلاء كانوا جميعهم من العمال والفلاحين وطلبة المدارس والجامعات. وما سلِّم من جثث هؤلاء لا يساوي شيئاً من أعداد المفقودين في تلك

المنطقة. وقد حاول الأهالي البحث في البراري والجبال عن جثث أبنائهم وعثر على بعضها، إلا أن استهدافهم من قبل الجيش منعهم من المواصلة.

عاشت البلدة يومين رهيبين، عشرات الجرحى والمفزوعين من النساء والأطفال، عشرات بل مئات المشردين في البراري والجبال، مئات المفقودين، مئات الشهداء، ولم تقدم لهم أية إغاثة في ظل ظروف مأسوية من نقص مواد التدفئة والمواد الغذائية والأدوية.

نحن في الإعلام السوري قلنا: إن هذه العملية هي عملية نوعية نفذها الجيش السوري للقضاء على الجماعات الارهابية المتطرفة والمسلحة والتي كانت تحاول إقامة منطقة عازلة دون أي إشارة إلى الشهداء من المدنيين، ودون أي ذكر لمنشقين من الجيش، لأن الحديث عن الانشقاقات المتتالية كان سيشجع آخرين على الالتحاق بهم. وبث التلفزيون صوراً لرجال لهم لحى طويلة في محاولة إلى الإشارة إلى أنهم متطرفون دينياً، في تغييب كامل للحقيقة، وفي محاولة ترهيب السوريين الصامتين والمعتدلين دينياً من شبح التطرف القادم مع رحيل بشار.

دخل المخرج إلى الاستوديو فجأة، وبيده كوب النسكافيه والحليب الذي طلبه لي، فذعرت وأغلقت صفحة الفيسبوك بسرعة، وابتسمت له وشكرته بطريقتي المخادعة المعتادة حين أكذب أو أتصنع أو أحاول اخفاء أمر ما. وتناولت كوب الشراب من يده، وشربته وعدت إلى الفيسبوك بعد أن تأكدت من خروجه من الاستوديو. هذا المخرج أيضاً كان يتحدر من إحدى القرى في منطقة جبلة الساحلية، وهو مؤيد من الطراز الأول، ومعظم أقربائه في سلك الأمن، ولم أكن أجرؤ على الاعتراف أمامه أن صفحتي على الفيسبوك تضم معارضين أو أنني أفكر في قراءة ما يكتبونه.

أمسكت مرآتي الصغيرة بعد أن أخرجتها من حقيبتي، ووضعت أحمر الشفاه، وودعت المخرج ومساعدته بطريقة لطيفة ومتكلفة، وتوجهت لزيارة جورجيت، وأنا أجر أذيال حزني ومؤامرتي التي جرني القدر إليها بعناية.

ودخلت منطقة باب توما التي كانت لا تزال آمنة في ذاك الوقت، هي وباقي الأحياء المسيحية، ولست متأكدة إذا كان هذا الانفجار أو الانفجار التالي هو الـــذي سيودي بحياة شابة مسيحية في مقتبل العمر ولن تتعرف أمها إلى أشلائها إلا مـــن خلال قطعة من الجرابات التي كانت قد ارتدتها صباحاً قبل الذهاب إلـــى العمـــل، جورجيت ذهبت لعزاء هذه السيدة، ووصفت حالتها بالهستيرية، وأكدت أن الـــشابة كانت على وشك الخطوبة لشاب أحبته كثيراً. في سوريا كان الحب قد بدأ بالرحيل.



26

حضَّرت جورجيت مائدة عامرة. وكانت هذه عادتها في الأحـوال العاديـة والأعياد أيضاً، ثم جاءت قريبتها لزيارتها ومعها ابنها الشاب ذي العشرين عامـاً، شربنا الشاي بالقرفة الدمشقية الحارة والمثيرة للحواس، وبدأنا الحديث عن وضـع البلد، تحدثت أمامهم بحرية وقلت ما أفكر به، وأخبرتهم عن ضرورة تنحي بشار، وإلاّ سيأخذ البلد إلى الخراب. لم تجب أي واحدة منهما لا بـالنفي ولا بالإيجـاب، واكتفيا بالصمت. تحدثت مع ابن السيدة المسيحية العاطل عن العمـل وذي الـستة والعشرين عاماً:

- هل وجدت عملاً؟

- لا، الأوضاع الاقتصادية متدهورة جداً ولا توجد فرص عمل، على العكس هناك بعض الشركات التي بدأت بتسريح موظفيها.

ثم ابتسم لي وقال ببراءة وفخر:

- لقد عرضوا عليّ أن أعمل معهم.

سألته:

- من؟؟

فأجاب:

- شباب من الساحل وبعض المناطق الأخرى يعملون لقمع التظاهرات، وقد عرضوا عليّ سلاحاً ومبلغاً من المال يعادل راتب موظف.

صرخت الأم متدخلة:

- هذا مستحيل، هل تريد أن تموت برصاصة طائشة يا ولدي؟

دهشت أنا من فكرة أن يشارك شاب في هذا العمر في قتـل المتظـاهرين، ودهشت أكثر من هذا التجييش الكبير للأقليات من قبل النظام، واسـتغربت كيـف فكّرت والدة الشاب بالرصاصة التي قد تصيب ابنها، ولم تفكر في الرصاص الذي يقتل المتظاهرين.

الأحياء المسيحية في دمشق اعتادت على وضع الزينة والأضواء في الأعياد، حيث تتحول ساحات باب توما والقصاع والغساني إلى كرنفـالات مـن الألـوان والفرح. وكنا في عيدي الميلاد ورأس السنة نتعمّد الذهاب إلى هذه المناطق لرؤية البهجة المشعة من شرفات المنازل وأبوابها وحدائقها. في ذاك العام أعلنت الطوائف المسيحية أنها لن تحتفل تضامناً مع شهداء سوريا من الجيش والقـوات المـسلحة والمدنيين من ضحايا الانفجار، إلا أن أحداً لم يجرؤ على ذكـر شـهداء الثـورة المستمرين في الموت.

كان معظم المسيحيين خائفين وصامتين، خائفين من قمع النظام من جهة ومن رواية المتطرفين من جهة أخرى. عاش المسيحيون والمسلمون في أحياء مشتركة عل مدى قرون، ولم تقع أي مشكلة بينهم، إلا أن التجربة المسيحية فـي العـراق كانت ترعبهم، حيث اضطر الكثير منهم إلى مغادرة بلادهم والهجرة إلـى بلـدان أخرى، كما كانت الفوضى والانفجارات المستمرة في العراق وفي ليبيا بعد سـقوط القذافي تخيفهم من المجهول.

كان لدي الكثير من الأصدقاء المسيحيين، وأجزم أنهم لم يكونوا مع بشار، بل كانوا ضد التطرف والفوضى. في الحقيقة نجح النظام في إقنـاعهم بـأن الثـوار عصابات مسلحة عبر إرغامه للمعتقلين على الاعتراف أمـام الكـاميرات بـأنهم إرهابيون أو تسجيل اعترافات لسجناء بجرائم سرقات وقتل، كما فشلت المعارضة الحديثة العهد بالسياسة بطمأنتهم وتقليص مخاوفهم من القـادم المجهـول، فبقـوا صامتين ومتفرجين ومضطربين.

أخبرني صديقي في التلفزيون أنه رأى بعينيه الشريط الأصلي لشريط ملفق وقال: جلس المعتقل وهو يترنح من شدة التعذيب وبدأ ضابط المخابرات يلقنه الكلام. المعتقل كان شاباً صغيراً، وبدا أنه لم يتمكن من حفظ المعلومات بسرعة، فأخفق مرات عديدة اضطرتهم إلى إعادة التسجيل. وفي كل مرة كانوا يحذفون المشاهد المعادة كي لا يراها أحد سوى هم والمصور المؤتمن، إلا أن مقطعاً بقي على حاله نتيجة خطأ أو سهو، فرأيته وهو يقول له: نسيت يا سيدي، ثم يقرأ الكلمات من ورقة مكتوبة.

بعض المعتقلين كانوا يرفضون الاعتراف بأشياء لم يرتكبوها، فيخضعون لتعذيب أكثر وحشية، أما من يستجيبون، فكانوا يخرجون من السجن عر مجموعة من مراسيم العفو الرئاسي التي كان بشار الأسد يُصدرها كل فترة، ليخرج اللصوص وقطّاع الطرق ومرتكبي الجنايات ويحولّهم إلى شبيحة بعدها.

استنفر الإعلام السوري لتلفيق اعترافات تم كشف زيف وكذب الكثير منها من قبل الناشطين. عرض التلفزيون اعترافاً لشخص اسمه أحمد سلوايا أبو نظير أكد فيه أنه إرهابي. والأمر المثير للضحك أن أبو نظير مريض عقلياً، وقد ثبت ذلك بالدليل القاطع حسب وثائق رسمية تؤكد أنه سرح من خدمة العلم الالزامية سابقاً بعد تقرير من طبيب الأمراض العقلية.

التلفزيون عرض فيديو اعتراف أبو نظير لأيام متتالية، وكان واضحاً من حركات ونظرات المعترف أنه غير طبيعي، مما جعل قصة اعترافه دعابة في أوساط السوريين المعارضين والحياديين. أما المؤيدون، فلم تكن لديهم رغبة برؤية الحقيقة. وتحول أبو نظير إلى نجم كوميدي بامتياز، ولا سيما بعد نشر أوراق جنونه الرسمية على اليوتيوب والفيسبوك، مصورة بكاميرا موبايل دقيقة.

في الحقيقة، لعبت كاميرات الموبايل ووسائل التواصل الاجتماعي دور البطولة في الثورة السورية، لأن كاميرات الهواتف المحمولة تمكنت من نقل جزء

مما يجري على الأرض، ولو أن الثورة حدثت في عهد بعيد عن هذه التقنيات، لكان السوريون ذبحوا بصمت مطبق.

كانت ثقة الناس ضعيفة أساساً بالاعلام السوري، فلجؤوا إلى المحطات العربية ومقاطع الفيديو التي لا تقبل الشك، وعجت الصفحات المعارضة بفيديوهات تؤكد كذب النظام، مثل قصة أبو نظير، وامتلأت مواقع اليوتيوب بلقاءات أجراها التلفزيون السوري ولم يعرضها. أحد اللقاءات كان مع متظاهر جريح وموجود في المشفى، أكد فيه أن قوات الجيش أطلقت عليهم النار بغزارة، ولم يكن بحوزتهم أي سلاح. فيديو آخر كان يصور امرأة تتقاضى أجراً من شبيح كي تتحدث عن أن الأمن في سوريا مستتب. فيديو آخر ظهر فيه نفس الشبيح أربع مرات، في لقاءات مختلفة مع التلفزيون السوري ليشهد على الأوضاع في دير الزور، مما يؤكد أن هناك اتفاق ضمني بينهما.

ومن أكثر القصص شهرة قصة فيديو قرية البيضا في بانياس حيث اعتقل عناصر الأمن المتظاهرين، ورموهم على الأرض، وبدأوا يدوسون عليهم ويشتمونهم ويطالبونهم بتأكيد ولائهم لبشار. التلفزيون السوري كذب الفيديو، وادعى أنه مصور في العراق، وبعدها بث الناشطون المعارضون تصويراً لساحة البيضا وهو مطابق تماماً للساحة في التسجيل الأول.

أيضاً هناك قصة الشابة الناشطة "ولاء مورلي" التي اعتقلتها قوات النظام، وظهرت على شاشة التلفاز السوري لتعترف أنها ارهابية وتدعم الإرهاب، ثم أفرج النظام عنها، فهربت إلى تركيا، وتحدثت عن ارغام أجهزة الأمن لها على الاعتراف بعد تهديدها بالاغتصاب والقتل، طبعاً الاغتصاب بالنسبة لفتاة شرقية أصعب من الموت. وأعتقد أنه كذلك بالنسبة لمعظم النساء.

نحن في الإذاعة كنا نبث كل التسجيلات بالصوت، وكنا نعيدها عشرات المرات. وأعترف أني كنت استمع إلى بعضها حين اضطر إلى ذلك عند إذاعتها

في النشرات التي أقرأها، وكنت أجدها مضحكة ومفبركة بغباء، الإعلام السوري لا يتقن صناعة الكذب إلا نادراً.

٭٭٭٭٭

أسواق جرمانا لم تتوقف عن الازدحام رغم البرد والخوف والغلاء، وواظب المسيحيون فيها على شراء حلويات العيد، ووضعوا مغارات الميلاد في البيوت، إلا أن الزينات اختفت عن البيوت كلياً، أما باقي سكان الضاحية فبدوا منشغلين بطقوسهم الاعتيادية. لا اذكر تماماً متى بدأ انقطاع الكهرباء، إلا أنه كان في أواخر 2011، حيث أصبحنا نجلس في العتمة لساعات طويلة وصلت إلى اثنتي عشرة ساعة، وتسبب انقطاع الكهرباء بانقطاع الماء أحياناً. وكان هذا كفيلاً بإقلاق راحتي، لأنني كنت مشغولة كلياً بحديقتي.

كنت أتعكز في حياتي المضطربة تلك على أشياء كثيرة ومنها حديقتي، وأرى فيها حياة أخرى جميلة وبعيدة عن الموت. أتأملها كل صباح كوجه حبيب، وأتنشق رائحة أوراقها الخضراء المفعمة بالندى. في العتمة كنت أجلس وأتأمل طويلاً وأحياناً أرى نفسي مجنونة بوضوح كلي، بلا أي هدف في الحياة سوى التمكن من العيش بعيداً عن قنبلة أو رصاصة، ومحاولات مترددة لإنجاب طفل يمنحني الأمل في ظل هذا الجنون.

ساعات العتمة الطويلة منحتني وقتاً إضافياً للاستماع إلى قصص صديقاتي المعذبات. حدثتني منى ساعات عن زوجها وبدت على حافة الجنون تماماً، قررت اصطحابها إلى طبيب نفسي ماهر كنت أعرفه إلا أنها رفضت ذلك. الناس في بلادي يعتبرون زيارة الطبيب النفسي تهمة ودليلاً قطعياً على الجنون، ويفضّلون التعايش مع صراعاتهم وإشكالاتهم النفسية دون اللجوء إلى هذه الفضيحة.

قدمت في الإذاعة لسنوات عديدة برنامجاً نفسياً أستضيف فيه أطباء نفسيين، وأتلقى اتصالات المستمعين ورسائلهم وأسئلتهم. وبعد الثورة اقتصر البرنامج على بعض الرسائل، وكنت أحاول التركيز على مفهوم الصحة النفسية والسعادة المستحيلين في تلك الظروف، إلا أننا كما كنا نكذب على المواطنين في أشياء كثيرة، كنا نكذب في محاولة بيعهم وهم السعادة، ولطالما فكرت: ربما أستطيع التخفيف عنهم بتعليمهم كيفية التأقلم.

في الحقيقة كنت أعلمهم وأعلم نفسي كيف نخدع أنفسنا ونغافل ضمائرنا ونستمر في الصمت: أبشع العقوبات. يعتقد البعض أن الموت بالرصاص أو بقنبلة مجنونة هو أصعب الأشياء، إلا أن أؤكد لكم أن الصمت وعذاب الضمير هو الأقسى.

حدثتني منى أنها سمعت بشيخة وساحرة ماهرة اشتهرت بحنكتها ومقدرتها على ربط الرجال المتزوجين، والربط هو نوع من أنواع الشعوذة الذي تستخدمه النساء لمنع أزواجهن من الخيانة. كنا مشغولتين بموت السوريين في مناطق الثورة، إلا أن ذلك لم ينس منى هاجسها اليومي بشبق زوجها المهووس بالنساء والجنس. صداقتي العميقة مع منى الصحفية بنيت على أسس فكرية واضحة تجمعنا. فالمرأة كانت قارئة نهمة للكتب ومثقفة، وأميل إلى العلمانية، إلا أنها كانت ابنة البيئة الدمشقية المؤمنة بالسحر والشعوذة، وهذا الأمر لم يقتصر على منى فقط، فقد عرفت نساء كثيرات مثلها.

كان المجتمع السوري خلطة غريبة وسحرية ومرتبكة بين التدين والعلمانية، فكان مألوفاً أن تجدوا إلى جانب أسرتنا – نحن العلمانيين – كتاب القرآن الكريم، أو حجاباً يحمي من العين والحسد والأمراض. أعترف أني ما زلت مفتونة بهذه الخلطة التي نبعت من روح الشرق المؤمن بالله والخرافة والجنس، شرق الفتنة والسحر والجمال والثقافة والتخلف.

قبل الثورة، كان الإعلام يركز كثيراً على المشاريع الصناعية والزراعية والثقافية التحديثية التي تمت في عهد بشار الأسد، إلا أنه كان يتناسى أن أرياف دمشق والمنطقة الشرقية من سوريا، أي أرياف ادلب وحلب ودير الزور وبعض الأرياف الأخرى كانت ترزح تحت واقع اجتماعي متخلف، ووضع تعليمي ومعيشي مزرٍ. ولم يتمكن حزب البعث من دمجه بالمدينة كما فعل مع الأرياف العلوية التي حازت على فرص أكثر. وهنا لا يمكن القول إن الثورة في سوريا أسبابها الوضع المعيشي المتردي للمواطن، بل هو سبب من قائمة أسباب. قمع النظام على مدى عقود الأحزاب السياسية، والمثقفين الحقيقيين، مما فسح المجال واسعاً للجهل واللجوء إلى التدين أحياناً كحلٍ وحيد يمكن المرء من التعايش مع واقعه المزري، وكنت أرى هذا مبرراً.

في سوريا بإمكانك أن ترى فتاة بالشورت، وأخرى بالحجاب أو النقاب، وأن ترى سيارات الشبح المعروفة بغلاء أسعارها، والتكاسي العمومية، وميكرو باصات النقل الصغيرة الشبيهة بعلب سردين تخنق ركابها، وأن ترى قصوراً فخمة وبيوت في مناطق جاوز غلاؤها أغلى بيوت العاصمة باريس، وبيوتاً مشلوحة في العشوائيات وأحزمة الفقر. وتقلصت الطبقة المتوسطة كلياً مما أبرز الفروق بين الناس.

في سوريا كنا ندعو الناس إلى القراءة، ونناقش هذا الموضوع في برامجنا، إلا أن أحدنا لم يجرؤ لمرة واحدة على الحديث عن السبب الرئيسي لذلك: الفقر والفساد. لم يكن المواطن السوري اللاهث لتأمين لقمة العيش لأطفاله معنياً بشراء كتاب، ولم يكن جيل الشباب الذي تابع تجارب المثقفين الفاشلة واضطهادهم من قبل النظام السوري مؤمناً بدور الثقافة. وكنت أنا واحدة منهم بعد أن رأيت كيف كان السطحيون وعديمو الثقافة يستلمون المناصب، فيما يقبع المثقفون في السجون أو في منازلهم دون عمل.

صديقي مجد الذي كان يعمل طبيباً براتب حكومي، كان يستدين منذ مطلع الشهر، لسداد أجرة بيته، وهرم قبل أن يطبع ديوانه الوحيد، فيما كان الذين ارتقوا المناصب يجوبون شوارع وزارة الثقافة والاعلام... ألحت عليّ منى أن أرافقها إلى المشعوذة لتربط زوجها، فوافقت على أمل أن أتمكن من تخفيف ألمها، ورغبة مني أيضاً في اكتشاف عالم جديد.

*****

يوم رأس السنة الميلادية جاء باهتاً وحزيناً ومجنوناً، مثل كل الأشياء المحيطة بنا، وقبله بساعات فقط وصلني نبأ إصابة أحد زملائي المحررين في الإذاعة برصاصة طائشة. كان الموت يقترب أكثر فأكثر، وكنت أنا أقترب من الجنون بخطى سريعة. عند سماعي لنبأ تعرض زميلي المقرب شكري أبو برغل للإصابة ونقله إلى العناية المشددة، كانت ردة فعلي باهتة، وأعتقد اليوم حين أتذكرها أنها كانت أبرز علائم جنوني، فقد حزنت قليلاً، واتصلت أكثر من مرة بزملائي المحررين للسؤال عن وضعه الصحي، إلا أن شيئاً إنسانياً في داخلي كان قد مات. وبدا واضحاً أن الموت أصبح شيئاً اعتيادياً بالنسبة لي، كالجنس بعد حياة زوجية طويلة نمارسه بدون دهشة.

في الحقيقة كنت قد بدأت أتأقلم نفسياً مع الفكرة، وأستعد بيني وبين نفسي لتلقي نبأ وفاة أقرب الناس إلي. هل تدركون كم هو صعب ومجنون هذا الشعور؟؟ أن نكون واقفين على الخط الفاصل تماماً بين الحياة والموت، كراقص سيرك بهلواني يسير على الحبل. أيّ فقدان للتوازن يعرضه للسقوط والاصطدام بأرض السيرك والموت. نحن السوريين كنا نصعد واحداً واحداً على هذا الحبل، وكل واحد فينا يترقب سقوطه أو سقوط غيره، هكذا كانت اللعبة تستمر إلى ما لا نهاية، والفارق الوحيد أننا لم نكن نصفق بل كنا نبكي.

شكري أبو برغل كان زميلاً ودوداً، بديناً، سمح الوجه، طيب الطبع. قضيت برفقته ثلاث سنوات في منظومة التحرير، نتبادل فيها الأحاديث والقهوة، أصيب برصاصة طائشة اخترقت عينه اليسرى ونقل إلى العناية المشددة، شكري لم يكن ماراً لحظة حدوث انفجار مفاجئ، شكري كان في منزله في داريا، يكتب شيئاً ما للإذاعة حين سمع صوت رصاص قريب، فدفعه الفضول الصحفي إلى رؤية ما يجري، اقترب من النافذة، فأصابته الرصاصة، رصاصة واحدة مجنونة، لم يحتج القدر العابث إلى رصاصتين كي ينهي حياته.

كانت قوى الأمن مصممة على القضاء على ثورة داريا التي لم تطفئها الاعتقالات والقتل، إلا أن الإعلام السوري كان مصراً على وصف المشهد بالهادئ، وأنه يسيطر على المكان وعلى فلول من كان يسميهم إرهابيين. ويبدو أن الحيلة انطلت على شكري، فلم يغادر داريا كما فعل بعض الزملاء في الأماكن الأخرى الثائرة التي غمرها النظام بالرصاص والقذائف والموت. شكري الطيب مات بعدها بأيام، ولم يستطع أحد التأكد من مصدر الرصاصة، في ظل تواجد أمني كثيف لقوى الأمن والذي يرجح أن يكون رصاصهم الطائش هو السبب.

طبعاً الاعلام السوري جيَّر الموضوع لصالح النظام، مستغلاً دموع أهل الزميل الشهيد. وتصدر النبأ نشرات الأخبار: "الارهاب بقتل شكري أبو برغل"، أما شكري فكان قد مات غير مكترث بمعرفة مصدر الرصاصة، وغير مكترث لاتهامات النظام للمعارضة بالإرهاب، مات فقط، وترك خلفه أولاداً ايتاماً وزوجة أرملة. من مفارقات وعبث الأقدار أني قبل أيام من هذا الحادث، صادفت شكري أثناء مروري في ممر الإذاعة ومازحته قائلة: "عليك أن تخفف وزنك، لأن زيادة الوزن قد تعرضك للجلطات والموت". فضحك بطيبته المعهودة وأجابني:

- أجل هذا ضروري، ولا سيما أن أخي توفي قبل فترة بالجلطة، ويبدو أنها سمة وراثية في العائلة.

ضحكنا وتواعدنا أن نلتقي، هو لم يمت بالجلطة أو البدانة، مات برصاصة، وأنا بقيت أراقب بجنون لعبة الراقص والحبل، وأنتظر سقوط المزيد من البهلوانيين.

في يوم رأس السنة رفضت السهر مع أصدقاء صلاح، واقترحت عليه أن نبقى في المنزل كما فعل معظم السوريون ليلتها، باستثناء الثوار الذين احتفوا به في شوارع المدن الثائرة، والأموات الذين احتفوا به في القبور.

كانت ليلة حزينة، إلا أني تأنقت كعادتي في أيام المناسبات، وارتديت ثوباً جديداً كنت قد اشتريته قبل يومين خصيصاً لهذه المناسبة. أعجب زوجي بثوبي، وقدم لي هدية رأس السنة طقماً جديداً من المجوهرات، واحتسينا الوسكي، وتابعنا تنبؤات العالمات الفلكيات على المحطات العربية، وهي عادة كانت شائعة في الاعلام العربي في ليلة رأس السنة الميلادية. وتنبأ معظمهن ببقاء بشار الأسد في سدة الحكم، بعدها بدأ تأثير الخمر بالسريان في أجسادنا، فتعانقنا ومارسنا الحب كحيوانين هاربين من حديقة الجنون، ونمنا ونحن نلهث من النشوة والتعب.

لم يزعجني بقاء صلاح إلى جانبي في تلك الليلة، خوفاً عليه من الخروج في الليل. ورغم كل الحزن المحيق أطلق بعض الأهالي في جرمانا ألعاباً نارية، أعادت قليلاً من الألق لهذه الليلة المثقلة برائحة الرصاص وأنفاس المشردين السوريين في مخيمات العراء.



27

قدت سيارتي برفقة منى، باتجاه بيت العرافة الشهيرة في الغوطة، وكان ضرباً من الجنون أن نذهب في تلك الظروف، إلا أننا اخترنا فترة الصباح حيث يستيقظ الناس وتزيد حركتهم، وتظهر حواجز الجيش المدججة بالعناصر والسلاح بوضوح ممّا يخفف فرصة وقوع مواجهات مباشرة بينهم وبين الثوار.

كان الثوار يختارون الليل للتسلل والاختباء بين أشجار بساتين الغوطة ومهاجمة السيارات الأمنية، والحواجز، وتهريب الغذاء والدواء والسلاح للمناطق المحاصرة، وكان الليل فرصة أيضاً لقطاع الطرق واللصوص الذين وجدوا فيه ضالتهم لمهاجمة السيارات العابرة وسرقتها تحت اسم الجيش الحر.

وانتشرت الأحاديث بين أهالي جرمانا عن جماعات تقوم بسرقة الناس. كانت هذه الإشاعات كفيلة بمضاعفة حجم الخوف الناجم في الأصل عن الانفجارات المتتالية، وأخبار الموت في المدن الثائرة، مما جعل التنقل في الليل ضرباً من الجنون.

روى لي أحدهم أنه كان في مكتبه الحكومي في إحدى البلديات في ريف دمشق حين اقتحمت عناصر من الجيش الحر المكان نهاراً، وأكد لي أنهم أخذوا السيارات الحكومية التابعة للبلدية، إلا أنهم تركوا سيارته الخاصة دون أن يقتربوا منها، وأنهم لم يؤذوا أحداً في المكان، وانسحبوا بهدوء بعد أن أخذوا غنائمهم من السيارات الحكومية.

قدّتُ سيارتي باتجاه بلدة المليحة المقفرة نسبياً، واجتزنا الطرقات المؤدية إلى قرية تلك العرافة، كانت حواجز الجيش موجودة في بداية ونهاية كل شارع، ألقينا عليهم التحية، فابتسموا لنا، وتكشفت أسنانهم الصفراء الفقيرة، وبدا عليهم الاستغراب من مرور امرأتين سافرتين وأنيقتين في هذه الأماكن.

كان كلبي "جوي" بصحبتي، وأطل برأسه من النافذة مما يدفع عناصر الجيش للضحك، وتركي أمُرُّ دون أي تفتيش أو مضايقة. كان مظهرنا أنا ومنى وحمـــرة شفاهي ووجود كلب في السيارة ينفي أي شك بأننا قد نكون إرهابيين.

وصلنا إلى بداية الطريق المؤدي للقرية، كان موحشاً وطويلاً وضيقاً وتتفرع منه عدة طرقات جانبية. كنا خائفتين، وتوقعنا رؤية عناصر من الجيش الحر فـــي أية لحظة، وأعترف أني كنت خائفة من أن يكتشفوا أني مذيعة وعلويـــة، فيثـــور سخطهم وغضبهم ضدي، لأن تعميماً ظالماً اتهم أبناء الطائفة كلها بدعمهم للنظـــام في وحشيته. رغم الخوف مازحت منى: إذا خطفنا اليوم، فسترتاحين من زوجـــك نهائياً، وقد يتزوجك أحد عناصر الجيش الحر، وتقعين في غرامه.

دقائق قليلة بدت كأنها ساعات، إلا أن السحر كان ضـــرورياً. فـــي بدايـــة الطريق المؤدي إلى البلدة لمحت فتية صغاراً، فطلبت منهم أن يرشدوني إلى بيـــت العرافة، رافقني أحدهم في السيارة. فشعرت بالأمان. لم ألمـــح أي حركـــة غيـــر طبيعية، فقط بضعة كلاب شاردة تبحث عن طعام. كانـــت بيـــوت القريـــة بـــشعة وجدرانها اسمنتية ولونها رمادي كئيب، وطرقاتها موحلة وقديمـــة ومحفـــرة، ولا تحتوي أي أثر للمدنية، كقطعة منسية وبائسة.

اضطررنا إلى الالتفاف من أكثر من طريق بسبب الحفريات القديمـــة، ثـــم وصلنا إلى بيت العرافة الذي كان خالياً إلا من بعض نسوة القرية على عكس عادته قبل وصول الاضطرابات إلى الغوطة، حيث كان يزدحم بالنساء القادمات من كـــل مكان، كما أكدت لنا النساء الحاضرات.

جلسنا في غرفة فسيحة، وتوسدنا الأرض المفروشة بالسجاد العجمي وبعض الفرشات الاسفنجية للجلوس. لمحت في زوايا الغرفة أواني زجاجية كبيـــرة مليئـــة بأنواع مختلفة من الأعشاب والبخور، وأواني فخارية مغلقة لم أتمكن من رؤية مـــا بداخلها، ولم أجرؤ على فتحها. وكانت الجدران مليئة بالآيـــات القرآنيـــة. نزلـــت

العرافة أم محمد من الطابق الثاني المخصص للسكن، إلى الطابق الأرضي المخصص لاستقبال النساء القادمات للسحر وكشف أسرار أزواجهن، أو رؤية ما يخبئه لهن المستقبل، وفتح نصيبهن إن كن عازبات، ودخلت إلى الغرفة بِطلَّتْها السحرية. شعرها كان قصيراً ومصبوغاً بالأشقر، عيناها مراوغتان وحادتا الذكاء، وعلى شفاهها حمرة وردية اللون.

عند حضورها بيننا، صمتنا أنا ومنى فيما استلت هي بضعة أوراق وكتاباً، وبدأت بأسئلتها لمنى، عمرها وعمر زوجها، اسم والدتها ووالدته، ثم أكدت لمنى أن زوجها يخونها، وطلبت من منى أن تحضر شيئاً من أثره. صديقتي المثقفة اليائسة كانت قد استعدت لهذه اللحظة، وأحضرت معها رداءً داخلياً لزوجها، فطلبت العرافة منها مبلغاً نقدياً أخذت نصفه، ووعدتها أن تنجز لها السحر خلال أسبوع. ألحينا عليها أن تقوم بإرسال السحر مع أحد أبنائها إلى ضاحية جرمانا القريبة حيث أسكن، لأنه لم يكن سهلاً أن نعيد هذه الرحلة، فوافقت، وودعتنا بود، وأرسلت معنا ابنها الشاب كي يرافقنا في طريق العودة بعد أن أشفقت علينا.

لن أكذب وأقول إني لم أسألها عن وضعي، بل سألتها، وأكدت لي أن صلاح يحبني حد الجنون، وأنني لست في حاجة إلى شيء، إلا إن كنت أريد صنع حجاب يجلب الحظ في العمل، فضحكت، وأجبتها أني قد افعل ذلك في وقت آخر. أذكر جيداً أني سألتها عن الأوضاع في سوريا فأكدت لي أنها لن تهدأ قريباً.

خرجت أنا ومنى ككلبين مذعورين وسعيدين بهذه المغامرة، كنا نضحك ونمازح ابنها طوال الطريق، إلا أنه لم ينبس ببنت شفة: كان ممتعضاً من وجود كلبي في السيارة، على عكس الصبي الذي رافقنا في البداية والذي كان سعيداً جداً. كانت كل نساء هذه القرية منقبات، ويتسمن بالبساطة، وهذا ما لمحته في شخصيات النسوة المتجمعات في بيت الشعوذة أو الشيخة، واللواتي أكدن لي أنها ذائعة الصيت، وأنها زوَّجت كل عوانس البلدة، وأن الكثير من الممثلات المعروفات يجئن لزيارتها، وهو أمر أكدته لي هي بنفسها.

وهكذا انتهت رحلتنا إلى المشعوذة، إلا أن طقوساً أخرى جديدة كـــان علينـــا فعلها فيما بعد لاستكمال السحر. في الحقيقة كنت لا أؤمن بالسحر، إلا أني أجد فيه فكرة مدهشة وابتكاراً رائعاً أضافه العقل البشري إلى قائمة ابتكاراته لكي يــضيف صبغة من الإثارة والجمال إلى تفاصيل واقع يعج بالشقاء.

وأعترف أني كنت مغرمة بعالم الخيال بدءًا من فكرة التناسخ عبر الأجيـــال، إلى فكرة وجود أرواح تحوم حولنا، وجانّ يعيشون في الطوابق السفلية لمنازلنـــا، وطاقات خفية تستطيع تغيير الأقدار، ومشعوذين يستطيعون إعادة الغائبين، وحـــب يستطيع أن يسحر العالم من حولنا ويجعله أجمل، وأني أجد الأدب جزءاً لا يتجـــزأ من هذا العالم، فكل الروايات عالم منسوج من خيال كُتّابها، حتى لو اعتمدت علـــى تفاصيل واقعية.

كثيراً ما كانت صديقاتي يتهمنني بأنني امرأة تعيش في عالم خيالي، وطالبنني أن أكون واقعية. أنا كنت سعيدة بشرنقة الخيال التي نسجتها حول نفسي كي أتمكن من العيش، وكنت امرأة من شخصيتين، واحدة تدرك الواقع اللامادي تماماً، وتعمل باجتهاد كي تؤسس مملكة مالية صغيرة تحميها من العوز والتقتيـــر، وأخـــرى لا ترغب بشيء سوى بالحب وقراءة الأدب والاستماع إلى الموسيقا الجميلة، والنـــوم في أحضان الطبيعة، والاستمتاع بالشمس أو النجوم وقبلات كلبي البديع "جوي".

☆☆☆☆☆

في صباح يوم الجمعة الموافق 2012/1/6 لم تستفق دمشق على الحب بـــل استفاقت على انفجار شديد أشد وطأة من السابق، وهذه المرة حدث الانفجـــار فـــي منطقة مأهولة بالسكان في حي الميدان قبل انطلاق المظاهرات. وذكر التلفزيـــون السوري أن "انتحارياً" فجر نفسه قرب إشارة ضوئية مما أدى إلى استـــشهاد ســـتة وعشرين بينهم أشلاء لم يتم التعرف على أصحابها، وجرح العشرات، غالبيتهم من

المدنيين، وأن الانفجار استهدف مركزاً لقوات حفظ النظام في حي الميدان، قــرب مخفر الشرطة في المنطقة المجاورة لجامع الحسن المشهور بخــروج مظــاهرات معارضة منه. وكعادتي يوم الجمعة كنت في المنزل إلى فترة ما بعد الظهر، وفــي لحظة سماعي للنبأ من منى عبر الهاتف، ركضت وأدرت التلفاز كي أتابع الصور، وكنت أخشى من رؤية وجه أعرفه، ورغم كل الموت الذي كنا نعيشه، بدا المــوت في الانفجارات شكلاً مبتكراً وجديداً.

هذه المرة أيضاً تابعت الصور التي بثها التلفزيون السوري، وتناقلتها عنــه الفضائيات الأخرى، إلا أنها لم تعرض الصور كلها، وحده الإعلام السوري كــان حريصاً على جعلنا نرى التفاصيل: زجاج مكسور ومتنــاثر، أشــلاء لحــم نــيء متناثرة، قطع أجساد صغيرة ومفتتة، أصابع أيدي وأرجــل، جــزء مــن النخــاع الشوكي، لحم مفروم ومهروس كأنه كان في فرامة لحمة، دماء على الأرض لم تكن مشوية هذه المرة بل كانت طازجة، عناصر أمن وشبيحة تجمعــوا فــي المكــان، وجمعوا نتف اللحم في أكياس نايلون بيضاء، وبدأوا بعرضها أمام الكاميرات. على أرض الشارع بقايا أكياس حليب ولبن اشتراها الأحياء قبل الانفجــار لعــائلاتهم، ليفطروا معاً بعد صلاة الجمعة، وباص للشرطة تناثرت فيه قطع لحــم وخــوذات حماية الرأس ودروع حماية الصدر من الحجارة التي تستخدمها عناصر الــشرطة أثناء قمع التظاهرات السلمية.

كان أهالي حي الميدان خائفين ومضطربين وغاضبين، واستغل التلفزيــون الحادث، وصوّر اضطرابهم، وأجرى معهم عدة لقاءات تشتم الحرية وتُعيد العبارة الشهيرة التي كررها التلفزيون السوري مراراً والتي أصبحت مثار ســخرية فــي أوساط المعارضين والمثقفين والعبارة هي: هل هذه هي الحرية التي تريدونها؟ في إشارة إلى أن طلب السوريين للحرية هو الذي تسبب بهذا. جيّر الاعلام الــسوري الانفجار لصالح النظام، واتهم هذه المرة رجلاً انتحارياً دون أن يظهر – كالمعتاد – أي تفاصيل موضوعية عن هذا الانتحاري.

كنا كسوريين متابعين للموت من مسافة ليست بعيدة، نتصل ببعضنا بعد كل انفجار، لنطمئن أننا على قيد الحياة، كأن الحياة أصبحت امتيازاً جديداً لم نكن نشعر بقيمته في الأيام العادية الرتيبة، وبعد هذا الانفجار الثاني والذي وقع في وجود بعثة مراقبي الجامعة العربية، أصبح كل خروج من المنزل هو مغامرة في لعبة المـوت المفتوحة الاحتمالات، إذ لم يكن ممكناً تحديد وقت الانفجار أو مكانه أو طريقتـه. وبدأنا نشعر جدياً بأننا مهددون بفقدان المتبقي من أعمارنا، وأن الحياة هي شـيء سريع الزوال، قد تنسفه رصاصة رخيصة الثمن أو خلطة مـواد متفجـرة رديئـة الصنع، أو جلطة دماغية بسبب التوتر والحزن. كنا أحياء، نعـم.. إلا أننـا كنـا محاصرين بشعورنا بالعجز حيال شهداء ومشردي الثـورة، وحيـال الانفجـارات المجنونة أيضاً.

بعد انفجار الميدان وفي 2012/1/10 ألقى بشار الأسد خطاباً مطـولاً فـي جامعة دمشق أكد فيه أن المؤامرة شارفت على الانتهاء. ثم دعت الأجهزة الأمنيـة أعوانه من المؤيدين إلى تنظيم تظاهرة حاشدة في ساحة الأمويين في 2012/1/11.

اتصلت مديرتي بي لتكليفي بنقلها، فاعتذرت وتذرعت بأنني مريضة، وبأنني سأتعرض للتعب إذا ما ذهبت لتغطية المسيرة في فترة الصباح، ثم عـدت لتقـديم برنامج السهرة.

كان يوم أربعاء، وكان المؤيدون والشبيحة قد احتشدوا في ساحة الأمـويين، إلا أن أعدادهم لم تكن كبيرة ولم تتجاوز المئات، لأن أبناء المحافظـات المؤيـدة (حسبما أعتقد) لم يكونوا قادرين على السفر والوصول إلـى دمـشق فـي ظـل الاضطرابات التي شهدتها طرقات السفر، بسبب انتشار الجيش الحر في أكثر مـن مكان. وأعتقد أيضاً أن السبب في ذلك إجراءات احترازية من قبل عناصر الأمن لم نكن على علم بها، لأن إشاعة سرت أن الرئيس سيلقي خطاباً في الساحة، وهذا ما حدث، فاجأ بشار الأسد الجماهير المؤيدة، وألقى خطاباً أكد فيه أن المؤامرة أوشكت

على الانتهاء، عرض التلفزيون الخطاب كاملاً قائلاً إنها مسيرة مليونيـــة، وبــثّ صوراً بدت فيها ساحة الأمويين ملأى بالحشود كلياً.

أحد الموظفين في التلفزيون، صوَّر المسيرة عبر جهازه الخليوي المحمــول وسرب الفيديو إلى المعارضة، التي بدورها بثته في القنوات العربيــة وصــفحات التواصل الاجتماعي، وبدا واضحاً للعيان أن الأعداد التي برزت في خطاب الرئيس هي صورة ملفقة، تم التلاعب بها عبر المونتاج لاعطاء الانطباع بأن الساحة مليئة، وأن بشار ما زال يحظى بشعبيته. وانتشرت قصة الحــشود الملفقــة فيمــا يــشبه الفضيحة كدليل جديد على كذب النظام الذي كان رئيسه حذراً جداً في تلك الفتــرة في الظهور بين الناس خوفاً من رصاصة مواطن غاضب.

الموظف الذي صور الساحة من نافذة مكتبه المطلة على ساحة الأمويين ككل غرف القسم الأمامي من المبنى، سرب الفيديو بسرية تامة، إلا أن جهــاز الأمــن السوري استنفر وحقق مع معظم العاملين المشتبه بولائهم في المبنى، ومــن ســوء حظ هذا الموظف أن زاوية التصوير في الفيديو ومسافة التصوير كانت قادرة على كشف المكتب الذي التقطت منه الصورة. اشتبه عناصر الأمن المدربون على الشم كالكلاب البوليسية بمهندس اسمه سعيد ديركي، واعتقلوه أثناء خروجه من العمــل، وأخضعوه للتعذيب في سجون المخابرات، رغم أنه أكد أن لا علاقة لــه بالقــصة، ورغم أنهم لم يجدوا أي دليل ملموس في جهازه الخليوي، ورغم أن التصوير ليس تهمة يحاسب عليها القانون.

كانت حادثة اعتقال سعيد درساً تأديبياً لنــا نحــن العــاملين فــي الإذاعــة والتلفزيون، كي لا نفكر للحظة بمعارضة هذا النظام أو كشف كذبــه. ولا أخفــيكم أنني توترت كثيراً وشعرت بالخوف عندما علمت بالأمر، لأني بيني وبين نفــسي وفي دوائر الأصدقاء كنت قد بدأت أفكر جدياً بالرحيل.

❋❋❋❋❋

كان الوقت ظهراً، وكانت الأجواء هادئة في جرمانا، باستثناء بعض أصوات الرصاص التي كنا نسمعها في الليل قادمة من الغوطة القريبة منا، والتـي سـتزيد تدريجياً حتى تتحول إلى أصوات قذائف تسبه الكابوس.

اتصلت بنا المشعوذة، أم محمد وأعلنت أنها أنجزت السحر، وأعلمتني أنهـا سترسل ابنها لملاقاتي، فقدت سيارتي لاستقباله بفرح من يذهب إلى حفلة انتصار: صديقتي ستتمكن أخيراً من قمع تمرّد زوجها وخياناته. التمائم السحرية كانت عبارة عن خلطة مواد غريبة رائحتها نفاذة موضوعة في إناء خزفـي جميـل مغطـى، ومجموعة من الأحجبة والأوراق المليئة بالطلاسم، وورقة تشرح فيهـا المـشعوذة كيفية أداء العملة.

كان مطلوباً من منى أن تضع حجاباً في حوض زريعة محددة النوع، وواحداً فوق باب الدخول إلى المنزل، وثالثاً في وسادة نومها هي وزوجها، ورابعـاً فـي صدرها. وبعد الانتهاء من مهمة توزيع الحجابات، كان مطلوباً أن تغمر الأعشاب والخلطات بماء يضاف إليه ماء الورد وروح القرنفل وأشياء أخرى لم أعد أذكرها، ثم أن تضع الإناء المخصص لتحمل الحرارة العالية، وتبدأ بترداد قائمة طويلة من أسماء ملوك الجان الذين سيساعدونها في مهمتها.

كرّرت منى العملية على مدى خمسة عشر يوماً كما كان مطلوباً، فـي كـل مرة تشعل البخور والشموع وتتعرق أمام طنجرة الفخار التي تغلي وتغلي وتكـاد تنفجر، وتكابد عناء اختناقها أمام حرارة ورائحة المواد المنفِرة النابعة من الإنـاء تحت أنفها مباشرة.

المهمة الأخيرة من السحر كانت الأصعب، حيث كان مطلوبـاً نقـع أوراق الطلاسم لمدة ساعة في ماء معطر بماء الورد وسكبه في إناء، ورشّه علـى أرض مقبرة. طلبت منى أن اقلها بسيارتي كي لا يراها زوجها صـدفة، فيفتـضح أمـر

مؤامرتها، فاضطررت إلى مرافقتها على مدى أسبوع كامل إلى مقبرة الدحداح في شارع بغداد لإكمال السحر.

كنا نذهب مساءً كي يخفي الظلام جريمتنا البريئة، نجتاز الطرقات القليلة الحركة، رغم سيطرة النظام عليها في ذلك الوقت كباقي شوارع المدينة الرئيسية، نلمح سيارات الإسعاف ونسمع أصواتها المتوترة، ونرى بوضوح سيارات أمن مسرعة وأخرى واقفة في مناطق محددة لمراقبة الطريق. نتجاوز كل تلك المنغصات البسيطة، ونوقف السيارة بجانب المقبرة. أنا أبقى في السيارة ومنى تحمل زجاجة الماء، وتتوجه إلى المقبرة بحذر وخجل. تدخل من بابها الأمامي وترش الماء فوق تراب الأموات، وتقرأ تعاويذ محددة، ثم تعود كلصٍ حذر بعد سرقة متقنة.

قضيت أسبوعاً كاملاً في هذه الزيارات للمقبرة، وكأنه كان ينقصني رؤية مقابر إضافية جديدة غير المقابر الجماعية للثوار والجنود المنشقين والمدنيين من ضحايا الانفجارات. كان الكون متواطئاً ضدي ومصمماً على إقحامي في لعبة الموت إلى حدها الأقصى، ووضعي على عتبة تجربة جديدة في الحياة التي تعتقدون أنتم الأحياء الآمنون بأنها مستمرة دون أي خطر يذكر، واعذروني هنا، إذا كنتم كذلك، فأنتم حمقى.

ضحكنا، أنا ومنى بشكل هستيري يشبه البكاء عند انتهائنا من أداء هذه الطقوس المجنونة، نحن الصحفيات العلمانيات الهشّات في مجتمع الذكورة.

*****

هيه! أنتم أيها الأحياء، هل تعتقدون أنكم تستطيعون العيش طويلاً بمأمن من غسيل الروح من الدرن؟ هناك دائماً في مكان ما مختبئ في دروج ذاكرتكم أو

أحلامكم فرصة للسقوط عن عتبة الاتزان، وهمّ متراصف وثقيل يشبه ألم الاحتكاك للحواف الحادة والناعمة والساخنة لزجاج مكسور وملصق قسراً. حركة واحدة كفيلة بالتهاوي. خلف هذه النثرات تختفي أرواحكم، تعتقدون أنها في مأمن، لمسة مباغتة من طفل يداعب وجهكم أو ورقة رهيفة تهر من شجرة خريفية أليفة قد تقطع الخيط المهترئ في ثقب الابرة فينفرط الهواء. هل تعتقدون أنه الضوء؟؟

علب الحلوى الفارغة وصحون العشاء النائمة فـــي المجلـــى كقطــط الليــل الخائفة، وأطياف أحاديثكم الصامتة وأحلامكم المعلقة كقمصان رخيصة على مشجب ذهبي!

صلبة هي هذه الهشاشة، كم نحتمي بها كي ندرك أننا حمقى! كم من الوقــت يحتاج الكائن البشري كي يتمكن من الرقص على حبال الدم دون موسيقا الألم، أو حتى دون قدمين؟؟

اسألوا أنفسكم قبل أن تغلقوا الباب خلف ظل الحقيقة.

* * * * *

28

في اليوم التالي لخطاب بشار الأسد في ساحة الأمويين، استيقظت عند الساعة الثامنة إلا ربع صباحاً كعادتي كل يوم خميس، ارتديت ملابسي بشكل سريع، وخرجت من المنزل، وتركت "جوي" الذي كان ما يزال قليل الذكاء تحت تأثير الاستيقاظ المفاجئ من النوم.

انطلقت في سيارتي، كان الطقس بارداً، وشهدت شوارع جرمانا يقظة جميلة وبريئة وممتعة، بدأ الناس أنقياء وطيبين وحالمين، بعد أن غسل الليل أدران اليوم الفائت بخيباته وسعاداته وأحزانه وشروره وخطاياه. وكان عمال النظافة يكنسون الشوارع والهموم، وموظفو الدوام الباكر والعمال يهرعون إلى أعمالهم، وطلاب المدارس الصغار والكبار يتوجهون إلى مدارسهم في قوافل تشبه أسراب النحل النشيط. كانت طفولتهم البريئة معرضة للانتهاك في أية لحظة في ظل استمرار كابوس التفجيرات.

وقفت عند بائع قهوة على يمين الطريق الخارج من جرمانا، اشتريت منه الحليب بالنسكافيه المعتاد، وانطلقت مجدداً في سيارتي، مع صوت فيروز العذب، الهواء البارد والمنعش المتسرب من النافذة المفتوحة، وسيجارتي. حركة المرور عند الساعة الثامنة تبدو خفيفة دائماً لتزيد بشكل واضح عند الثامنة والنصف حيث ينطلق معظم الموظفين وأصحاب المحلات إلى أعمالهم. ومن خلف نوافذ السيارات والميكرو باصات العابرة تسرَّب الحزن من العيون المستيقظة حديثاً، وغلَّف الصباح بلون هادئ، رفعت صوت فيروز عالياً، وفتحت النوافذ كي ينتشر صوت الغناء والأمل في الخارج: كنا مضطرين لمواصلة العيش رغم كل الدمار المحيق.

كان عدد حواجز الطرقات قد ازداد، ورغم حرص عناصر الأمن على تفتيش معظم السيارات، لم يفتشوني إطلاقاً. كانوا يتفرسون في وجهي، ويدعونني أعبر

بكل سلاسة، ولا أعتقد أن السبب في ذلك هو معرفتهم لوجهي، بل ثقتهم أن فتـاة سافرة وترتدي على الموضة، وتضع أحمر شفاه لا يمكن أن تكون امرأة معارضة، بما أن الفكرة الرائجة عن نساء السياسة هي الجدية المفرطة، وتقطيبة الجبين وعدم الاهتمام بالمظهر الخارجي. لم يتوقع أحد أن تكون امرأة بشعر أسود طويل، ووجه أبيض، وحمرة شفاه، وخاتم الماس، امرأة ثائرة، رغم أني لطالما اعتبرت الجمـال شكلاً من أشكال الثورة ضد القبح في العالم.

وصلت إلى مبنى الإذاعة. أمام باب الدخول، تفحص عنصر الأمن سـيارتي من أسفلها بمرآة موصولة بقضيب معدني طويل لكشف وجود المتفجرات في حال تم وضعها من قبل أحدهم، لاستغلال سياراتنا نحن الموظفين لإحداث تفجيرات في الهيئة. دخلت ووجدت مكاناً سريعاً لسيارتي بين أعداد السيارات القليلة الواصـلة، مشيت باتجاه الاستديو، ولم ألمح وجوداً لعناصر حفظ النظام الذين كانوا يغـادرون في الليل للنوم في ثكنات قريبة أحدثها النظام على أرض معرض دمـشق الـدولي القديم والقريب من مبنى الإذاعة والتلفزيون. طلبت مجـدداً كوبـاً مـن الحليـب والنسكافيه أثناء مروري من أمام غرفة البوفيه الملاصقة للمصعد الخلفي، توجهت إلى الاستديو.

أحضرت لي مساعدة المخرج اللطيفة موجز الأخبار، فأذعته عنـد التاسـعة تماماً، وقرأت فيه نبأ استشهاد جيل جاكييه الصحفي الفرنسيّ ومراسل القناة الثانية في التلفزيون الفرنسيّ. وكان النبأ كالتالي: "في محاولة لتغييب الصورة الحقيقية لما يجري من أحداث .. إرهابيون يستهدفون بقذائف الهاون وفداً إعلامياً أجنبياً وتجمعاً للمواطنين في عكرمة بحمص، مما تسبّب باستشهاد 9، بينهم صحفي فرنسيّ وجرح 25 بينهم صحفي بلجيكي".

قرأت الخبر، وأدركت أن النظام سيستغله أبشع اسـتغلال لتـشويه صـورة الثورة أمام المجتمع الفرنسيّ والغربي. وهذا ما حدث، ركز التلفزيون على الخبـر متعهماً العصابات المسلحة كما أسماها، دون أن يقدم أي دلائل على ذلك. الجـيش

الحر نفى ذلك كلياً متهماً النظام بتدبير العملية، واليكم التفاصيل التي نشرها الاعلام السوري في ذلك الوقت، كما جاء على وكالة الأنباء السورية الرسمية التي كانت المصدر الرئيسي لأخبارنا:

حمص – سانا – الخميس 2012/1/12

أقدمت مجموعة إرهابية مسلحة على إطلاق قذائف هاون على وفد إعلامي أجنبي وتجمع للمواطنين المتضررين من الإرهاب في حي عكرمة بحمص ما أدى إلى استشهاد 9 أشخاص بينهم صحفي فرنسيّ، وإصابة عدد من المواطنين وصحفي بلجيكي بجروح. وأفاد مراسل سانا بحمص أن الإرهابيين أطلقوا قذائف الهاون على وفد إعلامي أجنبي في الوقت الذي كان يطلع فيه الوفد على أضرار القذائف التي سقطت على بعض الأبنية من قبل الإرهابيين، وإجراء مقابلات مع عدد من المواطنين المتضررين على آثار الدمار والخراب الذي خلفته المجموعات الإرهابية المسلحة بعدد من الأبنية في حي عكرمة، ما أدى إلى استشهاد 8 مواطنين والصحفي الفرنسيّ جيل جاكييه مراسل فرانس 2، وإصابة 25 آخرين بجروح بينهم صحفي بلجيكي. وذكر المراسل أنه تم نقل المصابين إلى مشفيي النهضة والزعيم بحمص لتلقي العلاجات الطبية اللازمة. وأفاد المراسل في وقت لاحق أن الصحفي البلجيكي كانت جروحه طفيفة، وغادر المشفى بعد معاينته.

استشهاد جيل جاكييه جيّره النظام ضد الثورة كلياً، إلا أن جيل جاكييه جير استشهاده لرؤية الحقيقة، ولا أستطيع إلا أن أنحني أمام شجاعته الأسطورية هو وكل الصحفيين الذين تحدوا الموت، ودخلوا إلى المناطق الساخنة التي لم نكن نجرؤ نحن الصحفيين السوريين على دخولها. "جيل" أصر على الدخول إلى حمص رغم تحذيرات النظام للصحفيين الأجانب من مغبة الدخول، وهي حجة استخدمها مراراً كي لا يسمح للصحافة الغربية والعربية أن ترى الحقيقة. ويبدو أنه عند وفاة جيل الغامضة، وجد فرصة لتأكيد ادعاءاته، وإثبات نظريته، إلا أن زيارات الصحفيين الغربيين السرية للأماكن الثائرة، والحرص على سلامتهم من قبل الجيش الحر،

تجعلني أشك في رواية النظام التي دحضتها أيضاً شهادات زملائه السويسريين الذين رأوا أنها كانت فخاً معداً من قبل النظام نفسه.

اختتمت فترتي على الهواء، ثم عدت إلى بيتي مسرعة كالبرق كي أحتضن كلبي العزيز، وأضمه بين ذراعيي كطفل. أخاف من بقائه وحيداً إذا ما مت في انفجار مفاجئ في بلد لا يؤمن بحق الإنسان، ولا بحق الكلاب طبعاً بالعيش.

*****

لعينيَّ جيوب أكرهها كثيراً، ورثتها من أمي، وفكرت في إزالتها بعد أن رأيت النتائج الناجحة على عيون صديقاتي الممثلات اللواتي أجرينها. وبما أن الجنون كان يحيط بي من كل حدب وصوب، وجدت في العملية فرصة مناسبة للهروب مجدداً من عالم الواقع. وهذا ما كنت أفعله منذ بداية الثورة كي لا أجن بشكل كليّ، كنت أحاول جاهدة أن أتغابى، أن أكون امرأة سطحية وسخيفة لا تفكر إلا في صلاح وكلبها وشكلها وفي تفاصيل، هي ترف عاهر أمام البلاد النازفة، إلا أنها كانت السبيل الوحيد للمحافظة على ما تبقى في رأسي من عقل.

اتفقت أنا وطبيبي على موعد، وأخذت إجازة مرضية لمدة اسبوعين مددتهما فيما بعد إلى ثلاثة، بعد أن استمر التورم، حزنت لأنني تهربت من رؤية صلاح طيلة وجود الورم، إلا أني سررت لأني لم أدخل خلالها إلى مبنى الإذاعة والتلفزيون، وقضيت نقاهتي برفقة كلبي وجورجيت ومنى ومروى وميساء، وبرفقة أخبار الموت التي كنت أراها بصعوبة بسبب إطباقة عيني نتيجة الورم الناجم عن العملية.

كانت التظاهرات مستمرة في كل المناطق الثائرة رغم الاعتقالات ورغم استخدام النظام للعتاد الثقيل في قصف المدن الثائرة دون أي اهتمام بالأحياء السكنية

والمدنيين. وكانت حركة النزوح إلى الدول المجاورة وإلى دمشق قد تضاعفت. وفي تلك الأيام امتلأت صفحات الفيسبوك بالدعوة إلى التظاهر في ذكرى مجزرة حماه الشهيرة في 1982/2/3، وسمي اليوم بـ"عذراً حماه".

أنا لم أشهد مجزرة حماه الأولى وكنت صغيرة يومها، إلا أني كنت أسمع من الناس أنها كانت ضد جماعة الإخوان المسلمين، وأنها كانت بمثابة إبادة جماعية لهم ولأهاليهم من المدنيين الأبرياء، وبقي لها في ذاكرتي البعيدة أثر مالح وقديم. كنت أتساءل بيني وبين نفسي: كيف استطاعت حماه مسامحة حافظ الأسد والاستمرار طويلاً في صمتها. وعلى ما يبدو أن الخوف كان أكبر من الحقد وحجم الدماء التي أراقها حافظ وشقيقه رفعت في تلك المدينة لكمّ الأفواه الخائفة من تكرار مجزرة مماثلة، فأجل انتفاضة المدينة إلى أن ثارت درعا.

في واقع الأمر، اختلطت بأبناء محافظة حماه أثناء طفولتي ومراهقتي عندما كنت أشارك في الحفلات الخطابية والأمسيات الشعرية، ولم أجد لديهم أي نوع من أنواع الحقد الطائفي، إلا أن زيجاتهم من الطوائف الأخرى بقيت قليلة، وعاشت المدينة لسنوات محافظة على طابعها المتدين والمحافظ، وعلى مظهر نسائها المحجبات مع استثناءات قليلة، رغم مشاركة أبنائها في الحياة الحزبية البعثية، الوحيدة المتاحة أيام عائلة الأسد. وربطت والدتي صداقات متينة مع رجال ونساء من حماه، أذكر منها بوضوح صداقة والدتي بسيدة من آل طيفور، وهي سيدة بورجوازية جميلة، مثقفة، أنيقة وسافرة.

النظام عاقب أهل حماه أثناء الثورة مجدداً كما عاقبهم في الثمانينيات، ولا أفهم أبداً حجم هذا الحقد لدى عائلة الأسد والشبيحة كي ينكلوا بهذه الفظاعة بثوار وأهالي المدينة الآمنين من شيوخ ونساء وأطفال، كي يزرعوا في قلوب الناس هذا الحقد الطائفي الذي لن يندمل بسهولة. فمن السهل جداً الحديث عن اللاطائفية والمدنية عندما نكون بعيدين عن جز الرقاب الصغيرة بالسكاكين، فالعنف لا يولد ورداً وياسميناً وحباً.

في يوم ذكرى مجزرة حماه، تظاهرت درعا وريف دمشق وادلب وحمص وبعض الأحياء في اللاذقية، ودير الزور، وتعرضت حمص، لأقسى حملة عسكرية منذ بداية الثورة. وأطلق النظام عليها اسم معركة الحسم، وأدت إلى سقوط آلاف الشهداء والجرحى. كان اليوم الأول للمجزرة هو 3 شباط عندما قصف الجيش حي الخالدية براجمات الصواريخ موقعاً عدداً ضخماً من القتلى، تراوحت إفاداته من 200 إلى 337 قتيلاً. وشيع القتلى في إحدى ساحات الحي في اليوم التالي. ثم تجدد القصف يوم 5 شباط، وجاء عنيفاً جداً، فبلغ إجمالي عدد القتلى (بما في ذلك قتلى مجزرة الخالدية) بحلول يوم الجمعة 10 شباط حوالي 755 قتيلاً وفق الناشطين.

منذ 10 شباط، هدأت وتيرة القصف قليلاً، وانخفض اجمالي القتلى يومياً، مع استمرار القصف بشكل يومي على المدينة، متركزاً بشكل خاص على حي بابا عمرو، وبشكل أقل على أحياء الإنشاءات والخالدية والبياضة وكرم الزيتون. في يوم الأربعاء 22 شباط، عاد القصف عنيفاً جداً بشكل مفاجئ ليبلغ عدد القتلى 60 تقريباً، كما استخدمت خلاله صواريخ سكود في القصف للمرة الأولى منذ اندلاع الاحتجاجات. ارتفعت أعداد القتلى مجدداً في أيام شهر شباط الأخيرة، ثم بدأ الجيش بمحاولة اقتحام حي بابا عمرو. أخيراً في 29 شباط وفي 1 آذار أعلن الجيش الحر انسحابه بعد 26 يوماً من القصف العنيف على الحي.

في 12 آذار، ارتكبت مجزرة في حي كرم الزيتون والعدوية، وكنت في بيتي أرفل بالسلام والسكينة وأصوات الانفجارات البعيدة، وانقطاع الكهرباء الطويل، وسعادة حياتي الواهية ومرآتي التي أراقب عبرها شكل عيني الجديد. ولسوء الحظ أن لنا عيوناً ترغمنا على رؤية البشاعة التي رايتها في ذلك اليوم: صور جثث لأكثر من 53 طفلاً وامرأة تم قتلهم جميعاً بالسكاكين، جثث مكومة، رجال دماؤهم تسيل على الأرض بعد أن جزت أعناقهم، جثث أطفال تتراوح أعمارهم بين الأشهر والسنوات، بعضهم أجسادهم ملفوفة بأغطية، لا يظهر منها إلا رؤوس صغيرة وملتوية على أعناق وأجساد مذبوحة، وأجساد صغيرة تُدفئ بردها ملابس الصباح

التي انتقتها الأمهات قبل أن يعلمن أنها الملابس الأخيرة. على يمين المشهد جثث نساء، ملامح وجوههن مذعورة وحانية على أطفالهن في اللحظة الأخيرة قبل الذبح، جثث وجهها للسماء وأخرى مقلوبة، وفي هذا الزحام التقطت الكاميرا يد طفل صغير ما زال متشبثاً بخصلة من شعر أمه، وصور لعائلة واحدة ذبحت بالكامل لحظة تحلق أطفالها حول المدفأة.

الناشطون المعارضون والمنظمات الحقوقية وأهل الحي الناجين أكدوا أن شبيحة النظام هاجموا أهالي الحي المحاط بترسانة أمنية وعسكرية هائلة جعلت دخول الجيش الحر مستحيلاً وذبحوهم بالسكاكين، وأكدوا أن معظم النساء والفتيات الصغيرات من الأطفال (بعضهم لا يتجاوز 8 سنوات) تعرضن إلى عمليات اغتصاب جماعي قبل الإجهاز عليهن ذبحاً وطعناً بالسكاكين.

من جهته قال "اتحاد تنسيقيات الثورة"، إن عدد النساء اللائي استشهدن بالمجزرة 23، بالإضافة إلى 28 طفلاً، و6 رجال. وأكد وجود حالات اغتصاب في الشوارع، وتعرية نساء في إحدى الساحات، فيما بقي العدد النهائي للشهداء مفتوحاً، مع وجود جثث لم تخل من بيوت أحرقها الشبيحة.

أما العائلة الكاملة التي ذبحت بأسرها، فكانت أحد عشر فرداً، الجد والجدة والأب والأم والأولاد السبعة، يقطنون في بيت فقير، حين دخل القتلة، واقتادوهم واحداً تلو الآخر، ونحروهم بسكاكين باستثناء طفلة لم يتجاوز عمرها السنة الواحدة زحفت واختبأت... لم تلتقطها عيون المجرمين، فبقيت حية.

إعلام النظام اتّهم الإرهابيين بارتكاب المجزرة، وصرح وزير الإعلام وقتها أن المجزرة عمل غير إنساني.

أنا لا أعرف من نفذ المجزرة، إلا أني أعلم أن النظام كاذب، وأنه كان منطقياً أكثر لو أن الإرهابيين المتطرفين الذين تحدث عنهم الإعلام قتلوا عائلات علوية أو مسيحية بدل أن يقتلوا عائلات سنية، وأن قوات الجيش والأمن كانت

تطوق هذه الأحياء كلياً، فكيف تمكنت العصابات المسلحة من الدخول وذبح المدنيين دون أن تمنعهم قوات النظام. وما أعلمه أكثر أن رئيساً غير قادر على حماية كـــل أبناء شعبه عليه أن يرحل، هذا إذا ما رغبنا بتصديق رواية المؤامرة الكاذبة.

في تلك الليلة نمت وأنا أحاول جاهدة أن أتناسى مشاهد المجزرة، وقرأت قبل نومي جزءًا من كتاب "النبطي" للكاتب المصري يوسف زيدان. كان الأدب أيـــضاً وسيلة متقنة من وسائل الهروب.



29

في السابع عشر من شهر آذار، وبعد أيام من مجزرة كرم الزيتون، استفاقت دمشق على صوت انفجار سيارتين مفخختين استهدفا مقـــرين للـــشرطة الجنائيـــة والمخابرات، وأوقعتا سبعة وعشرين قتيلاً ومئة وأربعين جريحاً، وبُثـــت صـــور الأشلاء والجثث على التلفزيون السوري كالعادة.

كان السكان قد بدأوا يعتادون جنون الانفجارات، يعيشون في ساعاتها الأولى حالة من الهستيريا والصدمة، ويختبئون في بيوتهم لبعض الوقت ثم يتحدّون رعبهم، ويدبون كأرتال نمل قليلة وضعيفة في ارجاء المدينة في النهار. في المساء يتغيـــر المشهد، وتخلو الشوارع إلا من رجال الأمن وصور بشار الأسد، وبعض السوريين غير العابئين بالموت، وكنت منهم. كنت ألمح قلقاً غامضاً في عيون الناس العاديين، وذعراً كبيراً في عيون عناصر الجيش والأمن على الحواجز، وحزناً فـــي عيـــون الجنود الصغار المعبئين في الشاحنات المسافرة إلى الموت، ونفاقـــاً فـــي عيـــون المتسولين – الذين ملأوا طرقات المدينة كالجراد، إلا أني لم ألمح أي وجود للجيش الحر أو العصابات المسلحة –.

أنا كنت قد اعتدت الموت أيضاً. وفي هذه الانفجارات لم يكن لدي فـــضول لأبحث بين أسماء الشهداء عن اسم أعرفه، فالخبر السيئ سيصل عاجلاً أو آجلاً، لِمَ إذن أستعجل باكتشاف الموت؟؟ هو قريب سيحاصرني في أي وقـــت ولا داعـــي للعجلة.

رن جهازي الخلوي، فجاءني صوت مروى صديقتي التـــي طلـــت جـــدران مكتب عشيقها الخائن بالبراز، كانت تبكي، وبصعوبة نطقت ببضع كلمات:

– لقد توفي في الانفجار.

– من؟

- هو، حبيبي الخائن.

توجهت إلى بيتها الهادئ لقربه من القصر الجمهوري، ورأيتها واقفة على عتبة بيتها، شاحبة مشعثة الشعر، كجثة خرجت للتو من مجزرة جماعية.. ضممتها بين ذراعي، وواسيتها قليلاً. ولم تهدأ، وبدا أن ذاكرتها استعادت كل تفاصيل قصتها الغرامية الحارة قبل حادث الخيانة، كانت تبكي بشكل هستيري، وتعيد عبارات محددة:

- صحيح أني كنت حاقدة عليه وتمنيت أن يعاقبه اللّه، لكن ليس بهذه الطريقة.. يا اللّه، لقد آذيته كثيراً، لقد فضحته أمام زوجته ولم أخبرك بذلك كي لا توبخيني، لقد شوهت له مكتبه وفضحته أمام الجيران، لو كنت أعلم أنه سيموت لما فعلت ذلك.

تصمت، تشعل سيجارة بجنون:

- لقد حاول بعدها مصالحتي أكثر من مرة، إلا أني لم أخبرك، ولم أستجب، استمريت في العناد رغم أنني أحبه.

هذه الحادثة كانت دليلاً إضافياً على تصميم القدر على اللعب مع البشر وإيصالهم إلى الجنون، وأحمد اللّه أني لم أكن أعرف عشيق مروى السابق، إلا بقدر ما كانت تحدثني عنه في أيام الرغد العاطفي بينهما، وفي أيام استعادتها لاحقاً لأدق التفاصيل العاطفية التي عاشاها.

خرجت من بيت مروى مكللة بالأسئلة الوجودية، واستعدت شعوري بالعبث بشكل أقوى من السابق، وقررت أنه عليّ رؤية صلاح قدر المستطاع قبل أن يأخذه الموت مني في انفجار طارئ، إلا أن الاشتباكات بين عناصر الثوار المسلحين والجيش النظامي على طريق حلب دمشق كانت تُصعّب مهمة السفر براً.

اتصلت به، وطلبت منه بلهجة آمرة أن يستقل أسرع طائرة ويأتي لرؤيتي، وقلت له إني أحبه جداً، ولن أتخلى عنه حتى لو لم نتمكن من الإنجاب.

في اليوم التالي، جاء محملاً بأشواقه، وخوفه، وأصــابعه اللاهثــة. عانقتــه وكأنني لم أره منذ سنين، ضممته إلى صدري وطوقته بين ذراعي كأم تحمي طفلها من الموت، قبلت شعره، ورأسه، ووجهه وأصابع يديه، وعبرت شفاهي الخائفة من الفقد على كل مكان في جسده وبللتها بالبكاء، وكأنني كنت أعلم أن فراقنا قريــب، وكأن شيئاً ما كان ينبئني بأنني لن أتمكن من البقاء بقربه طويلاً، شيء مــا خفــي وغامض ونقي كان يقود غريزتي وحدسي، ويجعلني أرتشف حتى الثمالة كل نقطة في جسده وروحه...

آآآه يا صلاح! كم اشتقت إليك!!

*****

صديقتي منى لم تستفد شيئاً من السحر إلا خسارتها للأموال والوقت، وباءت كل رحلاتنا الخطرة والمغامرة إلى بيت العرافة والمقبرة بالفشل، وبدت كأنها قــد يئست كلياً من زوجها، إلا أنها لم تكن تجرؤ على الثورة، وبدأت مجــدداً برســم خطط جديدة، مقترحة عليّ أن نوظف أحداً لمراقبته. أنبتها وذكرتهــا أن لا أحــداً سيقبل بفعل ذلك في هذه الأوضاع المضطربة، ثم رويت لها بحادثة وفــاة حبيــب مروى كي تشعر قليلاً بسخف المواضيع التي كانت تؤرقها، والتي كنــت أســمعها مكرهة، كي لا أجرح مشاعرها. كانت منى حاقدة على زوجها وعلى بشار الأسد، وكانت بعد الانتهاء من سرد قصص الخيانات، تحدثني عما يفعله جنود النظام فــي المناطق الثائرة من أعمال نهب وسرقات للمنازل والمحلات التجارية، ناهيك عــن القتل، وفي التفاصيل حدثتني عن إحدى العجائز في المعضمية، وكيف سرقوا مالها بعد أن قتلوا أبناءها.

أنا كنت أستمع إلى القصص جميعاً، وأدخن ,أشــرب الحليــب بالنــسكافيه كمجنونة تدّعي الاتزان. واظبت في خضم تلك الأحداث العنيفة على رؤيــة مجــد

ووائل وميساء بشكل أسبوعي، وأعلنت أمام مجد عن رغبتي بالانشقاق، وعن عدم احتمالي للعمل في إعلام النظام أكثر من ذلك، إلا أنه كان غير مقتنع بجدوى الانشقاقات الفردية، وكان يرى أن البقاء في الداخل هو النضال الحقيقي. لم أقتنع كثيراً بالفكرة لأني لم أكن أجرؤ إطلاقاً على اتخاذ موقف كهذا داخل سوريا، والتعرض بعدها للتعذيب والاغتصاب في سجون الأسد. وبدأت بالتفكير جدياً في وسيلة للانشقاق دون أن أُسجن.

عندما أفكر الآن في الأسباب التي دفعت مجد ووائل وميساء لثنيي عن السفر، أدرك تماماً أنهم لم يرغبوا بتعرضي للخطر وإلى حملات التشهير التي كانت تمارس ضد النساء المعارضات. ولا سيما أني كنت امرأة بلا أي تاريخ نضالي سياسي، إلا إذا اعتبرنا أن نضالي ضد البدانة وقبح العالم وظلم المرأة الشرقية هو شكل من أشكال النضال.

*****

كان يوم الجمعة يوم لقائي بمجد غالباً، إلا أنه في بعض الجمع كان ينشغل أيضاً، بسبب عمله المكثف في المشفى العسكري، حيث كانت أعداد الجرحى من الجيش والأمن تتزايد. اتصلت به، فأخبرني أنه قادم لزيارتي، تناولنا القهوة، ثم حدثني عن مجندين صغار وعناصر وضباط صغار من الطائفة العلوية يتذمرون مما يجري:

"...حمل المسعفون عشرات الجرحى من المجندين، بعضهم كان في حالة خطرة ولا يقوى على الكلام، وبعضهم الآخر كانت إصابته متوسطة، وبعضهم قضى نحبه، فوضعناه في برادات المشفى قبل إرسال جثامينهم إلى أهلهم. اقتربت من أحد المجندين الجرحى لعلاجه، وكان شاباً لم يتجاوز العشرين من عمره، حنطي اللون، طفولي الملامح، كان يئن من كثرة الألم بعد تعرضه لطلقتين واحدة

في كتفه والأخرى في ساقه اليمنى، اطمأنيت إلى أن جهاز السيروم يعمل بشكل جيد، ثم استغل هو عدم وجود طبيب أو ممرض آخر في الغرفة، وخاطبني بصوت متعب وخفيض وباكٍ:

- نحن لا نريد أن نشارك في هذه الحرب، لا نريد أن نقتل أحداً، أرجوك إذا متّ قل لأمي أني لم أقتل أحداً.

ثم تعب من الحديث واستراح للحظات وتابع:

- هم يرغموننا على ذلك، هناك زملاء لي ومن نفس قريتي رفضوا تنفيذ الأوامر فقتلوهم، أطلقوا النار على رؤوسهم بدمٍ بارد وبلا أي رحمة.

بكى وتابع بصوت متوسل:

- نحن نحب بشار، ولكن لا نريد أن نقتل أحداً من أجله، أرجوك سلم على أمي، واكتب رقم هاتفها على ورقة كي تتصل بها في حال وفاتي.

سمعت أكثر من حالة من هذا النوع من أطباء كانوا يعالجون جرحى قوات النظام. أما المنشقون فكانوا يقتلون حالاً، ويرسلون إلى أهاليهم على أساس أنهم قتلوا من قبل الجيش الحر. امتلأت قرى الريف العلوي بنعوات أبنائها الشباب، ومن أشهرها قرية وادي العيون في ريف مصياف والتي سميت ببلدة الشهداء، بعد أن أوصل الجيش إليها في يوم واحد جثامين حوالي أربعين شهيداً.

أنا لا أقول هنا أن كل العلويين حاولوا الانشقاق عن النظام، إلا أني أؤكد أن هناك الكثير مثل هذه الحالات.

كان مجد غاضباً وحزيناً من زج النظام للطائفة العلوية في معركته القذرة، وهم مرة أخرى مدفوعون من خوفهم من انتقامه وبطشه، ومن ذعرهم الأزلي من انتقام ومجزرة جديدة ترتكب بحقهم، شاركوا في هذه الحرب.

في اليوم ذاته، توجهت من عملي إلى مطعم قريب، لألتقي صديقتي رهام. "رهام" محررة أخبار في التلفزيون، من أصول علوية، وجمعتني بها صداقة قديمة،

إلا أننا كنا قلما نلتقي، كانت رهام ذات الأربعين عاماً مؤيدة للرئيس بشار الأسد، إلا أنها كانت ضد القتل، وعندما كنت أناقشها أحياناً حول أن بشار ليس الخيار الوحيد للعلويين، كانت تصمت. كانت تحب بشار، إلا أنها كانت معتدلة في آرائها، ومرة قالت لي بعصبية بعد نقاش جمعني بها في أحد المطاعم:

– ليس مهماً من سيستلم بعده، لم أعد أهتم، المهم أن ينتهي هذا الدمار، وإلا ستذبح الطائفة كلها بسببه.

وفي نفس اليوم علمت منها أن رامي مخلوف، وزع أسلحة على الأحياء والقرى العلوية، وأنها أخذت بندقية كلاشينكوف.

– أنت صحفية وامرأة، لماذا أعطاك كلاشينكوف؟

– لقد وزعوا على الجميع احتياطاً كي نحمي أنفسنا من الإرهابيين إذا ما هاجمونا.

فتأملت وجهها الجميل وقلت:

– وهل تعرفين استخدامه؟

ضحكت وأجابت:

– لا، بالطبع لا أعرف.

بعد أن سردت لي رهام الحادثة، انضم إلينا أحد أقربائها الذي سأكتشف فيما بعد أنه رجل أمن ويعمل في قمع التظاهرات.

*****

30

الحب، هذا الكائن الشفاف المتصالح مع الحلم، المتناقض مع التفاصيل الواقعية، سير حياتي، ولم يتمكن الوقت، ولا البراهين المنطقية، ولا الخيبات، أن تخفف ارتهاني له، كنت امرأة مجنونة في العشق، تكره أنصاف الحلول والحالات الضبابية، وتمضي في عشقها لأقصى الاحتمالات الممكنة.

كان صلاح قادراً بكلمة واحدة على إعادتي إلى شراكه، واشعال مشاعري المترنِّحة أحياناً، إلا أنني شعرت بولادة أنثى جديدة في داخلي، لم أتحول إلى صرصار كمسخ كافكا، إلا أن جلد روحي بدأ بالتمزق. أخبرني صلاح أن الطبيب أكد له بعد قراءة نتائج التحاليل التي أجريناها معاً أننا قادرون على الانجاب، ولا توجد أي مشكلة معيقة، وانتابني قلق غامض وضعني أمام الحقيقة: هل حقاً أريد أن أصبح أماً؟؟ هل أنا قادرة على تحمل مسؤولية إنجاب طفل وزجّه في هذه الحياة العبثية؟؟ ماذا لو مات كما يموت مئات الأطفال السوريين اليوم..

في أقصى أعماق روحي كنت راغبة ومذعورة من الأمومة. فكيف يحق لنا أن نحلم بالأمومة في بلاد أصبح الموت فيها حصة يومية كالرغيف. أي خوف هو هذا الموجود في داخلي، أنا الأنثى المفجوعة بكل ما حولي؟؟ وأي عبث يلف بي وبحياتي؟؟ ولماذا كلما وصلت إلى حواف الأشياء أنزلق إلى حوافٍ جديدة. أحشائي تتوق لأصابع طفل يعبث في داخلها، ويتمسك بأقسى ما يستطيع ببطانة رحمي كي يتمسك بالحياة. طفل صغير يمسك بيدي فأخفي عنه شقائي وأمنحه كل سعادتي وأيامي وأحلامي. طفل لا أعرضه للأذى ولا لرؤية مشاهد الموت التي يراها أطفال سوريا. كنت أريد طفلاً لا يموت، في بلاد كانت ترضع الدم والموت.

وفي إحدى زياراتي لطبيب الأسنان في باب توما، وجدت الممرضة حاملاً فسألتها:

- ألا تخافين؟؟

أجابتني ببساطة:

- من ماذا؟؟؟

- هل حملت به بعد بدء الإشكالات في سوريا (طبعاً لم أكن أجرؤ على لفظ كلمة ثورة).

- اللّه هو من يحمي البشر، ولا أخاف من شيء.

أجابتني بثقة وفوقية اعتادت النساء الحوامل في بلادي أن تمارسها علينا نحن غير المنجبات. أدهشتني جرأتها، وتمنيت لو أني مثلها. هل كنت مريضة نفسياً في مبالغتي بهوسي في الرغبة في الأمومة؟؟ وهل كنت مريضة نفسياً في مبالغتي في الذعر منها في هذه الظروف؟؟ لا أعلم، كل ما أعلمه أني كنت أمارس رياضة الرقص بين رغبتين متناقضتين تماماً، وأني كنت في قمة الشيزوفرينيا.

*****

31

بدأ شهر أيار، ولم يتغير شيء في وجه العاصمة دمشق، باستثناء ازدياد الحواجز الأمنية في الطرقات، وازدياد أعداد قوى الجيش وقوى حفظ النظام في الساحة الخلفية للإذاعة والتلفزيون، وارتفاع منسوب القلق لدى المؤيدين والمحايدين، وارتفاع أعداد الشهداء في المناطق الثائرة وفي صفوف قوات النظام.

كان الطقس في شهر أيار بديعاً في دمشق، فهو نهاية الربيع، حيث تبدو الأزهار على الأشجار مستعدة للنضج والتحول إلى ثمار، وهو طقس بديع يذكر البشر الحزانى، بأن دورة الطبيعة مستمرة، وهي الشيء الوحيد الذي لا يتمكن بشار الأسد من إيقافه.

في يوم الخميس 10 أيار، استيقظت عند الثامنة إلا ربع تماماً، وخرجت من المنزلحوالى الثامنة. عبرت طرقات جرمانا غير المزدحمة صباحاً، وتوجهت إلى ساحة الرئيس، وهي ساحة تقع في أول مدخل جرمانا، ويتفرع منها طريق يؤدي إلى المحلق الجنوبي. لحظة وصولي اليها دوّى صوت انفجار عنيف، ارتجت من قوته روحي ونوافذ سيارتي. راعني الصوت كما راع السيارات الأخرى، فتسمرنا في أماكننا. أسرع بعض الرجال المدنيين وعناصر الأمن الذين ينبعون في سوريا من الهواء باتجاه مصدر الصوت والدخان، لم أتمكن إلا من رؤية الدخان، ورؤوس سائقي السيارات التي اكتظت في الطريق المؤدي إلى مخرج جرمانا.

مددت رأسي من النافذة، وسألت أحد الرجال المذعورين والعائدين من مكان الانفجار إلى الساحة:

- ما القصة؟؟

- انفجار في منطقة القزاز على المتحلق الجنوبي.

بدأ السائقون وركاب السيارات والمارة الذين تجمهروا في الساحة، منهمكين بالاتصال بأهاليهم لسرد لحظة الرعب تلك وطمأنتهم أنهم بخير، وأوحت بذلك حركات شفاههم المشتتة، وايماءات أصابعهم المنفعلة، والرعب المشع في عيونهم، وأصواتهم.

دقائق قليلة، فصلت بيني وبين الموت، بين جسدي البض المترع بالرغبة وبين تحوله إلى أشلاء يراقبها السوريون عبر شاشات التلفزة، ويبثها الاعلام السوري ليستثمرها في تأكيد نظرية المؤامرة والعصابات المسلحة. لحظات قليلة فرقت بيني وبين الدخول في غيبوبة أبدية. هل كنت سأشعر بألم الانفجار، أم انه سيكون سريعاً وسهل الحدوث كإبرة البنج؟؟ وهل سيؤلمني لحمي عندما يتناثر إلى شقف صغيرة وكبيرة ومتنوعة الأحجام، أم أنني لن أشعر إلا بألم اللحظة الأولى من اختراق نار المواد المتفجرة لرأسي؟؟

لا أحد يعيش بعد الانفجارات كي يخبرنا بما يشعر به. كنا نحن السوريين لعبة بين القدر والانفجارات، ترسم حياتنا كما تريد، وتسرق منا اعمارنا وأحلامنا في اللحظة التي تختارها، دون أن تعبأ بالتوقيت والزمن المناسبين، ساخرة من كل مخططاتنا وانجازاتنا وآمالنا، ومستهزئة بكل نظرياتنا وإيديولوجياتنا في الحياة، ساخرة من المال والسياسة والحب والفقر والثقافة والكتب والأفكار العظيمة. ففي الموت يتساوى الجميع، ولن تفرق الانفجارات بين جسد عجوز أو شابة، أو وجه امرأة جميلة أو قبيحة، عاهرة أو قديسة، أديب مشهور أو نادل في مطعم، متدين أو ملحد، باختصار وبساطة، كنا كلنا في سوريا مشروع أموات.

استفقت على صوت زمور السيارة التي خلفي، ينبهني إلى أن قافلة السيارات المتوقفة قد تحركت. كان عناصر الأمن والشرطة قد أحاطوا بمكان الحادث، ومنعوا مرور السيارات، وحولوا السير باتجاه طريق آخر، فأدركت أني سأتأخر على برنامجي في الإذاعة، فاتصلت بمديرتي وأخبرتها بهدوء ملىء بالعبث

واللامبالاة بأني كنت على بعد دقيقتين من الانفجار وأني سأتأخر، فهنأتني على السلامة، وأكدت أنها ستتدبر الأمر.

وصلت إلى الاستديو، وبدأت بفترتي على الهواء في التاسعة والنصف، وبدأت شاشة التلفزيون السوري الموجودة أمامي في الاستوديو بعرض صور أشلاء ضحايا الانفجار الذي نجوت منه للتو.

بلغ عدد الشهداء خمسة وخمسون، وتجاوز عدد الجرحى الثلاثمئة. وكان معظمهم من المدنيين الأبرياء الذين لا ذنب لهم سوى أنهم خلقوا في بلد رئيسه مجنون، ويرغب في البقاء في منصبه ولو مات كل السوريين، رأيت الأشلاء المتفحمة لأجساد كانت حية قبل أن تتحول إلى أرقام ومواد للإعلام، وبدأت بالحديث عن الوطن والمؤامرة التي تلف الوطن كما طلبت مني مديرتي، وناشدت المستمعين أن يتوجهوا إلى المشافي للتبرع بدمائهم لجرحى الانفجار، وبكيت على الهواء أثناء لفظي لكلمة سوريا ولكلمة ضحايا الانفجار.

في تلك اللحظة تمنيت أن اصرخ بأعلى صوتي أن بشار هو القاتل، وليست العصابات المسلحة التي يدعي وجودها. ثوانٍ فقط كانت تفصل بيني وبين ذلك، إلا أني ابتلعت لساني لأني كنت أجبن من أن أفعلها، وكمجنونة أنهيت عملي ومضيت خوفاً من خطأ جنوني أرتكبه، فيودي بحياتي.

بقي حديث الانفجار واحتمال موتي القريب جداً مدار الأحاديث بيني وبين صديقاتي، وصلاح الذي بقي يرتجف لفترة كلما فكر باحتمال موتي في ذاك الانفجار.

أما أنا فأصبحت بعدها لا مبالية بشيء، وواثقة أن الموت هو الشيء الوحيد الذي يجب أن نكرهه ونخاف منه، وأن الحياة تستحق منا أن نعيشها لحظة بلحظة، أن نشرب من ملذاتها حتى اللحظة الأخيرة، أن نحب أحباءنا وأصدقاءنا وأهلنا بكل جوارحنا، أن نحيا بكل جوارحنا، أن نتلمس جلد من نحب، ونلتهم رائحته حتى

الذوبان فيها، أن نستمتع بالشمس والهواء والماء ورائحة الأشجار وملمس العـشب الطري، وضحكات الأطفال، وأن نتعلق بأحلامنا إلى أقصى حد، ونبذل كل جهـدنا لتحقيقها دون أن يسبب إخفاقنا فيها أدنى نوع من الحزن، وأن لا نـسمح للبـشاعة باقتحام حياتنا، ولا بإغراقنا في فخ التعود عليها.

* * * * *

32

شوارع دمشق والضواحي تشهد حركة خجولة في صباح أيام العطل، وهواء المدينة يبدو نظيفاً وهادئاً بعد أن نفثت المدينة من رئتيها دخان السيارات والخوف.

كان الصباح فرصة جديدة للتنفس والأمل، قبل أن يبدأ الوقت بالانشقاق عن غفوته، استيقظت مرتاحة نسبياً ذاك الصباح، واتصلت بمنى لأثرثر معها عبر الهاتف، وأثناء حديثنا صرخت منى كمجنونة:

- يا اللّه... انظري إلى قناة الجزيرة، هناك مجزرة كبرى في الحولة.

أدرت جهاز التلفزيون، على قناة الجزيرة، وتابعت الصور التي انتشلت الصباح من هدوئه المصطنع. ليس سهلاً أن أصف لكم مشاعري عند رؤية جثث الأطفال المذبوحين، أو المعدمين بالرصاص، ليس سهلاً إطلاقاً، لأن روحي هي التي ذبحت بالسكين حينها، وأعتقد أن تلك اللحظة كانت اللحظة المفصلية لتبدل حياتي كلياً، جثث لحوالي خمسين طفلاً بينهم رُضّع، جمعوا في مكان واحد. رُبطت أيديهم الصغيرة بالحبال تجهيزاً لعملية الذبح الجماعي كما تعد النعاج للذبح قبل عيد الأضحى. بقع البول واضحة فوق ملابسهم كرد فعل فطري على الرعب الذي أصابهم، حين أجبروا على مراقبة عملية ذبح أقرانهم قبل أن يجيء دورهم. أطفال آخرون مذبوحون من حناجرهم وأيضاً نساء.

لم أر في حياتي كلها مشهداً أقسى من هذا المشهد، ولا يمكن لذاكرتي أن تنجح في التقاط حجم البشاعة والاجرام فيه، فكل المقدسات تبدو سخيفة وتافهة أمام قدسيّة الطفولة.

لم تابع صور جثث النساء، بل بقيت عيناي مسمرتين على كتل اللحم الطرية المكومة في مكان واحد، وعلى ذعر عيونها الصغيرة لحظة الموت.

أنا قاتلة، وكل من يصمت على الدم السوري قاتل. ارتديت ملابسي كمجنونة، وركبت سيارتي دون أن آخذ "جوي" معي، وتوجهت إلى بيت وائل وميساء في صحنايا.

قدت سيارتي دون أي تركيز، ومشاهد الأطفال تأكل رأسي، طرقت باب بيتهم كمجنونة، دون أي موعد مسبق:

- هل تابعتم صور المجزرة؟؟

- أجل.

رميت حقيبتي جانباً، جلست على الأريكة:

- وائل، لم أعد أحتمل، هل رأيت صور الأطفال؟ لا أعتقد أن من ارتكب ذلك كائن بشري، هذا مستحيل.

وائل وميساء أدركا أني في حالة هستيرية، فحاولا تهدئتي، فتوقفت عن النشيج بصوت عالٍ، وبدأت أتحدث بشكل بدا في ظاهره منطقياً:

- ليس ممكناً أن يكون الجيش هو من ارتكب ذلك، فهم بشر مثلنا يعيشون بيننا، وبعضهم أقرباء لنا، إنهم طيبون. ومهما اشتد الشرّ بهم أو أرغمهم النظام عليه، لن يصل بهم الأمر الذي ذبح الأطفال، من المؤكد أن هناك خطأ ما.

في واقع الأمر رفض عقلي لحظتها تصديق أن اشخاصاً يعيشون بيننا فعلوا ذلك.

صمت وائل، ولم ينطق ببنت شفة، سوى كلمة:

- اهدئي.

- وائل لم أعد أحتمل. أريد الانشقاق، سأسافر إلى مصر وأعلن انشقاقي من هناك.

- اهدئي يا علا، سنتحدث في هذا لاحقاً.

أنا كنت أنتظر من وائل ومجد أن يشجعاني على الرحيل، لو بكلمة واحـــدة، لأنهما من أكثر أصدقائي قرباً، وكنت بحاجة إلى موافقتهما، إلا أنهما لم يفعلا ذلك. بعد تلك اللحظة الحادة كسكين الذبح تماماً، حزمت أمري، إلا أن التنفيذ كان يحتاج إلى خطة مدروسة، كي لا أتشرد في الغربة، خصوصاً لأني لم أكن أنوي الانضمام بشكل رسمي إلى أي فصيل في المعارضة، ولم أكن أعرف أحداً منهم أصلاً .



33

أسواق جرمانا لم تفقد ازدحامها الموشى بالحذر، والجديد الوحيد في المــشهد هو حضور لنساء محجبات، هن النساء النازحات من حماه وحمص وريف دمشق، أثناء عبوري بسيارتي في الأشهر السابقة لمجزرة الحولة، فكرت أكثر من مرة في إيقافهن والحديث معهن عن ظروف نزوحهن وعن وضعهن المعيشي في دمــشق، وعرض المساعدة المادية عليهن، إلا أني لم أجرؤ على ذلك، لأني خفت من أن لا يثقن بي أنا العلوية والمذيعة في إعلام النظام، كما خفت أيضاً من أن يراني أحــد عناصر الأمن في الطريق، فأتعرض للمساءلة، فقد اتهمت العائلات القادمة من تلك المناطق متهمة بأنها على قرابة للثوار.

في ذلك اليوم وأثناء عودتي من العمل، لمحت سيدتين محجبتــين تــسيران برفقة طفلين، وأنبأ الزي الذي يرتديانه أنهما من حمص كمــا اعتقــدت. تبعتهمــا بسيارتي، وانتظرت إلى أن سلكن طريقاً بعيداً عن الزحام، ثــم اقتربــت منهمــا بسيارتي بحذر، وقلت مخاطبة السيدة الأكبر عمراً:

- عفواً يا سيدة.

بدا أنها خافت، فتابعت:

- عفواً لا تخافي، أريد أن أتحدث معك قليلاً.

شعرت بأن خوفها تضاءل، فاقتربت بسيارتي أكثر:

- كيف حالك؟ أنت من حمص؟؟

- لا، أنا من حماه.

- أنا صحفية.

ثم سكتّ للحظات. لأني لم أجرؤ على إخبارها أني أعمل مذيعة، فهذا يعنــي بالنسبة إليها أنني شبيحة، ثم تابعت:

- اسمي "علا غيبور".

وأيضاً لم أجرؤ على اخبارها بكنيتي الحقيقية، لأنها تشي بأنني علوية. وهذا يعني أني شبيحة أيضاً برأي الغالبية، فاستبدلت كنية أبي بكنية أمي، ثم تابعت:

- أنا من مصياف البلد.

قلت لها إني من مصياف البلد كي تطمئن أني اسماعيلية ولست علويـــة، لأن أهل حماه كانوا يعرفون أن سكان مصياف الأصليين إسماعيليون، ثم تابعت بعد هذه السلسة من الكذبات المؤلمة:

- أرجوك، إذا احتجت لأي شيء هنا، اعتبريني أختاً لك، هذا رقــم هــاتفي سجليه لديك.

أخذت رقم هاتفها بعد أن علمت أنها هربت هي واختها وأطفالها للاســتئجار في دمشق، بعد أن قتل زوجها في حماه. أكدت لها أن بإمكانهــا الاعتمــاد علــيّ، وسألتها ما إذا كانت بحاجة لنقود، فرفضت بعزة نفس وكبرياء اعتادت النساء فـــي بلدي على امتلاكها:

- شكراً، لزوجي محل تجاري، وقد بعته وأخذت ثمنه، أنــا أريــد فقــط أن أستأنس بوجودك هنا، تعلمين الإنسان بحاجة إلى صحبة.

- لا تهتمي، كلنا سوريون.

مضيت في طريقي دون أن أجرؤ على التعبير عن معارضتي للنظام بــشكل واضح، ولا هي بالتأكيد. قدت سيارتي وأنا أغالب دمعي، فبــسبب هــذا النظــام الأحمق، وممارساته الغبية، انقسم السوريون طائفياً، وبتّ أنا السورية أخشى مــن افتضاح أمر انتمائي إلى طائفة اختارها القدر لي دون أن أختارها أنا.

هذه الحادثة التي اضطررت فيها إلى اخفاء مهنتي وكنية أبي ومكان ولادتي وطائفتي، حفرت عميقاً في قلبي، وجعلتني أدرك أكثر فأكثر ضرورة فعل شــيء يخفف من حدة هذا الشرخ.

في الصباح التالي، وأثناء سقايتي لحديقتي، لمحت جارة محجّبة سكنت قريباً مني، تلاعب أطفالها على الشرفة. كان كلبي يقفز فرحاً على إيقاع صوت أطفالها ينادونه ويلعبون معه. اقتربت قليلاً من شرفتهم، وكنت على وشك إلقاء التحية عليها وسؤالها عما إذا ما كانت تحتاج إلى مساعدة، وكنت أعتقد أنها قادمة من أحد أرياف دمشق، هممت للحديث معها، فسمعتها تتحدث بلهجة حمصية مع أبنائها، فارتبكت كثيراً، وانتابتني مشاعر خوف منعتني من تقديم نفسي لها لأن الشرخ الطائفي في حمص كان الأبرز بين المناطق السورية. صمتّ ولم أقل شيئاً، ولم أسالها ما إذا كانت بحاجة إلى شيء، لأنه كان من العار أن يسأل القاتل القتيل عما إذا كان بحاجة إلى المساعدة.

هاتين الحادثتين أحزنتاني كثيراً، وأعتقد أنهما ساهمتا بشكل كبير في جرأتي على الانشقاق فيما بعد، لأنه لم يكن ممكناً الصمت بعد هذا الارتباك الطائفي الذي صنعه النظام هو وأجهزته الأمنية المنغمسة في دما السوريين حد الهاوية.

لم تتوقف الانقسامات الطائفية عند هذا الحد، بل أيضاً في الإذاعة. كان الموظفون منقسمين بشكل مبطن وفي المكاتب والغرف كانت تدور أحاديث سرية وهمهمات كانت تتوقف بمجرد انضمام أي شخص علوي إلى الجلسة، كنت أرى الشك والريبة في عيون بعض الزملاء السنة وفي عيون بعض المعارضين من الطوائف الأخرى.

*****

الأيام التي قضيتها في سوريا بعد مجزرة الحولة كانت ثقيلة ومضطربة. كنت أتجول في شوارع دمشق بسيارتي كمجنونة، ألفّ الطرقات ذاتها عشرات المرات، أراقب الأشجار والهواء والبشر. وبدأت أفقد السيطرة على كتاباتي في الفيسبوك شيئاً فشيئاً. وأجّج هذا التوتر الذي عشته تعرّض اثنين من أهم المثقفين

السوريين للضرب على يد رجال الأمن في تشييع أحد المعارضين، وهما الروائي والصديق خالد خليفة والناقد الدكتور حسان عباس الذي كتب عبارته الشهيرة على الفيسبوك والتي أوجعتني كما يوجع قضيب محمى بالنار جسداً عارياً:

"أنا عاتب على جامعة السوربون التي منحتني شهادة الدكتوراه. لقد علّمتني كل شيء إلا أنها لم تعلمني كيف أركض أمام عنصر أمن".

د. حسان عباس قريبي من جهة أبي بالإضافة إلى أنه كان أستاذي أثناء دراستي في الجامعة، معارض سلمي وضد العنف، ومن أبرز الرموز الناصعة في الحياة الثقافية السورية. اعتقلت قوات الأمن أيضاً الطبيب النفسي جلال نوفل، وهو علماني ومن أنزه الأشخاص الذين قابلتهم.

إذاً فيما كنا في الإعلام نؤكد أن الثورة إسلامية ومتطرفة، كان النظام يزج في السجون مئات العلمانيين واليساريين، متذرعاً بالإرهاب كما فعل والده حافظ الأسد من قبله في أحداث الثمانينات. وكنت أنا شريكة في الكذب، وتلطخت روحي بهذا العار الذي لن يمحوه شيء سوى الموت، أو الحرية.

* * * * *

34

عدت إلى حياتي الطبيعية أو بالأحرى اضطررت إلى العودة إليها ظاهرياً وواظبت على لعب الورق لدى جورجيت وشراء الملابس الباهظة والعطور والمجوهرات وارتياد المطاعم الفخمة. كثفت رؤيتي لصلاح قدر الإمكان بعد قرارنا الإنجاب، فالنساء يحببن الرجال أكثر عندما يلبون طلباتهن.

لم أخبر صلاح عن رغبتي بالرحيل، لأنه كان سيمنعني، وكذلك الأمر بالنسبة لأمي التي كنت أتحاشى الحديث أمامها عن موقفي. وأخبرت بعض الأصدقاء المقربين أني أنوي السفر إلى مصر، لإعلان موقف ضد النظام، والعيش هناك في بحبوحة مالية. ووقع اختياري على مصر بعد أن سألت بعض التجار الذين كنت أعرفهم عن أسعار البيوت هناك، فاتضح أني كنت قادرة على شراء أكثر من منزل صغير إذا ما تمكنت من بيع ممتلكاتي.

كنت راغبة بالتمرد، إلا أنني كنت ككل الكائنات البشرية أنانية وخائفة من خسارة فرصتي بالإنجاب من زوجي، وخائفة من خسارة مهنتي التي أعشق، وحياة الرفاهية والبذخ. كنت امرأة بلا ظل، أمشي وأخبئ ظلي في غلالات وهمية نسجتها بيدي، وساعدتني الأقدار المتواطئة معي وضدي كي أتشرنق في داخلها كدودة قز صغيرة خائفة من التحول إلى فراشة، لم يكن سهلاً لمن اعتاد الزحف أن يطير فجأة.

في أحد الأيام، ولا أذكر متى بدقة، أصدر بشار الأسد مرسوماً جديداً أسماه مكافحة الإرهاب. وكان من الممكن حسب هذا المرسوم اعتقال أي شخص ومحاكمته إذا ثبت دعمه للثورة مادياً وحتى معنوياً، أي أن تعليق واحد معارض على الفيسبوك كان كفيلاً باعتقال السوريين. وكان هذا المرسوم حبلاً إضافياً جديداً التف على رقابنا.

الطقس حار، والوقت ثقيل كظل نخلة وحيدة في صحراء قائظــة. شــوارع دمشق تترنح تحت أشعة الشمس ورائحة الدماء. قدت سيارتي بعد أن أعادها عامل المغسل نظيفة، لامعة كعروس. وضعت أحمر الشفاه أثناء الوقوف علــى إحــدى الإشارات الضوئية. كان "جوي" يلهث من شدة الحر، إلا أنه كان يفـضل البقــاء بقربي، في أقسى الظروف، على قضاء قيلولة مريحة في المنزل. عبرت طريــق المحلق الجنوبي الاعتيادي، ودخلت إلى مركز المدينة عبر طريق الفحامة، ومنــه إلى دوار الجمارك الشهير. كنت أستمع إلى إحدى الأغاني الهابطة في إذاعة مــا، وأتأمل وجوه عناصر الأمن على الحواجز، وبنادقهم المسلّطة على رقبة الهــواء. وقفت على الإشارة الضوئية، إلا أن سيارة الأمن البيضاء التي عبرت مــن علــى يميني تجاوزت الإشارة، وبسرعة خاطفة لمحت في مقعدها الخلفي شابين معصوبي العينين وموثقي الأيدي كعبيد. كان جسداهما معصورين بين جسدي عنصري الأمن الثقيلين كالموت. في المقعد الأمامي كان السائق، وهو عنصر أمن بالتأكيد، وإلــى جانبه عنصر أمن بدين، وكان من الواضح أنهم يقودان الشابين إلــى أحــد أقبيــة التحقيق والتعذيب. عبرت السيارة بسرعة، إلا أن منظر المعتقلين، لم يفارق رأسي، وانتاب روحي وجع جديد وإضافي، وغرز الموت سكينه في صدري مجدداً، وإنما بلؤم أكبر.

كانت هذه أول مرة منذ بدء الثورة التي يضعني القدر فيها وجهاً لوجه أمــام هذا المشهد الذي كنت أراه كثيراً على شاشات الفضائيات التي تنقل أخبار الثــورة، وفي أفلام السينما الهوليودية سابقاً.

تجاوزت الإشارة الضوئية، وتوجهت إلى مبنى الإذاعة والتلفزيون، وارتجفت روحي كعضلة قلب مرمية خارج الجسد قبل لحظة توقفها عن العمــل. أن تواجــه الحقيقة يشبه الاستيقاظ بعد نوم هانئ في ســرير ملــيء بــالورود والاســترخاء والموسيقا الهادئة، لتجد نفسك محاطاً بجثث موتى مجهولين. تستيقظ فجــأة، تفــتح عينيك وأجفانك المتثاقلة من أثر النوم على عيني جثة لا تعرفها، عينــان ميتتــان

تحملقان بك، تلتفت إلى يسارك فترى جثة أخرى وعينين متفرستين. تبحث عن الورود التي كانت منثورة على غطاء سريرك، فترى مكانها وجوه وجثث وأعضاء بشرية، تعتقد أنك في كابوس، تنتظر للحظات كي تتأكد أنك ما زلت نائماً، وأنها مجرد هلوسات، تغمض عينيك وتفتحهما، المشهد حقيقي، فيُلجم لسانك.

عند رؤية الشابين، تحول كابوس الجثث إلى حقيقة صارخة سوداء ومتعفنة.

دخلت إلى المبنى، وتوجهت إلى الاستديو، كنت مطالبة يومها بالاتصال بمحللين سياسيين وصحفيين ومثقفين مؤيدين وتجيير البرنامج كالمعتاد للحديث عن المؤامرة وشتم الثوار. المايكروفون أمامي، الكومبيوتر وصفحة الفايسبوك على يميني. خلف الساتر الزجاجي الفاصل بين الكونترول والاستديو يجلس المخرج كضابط مخابرات من العيار الثقيل.

بدأت الفترة على الهواء، تهدّج صوتي عند نطقي عبارة (عصابات مسلحة)، تسارعت دقات قلبي، انقطعت أنفاسي، تثاقل لساني، وأوشكت على البكاء:

"تحية لكم أعزائي المستمعين أينما كنتم، مرحباً بكم في بداية حلقة جديدة من برنامج سوريا بخير، وهذه تحية مني أنا علا عباس في التقديم. سأعترف لكم أن سوريا ليست بخير .. وبشار الأسد قاتل، ثوروا أيها السوريون بوجه قاتلكم".

قلت هذه الكلمات في سري قبل أن أشغل مفتاح التحكم بالصوت الموجود أمامي، وعلى الهواء مباشرة قلت: نحن السوريون مطالبون اليوم بأن نحرص على وحدتنا الوطنية، وأن نحرص على دم السوريين، كل الدماء السورية غالية. أطفأت زر الهواء، وأطفأت معه ضميري الذي تورم من شدة الألم، لحظات فقط فصلت بيني وبين الحرية. كبسة زر واحدة عبر هواء إذاعة صوت الشباب ستمكنني من إعلان الانشقاق ودعوة الناس إلى العصيان. هل أفعلها؟؟ هل أجرؤ على قول عبارة: الشعب يريد إسقاط النظام. وأنا مع الشعب؟؟

روحي موجوعة، ولم أعد أحتمل، سأفتح زر الهواء، وأشتم بشار الأسد، سأقول أني أكرهه، بشار يا قاتل الأطفال، يا قاتل حمزة الخطيب وساري ساعود، وأطفال الحولة، يا مغتصب براءات الأطفال والنساء، أكرهك أيها الوحش، سأقولها، وقفت الجملة على طرف لساني، سأقولها وليكن ما يكون، مددت يدي إلى زر الصوت، .. سأقولها، ما الذي سيحدث؟؟ سيأتي أمن المبنى لاعتقالي، ثم سجني وتعذيبي، تخيلت برد وعتمة السجن وألم التعذيب بالكهرباء وبالدولاب ومثقاب الجلد الذي حدثني وائل عنه، نظرت إلى وجه المخرج وتخيلته يستدعي الأمن لاعتقالي، أبعدت يدي عن زر الهواء، وأنهيت فترتي بشكل اعتيادي، ووضعت أحمر الشفاه، ومضيت خارج الاستديو.

كانت غرفة المذيعين فارغة، طلبت نسكافيه بالحليب، وأجريت اتصالاً هاتفياً مع جورجيت، وسألتها عما إذا كانت في المنزل. شربت مشروبي المفضل، وحملت حقيبتي، وهممت بالرحيل، إلاّ أن أحد عناصر الأمن المعروفين بتواجدهم في مبنى الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون دخل إلى الغرفة. ارتعدت مفاصلي عند رؤيته، وفكرت بإمكانية أن يكون رجال الأمن قادرين على قراءة أفكارنا. تماسكت ولم أبدِ خوفاً واضحاً، واستخدمت أسلوبي المعتاد في إخفاء حقيقتي، وابتسمت له بميوعة وغنج متعمدين لإلهائه عن توتري:

– أهلاً وسهلاً، تفضل، هل تريد قهوة؟؟؟

فاضطرب هو كأحمق وأجابني:

– أكيد.

ثم جلس على الكرسي المواجه، مرت اللحظات ثقيلة قبل أن يبدأ بالكلام:

– أنا أريد أن أسألك عن مواقف زملائك مما يجري؟؟

صمتّ قليلاً، ثم أجبته ببراءة كاذبة:

– مواقف زملائي، ما قصدك؟؟

- أقصد هل هم مع النظام أم ضده؟

أجبته:

- زملائي كلهم مع النظام لا أحد ضده.

في الحقيقة كان هذا الرجل قادماً لتجنيدي كجاسوسة على زملائي، لاعتقاده أن الانتماء الطائفي سيدفعني إلى الوشاية بالمعارضين منهم. استمرت جلستنا لمدة ثلث ساعة أخبرني فيها عن أسماء زملاء من الطائفة السنية يتعاونون مع الأمن للوشاية بزملائهم المعارضين، وسألني عن أسماء محددة من الزملاء، فأجبته أنهم جميعاً مؤيدون. في ختام الجلسة نظر إليّ وقال:

- وأنت؟؟؟

أجبته:

- أنا ماذا؟؟

رمقني بخبث وقال:

- أنت مع النظام؟؟

أجبته دون أي تفكير:

- طبعاً.

أنهى رجل الأمن مهمته وخرج من غرفتي، فتنفست الصعداء، وحملت حقيبتي ومضيت إلى سيارتي. كان "جوي" في انتظاري، قبّلته وداعبته وضممته إلى صدري. في الطريق اشتريت حقيبة جلدية وبضعة أحذية من ماركة بيير غاردان، وحذاء لجورجيت. في بيتها لعبنا الورق مع أقربائها لساعات طويلة، وكنا نتابع مشاهد الأخبار على قناة الجزيرة بين وقت وآخر، ونسمع إيقاع أصوات القذائف التي يطلقها جيش النظام على المناطق الثائرة والقريبة. شعرت من خلال حديثي مع أقربائها أن مواقفهم تغيرت قليلاً، فهم لم يعودوا كمسيحيين متمسكين ببشار، إلا أنهم

كانوا خائفين من تبوُّؤ التيارات الإسلامية سدة الحكم ومن مستقبلهم كأقليات في المنطقة.

*****

في شهر حزيران، قررت السفر دون أن أحدد موعداً محدداً، وقررت إجراء عملية جراحية وتجميلية لثديي الأيسر بسبب وجود كتلة ليفية فيه كانت إزالتها ضرورة طبية. انتقيت طبيباً ماهراً أثق به، ولم أكن أرغب في إجرائها خارج سوريا، فالأطباء كالأزواج يجب اختيارهم بعناية، طلبت من مديرتي إجازة مرضية، وكانت الأخيرة التي تحق لي بعد استنفاذي لكل الإجازات المرضية عبر غياباتي الكثيرة والمتكررة أثناء الثورة والتي لم أذكرها كلها في هذا الكتاب. طلبت مني مديرتي أن أكتب طلب إجازة خطي، ففعلت ذلك، وأخذت إجازة من العمل لمدة اسبوعين.

بدأت اجازتي منذ يوم الجمعة 6 حزيران واتفقت مع طبيبي على إجراء العملية يوم السبت. يوم الجمعة أخبرني أنه مضطر لتأجيل العملية إلى يوم الأربعاء لسبب طارئ لديه. كنت قد تقدمت بالإجازة بشكل رسمي ولم يكن ممكناً التراجع، مما سيضطرني إلى طلب أسبوع إضافي. اتصلت بمديرتي، وشرحت لها مشكلتي، فأكدت لي أنها ستمدد لي الإجازة. وهكذا كان بإمكاني قضاء أيام السبت والأحد والاثنين والثلاثاء في التسكع بما أني كنت في إجازة ودون عملية جراحية. اتصلت بصلاح وأخبرته أن عمليتي قد أجلت، فقرر أن يستقل الطيارة من حلب إلى دمشق لرؤيتي يوم الأحد... في يوم الجمعة ذاك كانت أخبار الموت في كل مكان!

*****

35

السبت 7 تموز 2012

في الصباح اصطحبت "جوي" إلى الطبيب البيطري، واشتريت له "افــرولين" واحد لونه أحمر وأزرق. ألبسته الرداء الأحمر، وبدا جميلاً. في فتــرة العــصر، اتصلت بوالدتي لرؤيتها، إلا أنها كانت مسافرة إلى مصياف، فلم أتمكن من رؤيتها. كنت أبدو سعيدة ولم أكن أتواصل مع العالم الحقيقي المحيط بي. كنت أعيش قمــة الفصام والشيزوفرينيا، أركّز بشكل كلي على عالمي الداخلي، تمامــاً كالمــصابين بمرض التوحد، لا يسمعون إلا اصواتهم الداخلية.

*****

الأحد 8 تموز 2012

توجهت إلى مزيّن الشعر، وجددت صبغة شعري ثم توجهت إلــى صــالون التجميل المختص بنزع الشعر عن الجسم، وقامت الفتيات في الــصالون بتنظيــف جلدي حتى اصبح كمرآة مصقولة، وطلبت منهن بعدها أن يقمن لي بمساج كامــل مما منحني شعوراً رائعاً.

بعد صالون التجميل والتدليك، مررت بأحد محلات الألبــسة التــي اعتــدت التردد إليها، واشتريت ثوباً جديداً أستقبل به صلاح، وكنت قد عودته على ارتــداء ثوب جديد في كل مرة أراه فيها.

البيت كان مرتباً، فأشعلت بخور العود، وأشعلت الإنارة الخافتة والموســيقا والشموع وانتظرته ... ليلتها لم أسمح له أن يناقشني في السياسة ابداً، وصــممت على أن تكون جلستنا جلسة عشاق من الطراز الرفيع حيــث لا مكــان إلا للقبــل

واللمسات العاشقة والهواء المندى بالغزل والويسكي... نام إلى جانبي حتى الصباح، لأني لم أسمح له بالمغادرة في هذه الأوضاع الأمنية المتردية في الليل.

*****

الاثنين 9 تموز 2012

التقيت بمجموعة من الأصدقاء، وكان بينهم شابان من بابا عمرو والخالدية، كانت عائلتا الشابين قد هجرتا من حمص إلى لبنان عبر وادي خالد على الحدود بين لبنان وسوريا، وقصّا لي ما كابده الثوار في حمص من بطش النظام والشبيحة، كما تحدثا عن معاناتهما على الحواجز الأمنية حيث كان عناصر الأمن يعتقلون الشباب من بابا عمرو والخالدية دون أي دليل ملموس على مشاركتهم في الثورة، ويتعاملون معهم بطريقة مهينة.

أحد الشبان أخبرني أنهم لا يجرؤون على التنقل في دمشق ولا على العودة إلى مدينتهم بسبب انتمائهم إلى تلك المناطق. ورأيت الذعر المستوطن في عيني الشابين. تحدثا عن الجرحى من الثوار الذين كانوا يموتون دون علاج بسبب استمرار القصف، وبسبب عدم توافر الدواء بعد أن منع النظام وصول أي نوع من المساعدات الطبية إلى الأحياء الثائرة في حمص. كان الشابان علمانيين أحدهما يعمل ممثلاً، والآخر طبيباً. وقد أكدا لي أن القوى الأمنية تعتقل أي طبيب يساهم في معالجة الجرحى من الثوار مما جعل دخول أي طبيب إلى المناطق الثائرة مستحيلاً.

بعد انتهاء الجلسة، عدت إلى منزلي مساءً، واتصلت بمروى وطلبت منها مرافقتي أثناء العملية يوم الأربعاء صباحاً، فوافقت، واتفقنا على الالتقاء في المشفى عند الثامنة والنصف صباحاً، وهو الموعد الذي حدده الطبيب لي.

*****

الثلاثاء 10 تموز 2012

صباحاً أجريت التحاليل الطبية التي طلبها الطبيب مني لإجراء العملية في اليوم التالي، وفي فترة الظهيرة توجهت إلى بيت وائل وميساء في صحنايا، وقابلت لديهما رجلاً من منطقة دوما في ريف دمشق، فعرفته إلى نفسي، وأخبرته أنني أعمل مذيعة، وأني غير راضية أبداً عن ممارسات النظام، وجلست معه لمدة ساعتين حدثني فيهما كيف أنه رأى بأم عينه القناص على سطح أحد المنازل وهو يطلق النار على فتاة صغيرة تعبر الشارع. وبعد أن ابتلع دمعة لمعت في عينيه، أخبرني أن أهل دوما لن يتراجعوا عن الثورة مهما كان الثمن.

تناولنا الغداء الذي أعدّته ميساء بنفسها، أنا وهي ووائل والرجل القادم من دوما، وقبل أن أغادر أخبرتها عن عمليتي، فتمنت لي السلامة. غادرت صحنايا وعدت إلى جرمانا، وأمضيت فترة المساء لدى جيراني، وتبادلنا شتى أنواع الأحاديث باستثناء السياسة.

عدت إلى منزلي ليلاً، وتحدثنا أنا ومنى مطولاً عبر الهاتف، عن زوجها وعن حماقاته الجديدة. وكانت منى قد قررت الطلاق منه، إلا أنها كانت تنتظر أن تهدأ الأوضاع في سوريا، لأنها لم تكن تجرؤ على السكن وحدها في هذه الظروف. كانت قد قررت تحدي إخوتها والمجتمع كله والتمرد على ضعفها وخوفها، فأخبرتها أن قرارها هذا صائب، وأننا كنساء شرقيات علينا أن نتمرد ضد خوفنا وضد المجتمع، وأني سأساندها في قرارها.

*****

في تلك الليلة لم أتمكن من النوم، ولم يكن خوفي من العملية هو السبب، فقد كنت معتادة على العمليات الجراحية، إلا أن قلقاً من نوع آخر كان يهيمن على

روحي، تسبب به الحزن العميق والغائر الذي رأيته في عيون الشبان من بابا عمرو والخالدية ودوما.

كنت أشعر أني مسؤولة بشكل ما عن حزنهم، لأني مطالبة بقول كلمة حق تمكن النظام من إبقائها عالقة في حلوقنا. حاولت النوم إلا أني لم أتمكن.

كنت عندما لا أتمكن من النوم أتابع فيلماً أجنبياً في التلفاز أو اقرأ كتاباً، ليلتها أعدت قراءة مقاطع من رواية الحاج كومبوستيلا لباولو كويلو. وكنت أحب أعمال كويلو، لأنها تتمتع بقدر كبير من الروحانيات والعوالم السحرية اللاواقعية. نجحت العلمية وغفوت حوالي الساعة الثانية صباحاً رغم أصوات القذائف القريبة، عند الرابعة عدت واستيقظت مجدداً، كان صوت القذائف قد توقف إلا أن أصوات زخات رصاص متتالية كانت تهز سكون الليل الصيفي المقمر.

كان الطقس بديعاً، سمعت صوت جنادب الليل التي كانت تغني رغم صوت الرصاص والخوف، وقررت سقاية الحديقة لإضاعة الوقت والهروب من حالة الأرق. كان الحر شديداً في تلك الفترة، وكانت الأشجار تعطش بسرعة . عند الخامسة والنصف توقفت عن سقايتها بعد أن انبلج الصباح، وصعدت مجدداً إلى الصالون، وحضّرت كأس نسكافيه بالحليب وشربته بمتعة بالغة، ودخّنت بضع سجائر، بعدها داعب النوم أجفاني، فربطت منبه الموبايل على الساعة الثامنة واستسلمت للنوم.

* * * * *

استيقظت عند الثامنة صباحاً قبل أن يرن المنبه، ووضبت الحاجيات التي يجب اصطحابها إلى المشفى، قميص نوم واسع، شبشب للقدمين، بشكير، ونتائج التحليل الطبي، والمبلغ المالي الذي يجب دفعه. وضعت لـ"جوي" إناءً كبيراً من

الماء وبعض الطعام، وتركت له لعبة الدب الكبير التي اعتاد ملاعبتها كي تـؤنس وحشته أثناء غيابي وبطانيته الناعمة. وتركت اضواء المنزل مـشعّة والتلفزيـون شغالاً، وشقاً صغيراً في الباب المؤدي إلى الحديقة كي يتمكن من الخروج للعب أو لقضاء حاجته. كنت أعلم أن غيابي سيكون لليلة واحدة، وكان بإمكانـه تمـضيتها بدوني بعد أن أوصيت جورجيت أن تمر في المساء للاطمئنان عليه.

اتصلت بمروى لأتأكد أنها استيقظت واستعدت لملاقاتي فـي المـشفى، ثـم ودعت "جوي" وانطلقت بسيارتي. كانت الشوارع هادئة، على باب المشفى، قابلـت مروى ودخلنا إلى غرفة الاستعلامات، وقدمنا للسكرتيرة أوراق الدخول الممهـورة بختم الطبيب. انتظرنا لدقائق، ثم دفعنا المبلغ المالي، وبعدها أدخلتنا الممرضة إلى غرفة مستقلة فيها سريران لي ولمروى.

بدأت الممرضات بتهييئي للعملية، وألبستني إحداهن ثوب العمليات الأزرق، بينما أخذت الأخرى أوراق التحاليل التي أجريتها سابقاً، بعد ذلك بقليل جاء طبيـب التخدير لسؤالي عن المواد التي أتحسس منها، فأجبته أني لا أتحسس من شيء، ثم سألني عما إذا كنت قد أكلت شيئاً في الصباح، فأجبته أني لم آكل أي شيء، فقـط شربت كوب حليب بين الخامسة والنصف والسادسة. نطقت هذه العبارة، فـاكفهر وجه طبيب التخدير، وقال لي:

- ألا تعلمين أن شرب الحليب ممنوع...

- لا، أعلم أن السوائل كلها مسموحة، فقط الطعام ممنوع.

فأجاب:

- كلا يا علا، الحليب خطير جداً، وممكن أن يتسبب لـك بـالموت تحـت التخدير.

سمعت كلام الطبيب وأنا في حال ذهول، لأنني على مدى سنوات من عمري خضعت لأكثر من عملية جراحية، ولم أفكر فيها ولا مرة بشرب الحليب صـباحاً

قبل العملية. شيء ما غامض دفعني لشرب الحليب، شيء يشبه القدر أو الموت أو الحياة لارتشاف بضع رشفات كانت كفيلة بتغيير حياتي كلها. لا أعلم لماذا فعلت ذلك، وكنت في العمليات السابقة أنام مبكراً دون أن اشرب أو آكل شيئاً، وأمتنع عن الطعام منذ الثانية عشرة ليلاً.

استمر الجدل بيني وبين الطبيب لمدة ساعة حاولت فيها أن أقنعه بإجراء العملية، إلا أنه بدا مصمماً على موقفه، قلت له إني مستعدة على التوقيع على ورقة أتحمل فيها مسؤولية العملية، فلم يقبل. وحسم الأمر لصالح خروجي من المشفى وتأجيل العملية إلى الأسبوع المقبل، لأن جدول مواعيد الطبيب كان مزدحماً، ولم يكن من الممكن اجراؤها في وقت أقرب.

طويت خيبتي، ونزعت عني ثوب العملية وارتديت ملابسي، وخرجت من المشفى أنا ومروى. مروى كانت تسخر مني لأني شربت الحليب وتضحك بشكل هستيري، ولا أعلم إن كانت تضحك فقط بسبب كوب الحليب، أو لأنها تذكرت موت حبيبها الخائن في انفجار الميدان، أما أنا فكنت مذهولة تماماً من هذه الخطيئة البريئة التي ارتكبتها دون أن أقصد، ومن كوب الحليب الذي أرجأ عمليتي أسبوعاً. كنت في حالة غيبوبة كلية عن الواقع، وكنت تحت تأثير مخدر من نوع آخر يشبه مخدر العمليات الجراحية إلا أنه أكثر جنوناً وعبثاً.

* * * * *

أوصلت مروى إلى منزلها، وعدت إلى بيتي. اتصلت بجورجيت لأخبرها أن العملية قد ألغيت، وأن كوب الحليب تسبب بكل هذا الجنون، فهدأت من روعي ودعتني إلى العشاء في منزلها، وأكدت لها أني سألبي الدعوة.

تأجيل العملية كان يعني بقائي اسبوعاً إضافياً في سوريا، واليوم عندما أفكر في الاضطراب الذي اعتراني بعد هذه الحادثة، أدرك بوضوح أن عقلي الباطن أو ما يعرف باللاوعي، كان قد قرر الرحيل نهائياً دون أن يدرك عقلي الواعي ذلك.

في ذلك اليوم نمت لبضع ساعات، ولعبت مع كلبي الذي كان سعيداً بعودتي، ولم أرد على أي اتصال هاتفي. فقط اتصلت بالسكرتيرة في إذاعة صوت الـشباب حيث أعمل، وسألتها عن كيفية إجراء معاملات التقدم بطلب إجـازة سـنوية دون راتب، فأخبرتني التفاصيل التي تقتضي تقديم طلب إجازة رسمية للمدراء وبعـض الإجراءات الروتينية، وقالت لي مازحة:

- هل تريدين الزواج؟ ولهذا تريدين إجازة طويلة؟؟

فأجبتها:

- إن هذا سر، وسيكون مفاجأة الموسم للجميع.

كنت ضائعة ولم أكن أعرف كيف سأهرب من هذا الجنون المحيق بي ومن كذب الإعلام السوري، كل ما كنت أعرفه أني لم أعد أحتمل وأن العملية الجراحية التي كانت ستلهيني عن حقيقة ما يجري في سوريا وعن دماء الثوار والأطفال قـد أجلت، مما سيعيدني مجدداً إلى الواقع المربك.

شاهدت قناة الجزيرة في ذاك اليوم، وكانت تعرض تقريراً عـن القاشـوش، وهو مغني الثورة الذي انتزع النظام حنجرته في حماه، ثم عرضت تقريـراً عـن علي فرزات رسام الكاريكاتير الشهير الذي كسر الشبيحة أصابعه بعـد أن رسـم كاريكاتوراً ساخراً من بشار الأسد.

كان الوقت ثقيلاً في مساء ذلك اليوم، وكنت أنا أترنح تحت وطـأة خطيئـة كوب الحليب العبثية، وبين أخبار الجزيرة وبين ألم قديم وحـاد يعـصر روحـي ويطحنها طحناً، كان الهواء مخنوقاً ومسمراً بين السماء والأرض دون أي حركة،

وكانت أصوات الانفجارات تصل إلى أرجاء جرمانا من الغوطة القريبـــة، وتمـــلأ الهواء بمزيد من الظلال الثقيلة.

حاولت تنشق الهواء عبر باب الحديقة فلم أتمكن من طرد حالة الضيق التـــي كانت تجثم على صدري. عند الثامنة مساءً جهّزت كوب نسكافيه بالحليب، وجلست أمام الكومبيوتر المحمول، وبدأت كتابة السطور التالية في مسودة صفحة الفيسبوك:

"إثنا عشر عاماً وأنا أنتظر اكتمال مواطنيتي، والتي كنت أظنها تثبيتي فـــي عمل مؤقت كنت أمارسه، معتقدة أيضاً أنه نبيل ووطني وهادف. وامتلاكي لسقف يأويني، تحقق حلمي في فترة متقاربة، لكنها الفترة التي جاءتني أيضاً بأشـــق مـــا يمكن أن يصيب الكائن البشري: فتح عينيه عن الحقيقة.

جاء تثبيتي، وأصبحت مذيعة مثبتة في الهيئة العامة للإذاعـــة والتلفزيـــون، ضمن مرسوم يبدو لي الآن وكأنه ثمن لدماء إخوة لـــي، أعـــرف الآن تمامـــاً أن مواطنيتي لا تكتمل إذا كان هناك انتقاص من مواطنية أو كرامة سوري واحد.

أتخلى عما اعتقدته حلمي، وأعلن توقفي عن العمل في الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون، كي لا أكون شريكة في سفك الدم السوري أو تبرير سفكه. وأعـــرض بيتي الصغير المتواضع على أي أسرة مهجرة من حمص أو ديـــر الـــزور أو أي مكان آخر في سوريا المنكوبة. وحلمي الكلي أن أعيش في سوريا الحـــرة، دولـــة التعددية والمواطنة، وفيها سنحلم جميعاً بما نريد، حيث سيصبح لأحلامنا معنى. أما وقد أوغل النظام بسفك دماء الأبرياء، وانتهك الأطفال، ودمّر المدن، فلـــن أدخـــل مؤسسة وظيفتها الأساسية أن تسبح بحمده.

علا عباس"

تأملت هذه السطور وقرأتها ملياً، وبقيت عينـــاي مـــسمرتين علـــى شاشـــة الكومبيوتر لساعة كاملة، وانتابتني رغبة عارمة وقوية وآسرة بنشرها على صفحة

الفيسبوك، إلا أن ذعراً قوياً وحاضراً وآسر أيضاً شل يدي عن الحركة. اتصلت بمجد وقلت له بلغة الشيفرة التي اعتدنا تداولها:

- لم أعد أحتمل، وعليّ أن أعلن موقفي.

فقال:

- لا تتهوري. هناك مجموعة من الصحفيين ينوون الانشقاق بشكل جماعي. انتظري بيانهم.

وكنت سمعت هذه الرواية من مجد منذ شهور، دون أن أشهد أي تحرك فعلي لزملائي الصحفيين. فأجبته بالكلمات التالية:

- حسناً، لن أفعلها، سأؤجل الموضوع.

أغلقت الموبايل بعد حديثي مع مجد، وعدت إلى شاشة الكومبيوتر وال السطور التي كتبتها، وبدأت الصور بالتزاحم في رأسي: وجه صلاح وعيناه الخضراوان، وهمسات الحب التي رماها في اذني في لقائنا الأخير. وجه حمزة الخطيب وجسده المدمى وقضيبه المبتور، ووجوه السوريين المشردين من منازلهم واللاجئين في خيام العراء والبرد والجوع، ووجوه الثوار وهتافاتهم: "يا اللّه ما إلنا غيرك يا اللّه". سنوات عملي في الإذاعة، ووجوه أطفال الحولة ورقابهم البريئة والمذبوحة، عملية التجميل المؤجلة وكوب الحليب الذي غيّر مسار القدر، وتواطأ معه لوضعي على حافة الحقيقة والرؤية، ولعدم منحي وقتاً إضافياً للهروب من حقيقتي، أنا المرأة الشرقية المليئة بالمتناقضات والمدجّنة كباقي قطيع النساء والرجال.

كان إصبعي عالقاً في مكانه فوق زر الإدخال. وكانت روحي عالقة تحت وطأة الخوف من الموت والتعذيب والسجن، وتحت ثقل تأنيب الضمير القاتل أمام تخاذلي وصمتي المهين عن دماء الأطفال. الرعب من المخابرات السورية يشل يدي ولساني، ودماء أطفال درعا والحولة والقبير وادلب وحماه ودير الزور وريف

دمشق تلف رقبتي كحبال معدنية واخزة. كنت على شفا الاختناق، وإصبعي كان واقفاً على حافة الحرية والموت، وما بين خوفي وإصبعي كانت روحي تترنح تحت ثقل أوجاعها القاتلة.

لم يكن الخيار سهلاً إلا أنه كان قوياً وعذباً وحاسماً كضربة السيف، لم يكن إعلان معاداة النظام سهلاً إلا أنه كان شريفاً وطاهراً ونقياً كوجوه الأطفال. وداعاً لكل الخوف القديم، وداعاً لكل الحياة المترفة والباهتة والمليئة بالكذب، وداعاً لضعفي وعجزي وصمتي أنا القوية الآن والشجاعة كآلهة إغريقية لا تفزعها ألسنة النيران، ولا وجوه المحققين الباردة كالموت في سراديب المخابرات السورية، أنا لا شيء سوى وجه حمزة الخطيب، فلتذهب أيها العالم المضلل والغارق في أوهامك إلى الجحيم، كل الأشياء عبث ولا شيء في الحياة يحمل معنى إلا الحرية.

بحركة واحدة سريعة وحاسمة وساطعة كبست زر الإدخال ونشرت البيان وأصبحت حرة.

* * * * *

36

نشرت البيان، واعترتني حالة من انعدام الوزن بعدها، كنت روحاً خفيفة حرة وطليقة وهائمة، تلاشت الجاذبية الأرضية التي كنت أعرفها سابقاً، وتحررت روحي من كل الحمولات الثقيلة. أنا علا عباس المذيعة السورية الخائفة أصبحت حرة، تجرأت على البوح، تجرأت على إعلان رفضي لقتل أبناء شعبي، تجرأت على رفض الظلم. جديدة كوجوه الأطفال عند الولادة، لم أشعر في حياتي كلها بطعم الانعتاق الذي شعرته حينها، تماماً كأنثى نسر تحلق في الأعالي، ولا تخاف رصاص القناصة.

ليس سهلاً أن أصف لكم مشاعري حينها، ولا يمكن أن ترقى اللغة إلى نشوة الحرية التي شعرت بها في تلك اللحظة، دقائق بعد إعلان البيان على صفحتي في الفيسبوك، وبدأت "لايكات" الإعجاب تتهاطل من هنا وهناك، وبدأ المعارضون بتناقل بيان الانشقاق بسرعة هائلة لم أكن أتوقعها في الحقيقة. أما أنا فبقيت متسمرة أمام شاشة الكمبيوتر. رن جهاز الخليوي وتفاجأت بصوت صديقتي المؤيدة للنظام وزميلتي في التلفزيون وخاطبتني بلهجة متوعدة:

- علا، ما هذا البيان الذي نشرته على الفيسبوك؟؟؟

أجبتها بهدوء حاسم بعد أن بدأت أصحو من حالة السكر التي تسببت لي بها الحرية الجديدة والمفاجئة في حياتي:

- إنه رأيي. أنا حرة!!

ثم صمتنا نحن الاثنتان، وساد بيننا صمت ثقيل، وقالت:

- أرجو أن تعلمي مدى خطورة ما تفعلينه عليك.

وأغلقت خط الهاتف في وجهي. رنّ موبايلي مجدداً، وجاءني صوت لا أعرفه، وكان بارداً ويتحدث بلهجة آمرة:

- أنت علا عباس؟؟

- أجل من يتكلم؟؟

- هل نشرت هذا البيان على صفحتك؟؟

صمتّ ولم أقل شيئاً، فتابع الصوت البارد:

- إذا كنت نشرت البيان بكامل إرادتك، فسوف تُقتلين.

وأغلق خط الهاتف في وجهي، ولم أسمع بعدها شيئاً سوى صوت الخواء ودقات قلبي التي بدأت تدرك خطورة الوضع المحيق بي، لحظات قليلة واتصلت بمجد:

- مجد، إنني خائفة.

- أهلين علا، خير؟ لماذا؟

- لقد نشرت البيان.

صمت.

- لقد جاءتني تهديدات، أنا خائفة.

قال بلهجة هادئة وحاسمة:

- علا، أين نشرته؟

- على الفيسبوك.

- علا، أزيلي البيان.

- لماذا؟

- علا، نفّذي ما أقوله لك وأزيلي البيان.

- مجد، لن أزيل البيان حتى لو قتلت، إلى اللقاء.

أغلقت الهاتف بعد أن أدركت أنني أواجه موقفاً صعباً، ولم أكن مستعدة للتراجع عن قراري هذا مهماً كان الثمن.

دقائق أخرى مرت كعمر من الحب والثورة، أمام لايكات الإعجاب وعبارات المديح والتشجيع من السوريين المظلومين الذين كانوا ينتظرون صوتاً حراً يقف مع ثورتهم النقية، ثم رن الموبايل مجدداً، ومرة أخرى صوت شبيح لا أعرفه:

- هل أنت علا عباس؟؟

أنا لم أرد، إلا أن الصوت تابع:

- آخرتك ستكون وخيمة.

ارتبكت، وسرت قشعريرة خوف عارمة في كامل جسدي.

كتبت عبر خدمة الرسائل في الفيسبوك عبارة واحدة أرسلتها لأحد المعارضين الناشطين الموجودين خارج سوريا والذي كان من المرحبين ببياني:

- إني خائفة..

أجابني حالاً:

- معك حق، لا تخافي.

- لقد هددوني بالقتل.

- هل تملكين مكاناً تذهبين إليه.

- لا!!

- عليك أن تؤمني مكاناً أو ستعتقلين.

- ليس لدي مكان أذهب إليه، فليأتوا ويقتلوني، لن أتحرك.

فأجابني:

- سأحاول أن أؤمن لك مكاناً تنامين فيه حتى الصباح، ثم تسافرين بعدها إلى بيروت حالاً، لا تنسي خذي معك جواز السفر.

نهضت من مكاني بحركة سريعة، وبدأت أتجول في المنزل بحركة غير متوازنة. وضعت في حقيبة صغيرة جواز السفر و"افرولي" جينز وكروزي دخان،

ومصنفاً فيه كل أوراقي المهمة، ومن بينها نسخ عقد زواجي من صلاح وشـــهادة الجامعة. وفكرت في جلب مجوهراتي ومبلغ مالي كان بحـــوزتي إلا أنهمـــا كانـــا مخبأين في مكان بعيد. سمعت صوت ضوضاء في الخارج، وفكـــرت أن رجـــال الأمن وصلوا لاعتقالي، هدأت بعد أن تأكدت أنهم بعـــض الـــضيوف الـــصاخبين القادمين لزيارة جيراني، في تلك اللحظة كنت أقوى امرأة في العالم.. وأجبن امرأة في العالم في الوقت نفسه.

عدت إلى الفيسبوك، وطلبت من أحد الأصدقاء المقيمين في مكان بعيد عـــن مكان إقامتي القدوم لمساندتي، لأني كنت أخشى ألا يتمكن الناشط الآخر من تأمين مكان لاختبائي حتى الصباح. خرج الصديق من منزله متوجهاً إلى جرمانا، واتفقنا على أن ألاقيه في مكان محدد لأحضره إلى منزلي. في هذه الأثنـــاء اتـــصل بـــي الناشط الآخر وأخبرني أنه أمّن لي بيتاً للاختباء، وأن هناك من سيتصل بي ويحدد لي مكاناً لملاقاته.

وكما هي الأقدار دائماً تتواطأ مع أو ضد البشر، وصل الاثنان فـــي الوقـــت ذاته إلى جرمانا، واتصلا بي لإخباري بوصـــولهما. وضـــعت حـــزام الخـــروج لـــ"جوي"، وحملت حقيبتي، وخرجت من المنزل، ولا أذكر إذا كنت قـــد أطفـــأت الأضواء، إلا أني أذكر تماماً أنها كانت الحادية عشرة مساءً، أي بعد ساعتين مـــن نشر البيان على الفيسبوك. توجهت إلى سيارتي، وقدتها باتجـــاه المكـــان المحـــدد لملاقاة صديقي. ركنت سيارتي بجانب سيارته، وفتحت نافذتي، وقلت لـــه بلهجـــة حاسمة:

– أنا آسفة. أنا مضطرة للمغادرة. عليك أن تأخذ كلبي.

لم يقل شيئاً، وبدا أنه فهم أنني أخطط للهرب، فنزل من سيارته، وتوجه إلى باب سيارتي الجانبي لأخذ جوي.

في الأيام العادية كان "جوي" يرفض تركي والذهاب مع أي شخص آخر، لأنه لم يعتد على أحد سواي منذ ولادته. في ذلك اليوم وفي تلك اللحظة، بدا "جوي" مذعوراً، وكأنه يعرف أنه لن يراني مرة ثانية، فالكلاب ذكية، قفز "جوي" إلى حضني، والتصق بي كما تلتصق علقة ماصة بالجسد، وفشلت محاولات صديقي لفصله عني. كان واضحاً أن "جوي" يدرك بحدسه أن رحلتي طويلة، وكان ينوح بصوت خافت يشبه البكاء. استجمعت شجاعتي وفصلته عن جسدي كما يقلع الضرس من الفم، ووضعته بين يدي صديقي، وودعته بحركة سريعة.

كان قلبي يبكي فيما كانت روحي حرة وقوية، وانطلقت لملاقاة الشخص المجهول الذي أرسله الناشط لاصطحابي إلى منزله، ووجدته ينتظرني. صعد إلى سيارتي التي فرغت للتو من صوت بكاء "جوي" ورائحته، وغادرنا جرمانا، وتوجهنا إلى منزله.

هناك وبعد أن تنفست الصعداء قليلاً، وبهدف تضليل رجال الأمن، طلبت من إحدى الصديقات الناشطات أن تكتب على صفحتها في الفيسبوك أن صفحتي قد "هكزت"، وأنني لست أنا من نشر البيان، ثم ارسلت رسالة عبر الموبايل إلى الزميلة المؤيدة التي هددتني أخبرتها فيها أن البيان الذي نشرته عبارة عن دعابة، وأنني لا يمكن أن أفعل ذلك، ثم أغلقت جهازي الخليوي كلياً وحسابي على الفيسبوك كي لا يتمكن رجال الأمن من تعقبي، وحضّرنا لسفري في الصباح المبكر إلى بيروت.

عند الواحدة بعد منتصف الليل كما أذكر، أحضرت مغلف الأوراق المهمة الذي كان بحوزتي، وطلبت من الرجل أن يخبئه عنده، لأني لا أريد أن يجده رجال الأمن إذا ما اعتقلوني أثناء مغادرتي عبر الحدود السورية اللبنانية. وبحركة غير واعية منبعها ذعري من أن يعتقل رجال الأمن صلاح ويعذبوه إذا ما اكتشفوا أنه زوجي، أخرجت نسخ عقد زواجي، التي كانت الإثبات الوحيد لزواجنا، لأنه لم يكن ثمة نسخ أخرى بحوزة أي شخص غيري، ومزقتها كلها إلى قطع وأشلاء صغيرة،

كي لا يتمكن الأمن من قراءة اسم صلاح فيها، وهكذا وضعت في سلة المهملات في ذلك البيت الإثبات الوحيد على شرعية علاقتي بصلاح.

في الصباح المبكر، انطلقت إلى بيروت، وكانت الدقائق التي عشتها قبل أن يضع رجل الأمن على الحدود ختمه على جواز سفري يعادل أعواماً من الانتظار، وبابتسامة مطمئنة ومخادعة ابتسمت في وجه رجل الأمن الذي قال لي بابتسامة غبية وأنا اقف في طابور مليء بالنساء المحجبات النازحات إلى لبنان هرباً من القصف في الأماكن الثائرة:

- أنت من مصياف؟؟

أجبته:

- أجل!

- أهلا وسهلاً بقرايبتي.

مهر رجل الأمن ختمه على جوازي، ومنحني بكل غباء وسذاجة ختم الحرية. بقيت مختبئة في بيروت أسبوعاً إلى أن منحتني السفارة الفرنسية فيزا للدخول إلى أراضيها التي اخترتها لإيماني أنها بلاد الحرية ومهد الثورات في العالم.

وهكذا وصلت إلى باريس في 2012/7/22 أنا المرأة الشرقية المدللة التي خسرت حبيبها وعملها وكلبها الحبيب، وأموالها، وعقد زواجها لتكسب الحرية. ومن حينها لا يوجد أي اتصال بيني وبين والدتي أو بيني وبين صلاح، لأني لا أريد أن أكون سبباً في التنكيل بهم من قبل أجهزة المخابرات الأسدية، وها أنا بينكم الآن أقص عليكم حكايتي التي صنعها القدر كما صنعني قبلها، وكما سيصنع مستقبل سوريا الجديدة.

وأعترف أني أعيش صعوبات كثيرة، وأني أشتاق كثيراً إلى حياتي الـــسابقة وإلى صلاح وأصدقائي وعملي، إلا أني ولو عاد الزمن إلى الوراء مجدداً، لفعلــت الشيء ذاته.

*****

لقد انتهيت من كتابة هذه المذكرات في نهاية العام 2012

في تموز / يوليو من العام 2012. وبعد عشرة أعوام من تقديمها للخدمات الصادقة المخلصة، فرّت الإعلامية غُلا عبّاس من عملها في تلفزيون الدولة السورية والتحقت بحركة الإنشقاقات التي توالت منذ منتصف مارس / آذار 2011، حيث دفعتها الحرب الداخلية الدائرة في بلادها إلى التخلي عن رفاهية العيش في وطنها.

ومن خلال يومياتها خلال الأشهر الأخيرة التي قضتها قبل خروجها من سوريا، حدَّثتنا عن أحوال بلادها لا سيما الأحداث الدامية حيث تكبح التقاليد السائدة تحرر المرأة.

تفضح علا في كتابها هذا أساليب وسائل الإعلام السوري، وتشي ببدايات انتفاضة المناطق التي صوِّرت على أنها مؤامرة يحيكها الغرب، كما تصف تفاصيل الأحداث بمختلف مظاهرها.

قصة غُلا قصة أربعين عاماً من تاريخ بلد. هي أيضاً صورة جماله وتقاليده وقصة شعب إنزلق في هذه الصدامات الدموية المرعبة.

